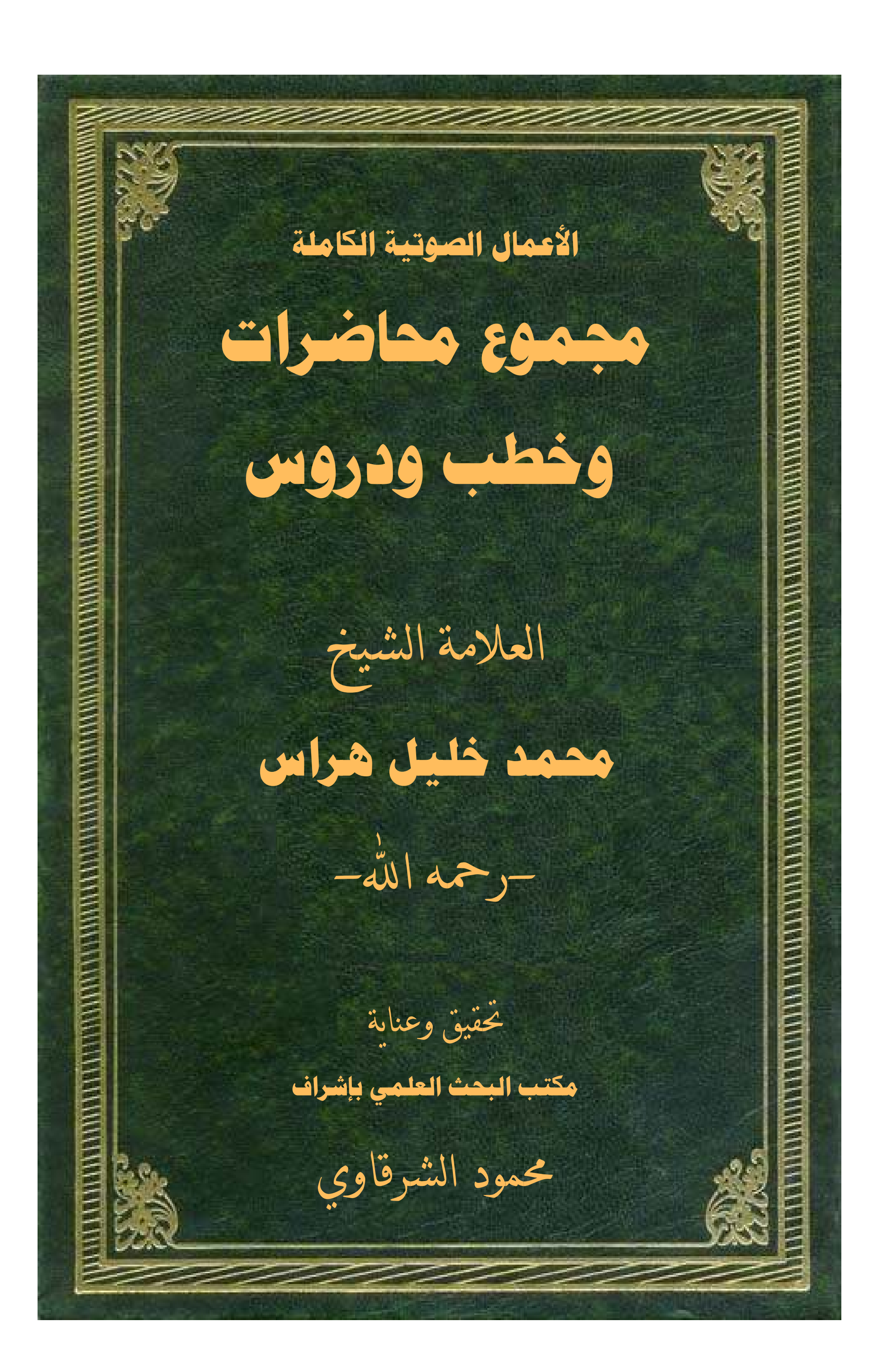
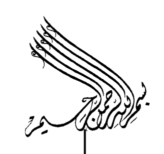


الأعمال الصوتية الكاملة
مجموع محاضرات
وخطب ودروس
العلامة الشيخ
محمد خليل هراس
-رحمه الله-
تحقيق وعناية
مكتب البحث العلمي بإشراف
محمود الشرقاوي



اسم الكتـاب : مجموع محاضرات وخطب ودروس العلامة محمد خليل هراس.

المؤلــف : محمد بن خليل هراس.

المحقق : محمود الشرقاوي.

الطبعة الأولى : ٢٠١٢

إخراج داخلي : مكتب البحث العلمي، قسم التجهيزات الفنية.

النـاشــر : مكتب البحث العلمي.

رقم الهاتف : ٠٠٢٠١١٤٦٨٦٠٨٥٣

الموقع على شبكة الإنترنت : www.tafreg.com

الأعمال الصوتية الكاملة

مجموع محاضرات وخطب ودروس

العلامة الشيخ

محمد خليل هراس

-رحمه الله-

تحقيق وعناية

مكتب البحث العلمي بإشراف

محمود الشرقاوي

مقدمة التحقيق



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه وزوجه وأتباعه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن للعلماء في أعناق كل مسلم منة، لا يستطيع أن يجازيهم بها، فمهما قدم المرء لهؤلاء العلماء من خدمات فلن تفي مقدار ما قدم هؤلاء العلماء من خدمات جليلة وعظيمة للأمة في كافة المجالات، وأخص منها العلم الشرعي.

ومن هؤلاء العلماء الذين أفنوا حياتهم في سبيل خدمة هذا الدين والذب عنه: الشيخ العلامة المحقق محمد خليل هراس -رحمه الله تعالى-.

والشيخ هراس -رحمه الله- من العلماء القلائل الذين صدعوا بكلمة الحق عالية في سبيل نشر هذا الدين ورفع رايته خفاقة عالية، فالفترة التي عاشها الشيخ هراس كانت مليئة بكثير من الطامات والمخالفات التي تمثلت في انتشار الفكر الشيوعي الاشتراكي في عهد الرئيس المصري جمال عبد الناصر، وانتشار الطرق الصوفية بصورة فاحشة، وانتشار الجهل والأمية اللذين ينتج عنهما عادة الانحرافات والضلال والبدع في أمور الدين، وانتشار طائفة ممن يُسمون "بالمتنورين" الذين لا هم لهم إلا الطعن في الدين، بالنيل من ثوابت القرآن تارة، أو بإنكار السنة أو بعضها تارة أخرى.

وفي خضم هذا المشهد المخيف، حمل علماء السنة والجماعة في مصر من أمثال العلامة محمد حامد الفقي، والعلامة عبد الرحمن الوكيل، والعلامة عبد الرزاق عفيفي، والعلامة محمد خليل هراس، حمل هؤلاء على عاتقهم هم نشر السنة ودمغ البدعة وفضح أهلها، وتعريف الناس بمنهج أهل السنة والجماعة بأسلوب يسير وواضح -كما سيأتي معنا- فكانت الثمرة بحمد الله واضحة، فليس هناك مسلم في جمهورية مصر الآن إلا ويعلم منهج أهل السنة ويعرف أنصار السنة ويعلم علمائها ويشيد بهم إلا تلك القلة التي أعلنتها صريحة وهي عداوة أهل السنة أبد الدهر.

ويسعد مكتب البحث العلمي أن يقدم للأمة الإسلامية التراث الصوتي العظيم لذلكم العالم الكبير فضيلة الشيخ العلامة محمد خليل هراس.

فهذا المصنف الذي بين أيديكم الآن هو ثمرة الجهد والتعب الذي مر به مكتب البحث العلمي من أجل إخراج التراث الصوتي في مصنف يعيش بين الأمة ليخلد ذكرى عالمها وشيخها العلامة محمد خليل هراس.

وهذا المجلد هو القطرة التي تكون في أول الغيث في سلسلة إخراج التراث الصوتي لمشايخنا وعلمائنا، وإن شاء الله تعالى سيتوالي إخراج باقي المصنفات تباعاً[١].

عملنا في الكتاب:

قمنا بحمد الله تعالى بتفريغ التراث الصوتي الكامل لفضيلة الشيخ العلامة محمد خليل هراس تفريغاً حرفياً، ثم قمنا بمراجعة بعض الكلمات وإعادة صياغة بعض العبارات التي نطقها الشيخ بالعامية، ولكننا أحياناً نترك نص كلام الشيخ لفائدة تظهر في سياق الكلام.

ثم قمنا بتخريج الآثار الحديثية التي وردت في كلام الشيخ رحمه الله، والحكم عليها تصحيحاً وتضعيفاً وفق أحكام العلامة محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله، إلا بعض الآثار النادرة.

تصرفنا في بعض ألفاظ الشيخ للضرورة القصوى وكنا نضعها أحياناً بين معكوفين للتمييز.

النسخة التي اعتمدنا عليها:

---

(١) سننشر إن شاء الله في هذه الدفعة ثلاثة مجلدات، تحتوي على تراث ثلاثة من العلماء وهم: الشيخ العلامة محمد حامد الفقي، والشيخ العلامة عبد الرحمن الوكيل، والشيخ العلامة محمد خليل هراس، رحم الله الجميع.

هي النسخة الرسمية التي أعدها مركز التراث والبحث العلمي، التابع لجمعية أنصار السنة المحمدية بمصر، وعددها ستة وعشرون شريطاً، بواقع اثنين وعشرين ساعة ونصف الساعة تقريباً.

تنبيهات:

قابلتنا بعض المواضع التي سقط فيها كلام الشيخ -وهي قليلة- فحذفناها وأضفنا بعض الكلمات اليسيرة لتناسب السياق.

بعض الشرائط كانت رديئة التسجيل فكانت تتلاشى بعض الكلمات ولا نستطيع تمييزها فقمنا بوضع بعض الكلمات الملائمة التي تناسب السياق، والحقيقة أنها قليلة أيضاً.

وأخيراً نسأل الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن نكون قد وفقنا في إعطاء هذا العالم الكبير بعض حقه علينا، سائلين المولى سبحانه أن يتغمده في واسع رحماته، وأن يجعل ما قدمنا في ميزان حسناتنا وحسناته، وأن يكتب لهذا العمل القبول بين الناس.

والحمد لله رب العالمين

وكتبه

الفقير إلى عفو الله

محمود الشرقاوي

مدير مكتب البحث العلمي

ترجمة الشيخ العلامة[١]

محمد خليل هراس -رحمه اللّه-

اسمه:

هو العلاَّمة، السلفيُّ، المحقِّق، محمد خليل هرَّاس.

مولده:

ولد بقرية الشين، مركز قطور، طنطا، محافظة الغربية، جمهورية مصر العربية، عام ١٣٣٤ هـ - ١٩١٦م، وتخرَّج من الأزهر في الأربعينات (ميلادي) من كلية أصول الدين، وحاز على الشهادة العالمية العالية (الدكتوراه) في التوحيد والمنطق.

معتقده:

كان -رحمه الله- سلفي المعتقد، شديدًا في الحقّ، قويّ الحجّة والبيان، أفنى حياته في التعليم والتأليف ونشر السنة وعقيدة أهل السنة والجماعة.

مناصبه:

عمل أستاذًا بكلِّيَّة أصول الدين في جامعة الأزهر، أُعير إلى المملكة العربية السعودية بطلب من العلامة عبد العزيز بن باز ، ودرَّس في جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية بالرياض، ثمّ أُعير مرَّةً أخرى، وأصبح رئيسًا

---

(١) أعد هذه الترجمة فضيلة الشيخ المؤرخ فتحي عثمان، مؤرخ جماعة أنصار السنة المحمدية، وقد نقلناها عنه بتصرف يسير، وهو الذي ألمح إلي بالبدء بتراث العلامة محمد خليل هراس.

لشعبة العقيدة في قسم الدِّراسات العليا في كلية الشريعة سابقًا -جامعة أم القرى حاليًا- بمكة المكرمة.

عاد إلى مصر، وشغل منصب نائب الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية، ثم الرئيس العام لها بالقاهرة.

نبذه عن حياته:

أوذي -رحمه الله- كثيرًا من المتصوفة وأهل البدع والضلال، وتعرض لمحاولات قتل عديدة، وذلك لما عرف عنه من شدته عليهم وإنكاره لضلالهم.

تلامذته:

ومن أبرز من تتلمذ على يد هذا العالم الهمام:

- الشيخ العلامة محمد أمان بن علي الجامي -رحمه الله-.
- الشيخ العلامة علي بن ناصر الفقيهي -حفظه الله-.
- الشيخ عبد الفتاح سلامة، وغيرهم كثير.

وفي عام ١٩٧٣م -قبل وفاته بسنتين- اشترك مع الدكتور عبد الفتاح سلامة في تأسيس جماعة الدعوة الإسلامية في محافظة الغربية، وكان أول رئيس لها.

أعماله العلمية:

له مؤلفات عدة وتحقيقات؛ منها:

- تحقيق كتاب "المغني" لابن قدامه، وقد طُبع لأول مرة في مطبعة الإمام بمصر.
- تحقيق وتعليق على كتاب "التوحيد" لابن خزيمة.

- تحقيق وتعليق على كتاب "الأموال" لأبي عُبيد القاسم بن سلام.
- تحقيق ونقد كتاب "الخصائص الكبرى" للسيوطي.
- تحقيق وتعليق على كتاب "السيرة النبوية" لابن هشام.
- تأليف كتاب "ابن تيمية ونقده لمسالك المتكلمين في مسائل الإلهيات".
- تأليف كتاب "ابن تيمية السلفي".
- شرح "العقيدة الواسطية" لابن تيمية.
- والعديد من المؤلفات الأخرى.

وفاته:

توفي -رحمه الله تعالى- عام ١٩٧٥م عن عُمر يناهز الستين.

ابن تيمية السلفي(١)

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وإمام الموحدين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين، أما بعد:

بمدينة حران الواقعة بين دجلة والفرات، تلك المدينة التاريخية التي شهدت نشأة أبي الأنبياء، إبراهيم عليه السلام، ووعت مناظرته لقومه الصابئين في بطلان عبادتهم للنجوم، والتي كانت قبل الفتح الإسلامي من أهل مراكز الثقافة اليونانية، ثم أصبحت بعد أن فتحها العرب على يد عياض بن غُنْم مهداً لكثير من العلماء والفلاسفة المسلمين، كانت تقيم أسرة كريمة اشتهر أفرادها برواية الحديث والإمامة في فقه الإمام أحمد بن حنبل ﷺ وهي أسرة ابن تيمية.

وقد اختلفت الروايات في تيمية هذه التي تنتسب إليها الأسرة، فتذكر بعضها أن جد ابن تيمية محمد بن الخضر حج على درب تيماء فرأى هناك طفلة فلما رجع وجد امرأته قد ولدت له بنتاً فقال: يا تيمية، يا تيمية فصارت لقباً.

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة في يوم الثلاثاء الموافق اثنين رجب سنة ألف وثلاثمائة وثمانين هجرية، الموافق عشرين ديسمبر سنة ألف تسعمائة وستين ميلادية، بقاعة المحاضرات في جامع الأزهر.

ويقول ابن النجار: ذُكر لنا أن جده محمداً كانت أمه تسمى تيمية، وكانت واعظة فنسب إليها وعرف بها.

في هذه المدينة التاريخية وبين أحضان هذه الأسرة العلمية، ولد مولود شاءت الأقدار أن يفتح عينيه ليرى مظاهر الخوف والقلق مرتسمة على وجوه والديه وإخوته بسبب الغزو التتري الماحق الذي أسقط بغداد قصبة الخلافة، ونشر الموت والخراب والفوضى، وأصبح يتهدد العالم الإسلامي كله بأفدح الأخطار، ولكن شاءت الأقدار أيضاً أن يكون هذا المولود فيما بعد هو مناط الآمال في تجميع القوى الإيمانية، وإلهاب الحماس الإسلامي لإيقاف سيل هؤلاء الهمج، وأن يكون صاحب أعظم معركة ذاقوا فيها مرارة الهزيمة والانكسار، وهي موقعة مرج الصُفَّر على يد السلطان الناصر وجيشه من المصريين.

ولد شيخ الإسلام أحمد تقي الدين بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة، واضطر والده عبد الحليم أن يهاجر به وبإخوته من حران إلى دمشق هرباً من جحيم التتار، فساروا بالليل ومعهم الكتب على عجلة يجرونها بأيديهم لعدم وجود الدواب فانغرست العجلة في الطين وكاد العدو يلحقهم ولكنهم ابتهلوا إلى الله واستغاثوا فنجوا وسلموا.

وفي هذه المدينة الجديدة دمشق التي كانت تضارع القاهرة إذ ذاك في ميدان العلم والثقافة بعد سقوط بغداد، عكف أحمد على دراسة العلوم الدينية فدرس على والده عبد الحليم مذهب ابن حنبل، وسمع الحديث من شيوخ كثيرين، وحصَّل من علوم اللغة واللسان والنظر وغيرها قدراً كبيراً.

وكان له من قوة الذكاء وجودة الحفظ وحضور البديهة أكبر عون على ما هو بسبيله من درس وتحصيل، فأتم دراسته الدينية ولما يتجاوز العقد الثاني من عمره[1].

ولما توفي والده عبد الحليم سنة إحدى وثمانين وستمائة من الهجرة، أخذ يدرس الفقه الحنبلي مكانه، وانتهت إليه رياسة هذا المذهب وهو ابن إحدى وعشرين سنة، فبعد صِيته واشتهر أمره.

حالة المجتمع الإسلامي في عصر ابن تيمية:

كان كل شيء في ذلك العصر قد دب فيه الفساد وأصابه التغير والانحراف، وترى فيه الجمود حتى أصبح صورة بلا معنى، وجسداً بلا روح، وكان الحكام عجماً، يغلب عليهم الجهل وتروج عندهم الخرافة، فاستعجمت سبعاً لذلك الألسن، والعقول، والأخلاق، والعادات، والأنظمة، والقوانين، وغلبت الأفكار الدخيلة والعناصر الأجنبية على ما هو كل عربي إسلامي، وامتزجت علوم الدين بالفلسفة على يد المتأخرين من المتكلمين وفشت البدع

---

(١) ويقال إنه شرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت.

والمحدثات وتغلغلت في كل شيء من العقائد والعبادات وألوان السلوك، ولاسيما في مجال التصوف وما يتصل به من رموز وشارات ودعاوى وتلبيسات واصطناع للولاية وتحدٍ بالكرامات، وما يتبع ذلك من تعظيم قبور الموتى لإقامة القباب عليها والفزع إليها في قضاء الحاجات وتفريج الكربات، وغلبت على العلماء نزعة التقليد، وتقاصرت هممهم عن الإحياء والتجديد، وبلغ بينهم التعصب المذهبي أقصى مداه، فاستحالت المناظرات إلى مهاترات، وقام التكفير والتضليل مقام الإقناع بالدليل، واختلت موازين البحث وقوانين النظر حتى استساغت العقول ألواناً من الكفر الشنيع، لم تكن لتصيغها ولا لتعبر فيها أصحابها، لو استقام النظر وصح التفكير، وذلك مثل وحدة الوجود التي نادى بها ابن عربي وأقام عليها صرح فلسفته وملأ بها صفحات من كتابيه: "الفصوص والفتوحات"، ومثل نظرية الحلول التي هتف بها الحلاج، وجعلها مصدر وحيه وإلهامه، حتى أفتى العلماء بحل دمه، وغير ذلك كثير مما كان يظفر به العالم الإسلامي من ألوان الفساد الأخرى، بسبب ضعف الوازع الديني ونضوب معين الإيمان كانتشار الفسق والفجور، وانحلال الروابط الاجتماعية وفساد الأخلاق، وظهور الغش في البياعات والصناعات واحتكار الأقوات وكثرة الاعتداء على الأعراض والأموال.

وبالجملة فقد كان العالم الإسلامي في ذلك الوقت أشبه بمريض أعضل داؤه، وسرت العلة في كيانه، حتى أشفى على الهلكة ما لم تداركه رحمة الله وتهيئ

له من الأطباء [الحاذقين][1] من يرسم له سبيل الإنقاذ والنجاة، وكان ابن تيمية رحمه الله هو الرجل الذي هيأته الأقدار للقيام بهذه المهمة الصعبة، فقد استطاع أن يضع يده على موطن العلة، فوجدها تكمن في الانقسام والفرقة الذين سببها البعد عن الكتاب والسنة، ووجدها في هذا الركام الهائل من المذاهب والأفكار والفلسفات الدخيلة، التي لا ضابط لها، ولا تتصل من الإسلام بسبب ولا نسب، ووجدها في هذا الجمود الذي عطل المواهب وشل حركة الفكر وأزرى بقيمة العقل وحط من كرامة الإنسان، حتى رضي أن يكون كالسائمة كيفما تقد تنقد بلا وعي ولا تفكير، ووجدها في هذه التعصب الأعمى لمذاهب المتقدمين، والمبالغة في تقديسها إلى الحد الذي حجب عن الأنظار عيوبها وأخفى مآخذها ومنع أتباعها من محاولة إحيائها والتجديد فيها، وجابه في ذلك وغيره من ألوان الضعف التي تنتاب الأمم في بعض فترات حياتها، فتهون على نفسها، وترضى بالدون من كل شيء، وتستنيم للأماني، وتستسلم للهزيمة، وتتلمس المعاذير لتبرير الفشل، وتتعلق من مجد الماضي بما تحس فيه برد العزاء من خيبة الحاضر، وتقف باردة بإزاء الأحداث الكبرى كأنها ألواح الثلج، فلا ينبض فيها قلب بعاطفة، ولا يتحرك فيها عقل بفكرة، ولا تنهض فيها عزيمة بعمل.

كان العالم الإسلامي في حاجة إلى صيحة النذير التي تصرخ به ليفيق، وإلى الفكرة الهادية التي تسدده على الطريق، وإلى النظرة الناقدة التي تميز له

---

(١) في أصل المادة الصوتية كلمة غير واضحة، فأثبتناها بما ترى.

الزيف من الجياد حتى لا يخدعه البهرج ويغره البريق، وكان في حاجة إلى القلم الحر الذي لا يكتب من إملاء الآخرين، واللسان المقول الذي لا يقنع بالمحاكاة والترديد لعبارات المتقدمين، قلم ولسان يملكان القدرة على دحض كل باطل، ورد كل فرية، كما يملكان القدرة على الإحياء والتجديد لما درس من معالم الحق، وانطمس من سنن الهدى، ويرجعان بالناس سيرة أسلافه في العلم والعمل، حتى يعود لهم ما هرب من مجد وسلطان، ويزول عنهم ما هم فيه من ذلة وهوان، وقد تمثل كل ذلك في شيخ الإسلام ابن تيمية، نعم قد ظهر قبله نفر من العلماء الأحرار لم تأخذهم في الله رغبة ولا رهبة، ولم يثنهم عن قولة الحق إرعاد أو وعيد، وسجل لهم التاريخ مواقف بطولية تدل على مدى اعتزازهم بالعلم، وحرصهم على القيام بما استحفظوا عليه من دين الله، وذلك مثل الإمام النووي، صاحب المجموع، والعز بن عبد السلام، وابن دقيق العيد وغيرهم، ولكن أحداً من هؤلاء لم ينهض بما نهض به ابن تيمية من أعباء ولم يتحمل مثلما تحمل من محن وأرجاء، فإن إخلاصه للحق وجرأته في النقد، وقسوته في الهجوم على خصومه، أثارت عليه العداوات من كل جانب، ثار عليه الفقهاء والمتكلمون والمتصوفة، ورموه عن قوس واحدة، وأشلوا به العامة ورجال الدولة، فما وجف له قلب، ولا جف له قلم، ولا كف لسان، بل ظل ماضياً في طريق الإصلاح التي اختطها، متخطياً كل عقبة، ناهداً لكل فرقة،

مستهيناً بما يلقى من نفي وغربة، وإلقاءٍ في غيابات السجون المرة بعد المرة، حتى وافته منيته وهو محبوس بقلعة دمشق بعد حياة حافة بأكرم التضحيات.

يقول الحافظ الذهبي صاحب الميزان في بعض ما ترجم به لأستاذه ابن تيمية: (كان آية في الذكاء وسرعة الإدراك، رأساً في معرفة الكتاب والسنة والاختلاف، ذخراً في النقليات، وأما معرفته بالملل والنحل والأصول والكلام فلا أعلم له فيه نظيراً، وله خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث وبالعالي والنازل والصحيح والسقيم، مع حفظه لمتونه، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته ولا يقاربه، وهو عجب في استحضاره الحديث واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة والمسند، بحيث يصدق أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث، وله باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين، وقل أن يتكلم في مسألة إلا ويذكر فيها مذاهب الأربعة، وقد خالف الأربعة في مسائل معروفة، وصنف فيها، واحتج لها بالكتاب والسنة، وله الآن عدة سنين لا يفتي بمذهب معين بل بما قام عليه الدليل عنده، ولقد نصر السنة المحضة والطريقة السلفية واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون، وهابوا وجسر هو عليها حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه، وبدعوه وناظروه وكابروه وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي بل يقول الحق المر الذي أداه إليه اجتهاده وحدة ذهنه وسعة دائرته في السنن

والأقوال، مع ما اشتهر عنه من الورع وكمال الفكرة وسرعة الإدراك والخوف من الله والتعظيم لحرمات الله).

ويقول الإمام السيوطي الأشعري الشافعي: فوالله ما رمقت عيني أوسع علماً، ولا أقوى ذكاءً من رجل يقال له ابن تيمية مع الزهد في المأكل والملبس والنساء، ومع القيام في الحق والجهاد بكل ممكن).

وسأحاول إن شاء الله جهد الطاقة أن أرسم في محاضرة الليلة الخطوط العريضة للحركة الإصلاحية التي قام بها ابن تيمية في القطاعات المختلفة، [وأطوف](١) بجهاده في الناحية العملية.

يقول علماء النفس والتربية: (إن النبوغ في الناحية العلمية والتبريز في ميدان الفكر يغلب أن يقابله ضعف في الملكات العملية وميل إلى الانطواء والسلبية، وإنه قلما يجتمع لأحد أن يبرز في الميدانيين معا، فلا يكون رب اللسان والقلم رجل سيف ومزراق) وهذا كلام يصدقه الواقع إلى حد كبير فإن التاريخ لم يحفظ لنا أسماء كثير ممن نبغوا في الناحيتين معاً، ولعلهم من الندرة بحيث لا يظهر منهم في الحقب المتطاولة إلا الواحد بعد الواحد.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية أحد هؤلاء الأفذاذ الذين بلغوا شأواً بعيداً في كل من ميداني العلم والعمل، وإن كانت شهرته العلمية قد غطت إلى حد كبير على الناحية الأخرى منه، فلم يعرفها إلا القليل ممن درسوا حياته وعاشوا

---

(١) كلمة غير واضحة في أصل الشريط، فأثبتها بما ترى.

معه كل أيام محنته، ورأوا عظيم إبلائه في كل ما خاضه من معارك واقتحمه من خطوب.

لم يكن ابن تيمية يعيش في برج عادي منطوياً على نفسه، منفصلاً عن مجتمعه، بل كان عظيم التجاوب معه، شديد الإحساس بما يجب عليه من المشاركة في إسعاده وإصلاح حاله، وحسبنا دليلاً على ذلك ما أبلاه في حرب التتار الذين اضطروا أهله إلى الهجرة من وطنهم، حران، فعندما أرجف المرجفون في دمشق بأن التتار قد أصبحوا على مقربة منها، وأنهم يتأهبون لدخولها، فزع أهلها لذلك فزعاً شديداً وهم كثير منهم بمغادرتها وتركها غنيمة بارزة للعدو، ولكن ابن تيمية وقد هاله الأمر ينهض بعبء الدفاع عن حاضرة الإسلام فيخطب في الناس في المسجد الجامع يوصيهم بالصبر والثبات، ويحضهم على الجهاد والنفقة، ويحذرهم من الفرار، ويرسل رجالاً من أتباعه لحراسة مداخل المدينة حتى يمنعوا الجبناء من الفرار منها، ثم يخرج في جماعة من العلماء والأعيان لمقابلة قائد التتر، غازان، ليأخذوا منه الأمان لأهلها، وكان الذي تولى معه الكلام هو ابن تيمية، فأغلظ له في القول إغلاظاً شديداً حتى أيقن كل من كان معه أنه مقصود لا محالة، ولما عاود التتار عدوانهم وهددوا دمشق مرة أخرى، طلب أهلها من ابن تيمية أن يركب على البريد إلى مصر، وأن يقابل السلطان الناصر، ففعل، وذهب إلى مصر وكانت هذه أول مرة يزور فيها البلاد المصرية، وقابل السلطان الناصر، وكلمه في ذلك كلاماً شديداً حتى

تأثر الناصر بكلامه، فأمر بجمع العساكر بعد تسريحها وخرج هو على رأسها وكانت وقعة مرج الصفر التي انتصر فيها المسلمون على التتار انتصاراً عظيماً، وأذاقوهم لأول مرة كأس الهزيمة والاندحار، وكان ابن تيمية في تلك الوقعة يمشي بين الصفوف، يقويهم ويبشرهم بالنصر، ويحبب إليهم الاستشهاد وأفتاهم في هذا اليوم بالفطر، وكانت المعركة في رمضان لكي يقووا على لقاء العدو، وكان يأكل ويشرب أمامهم متأسياً في ذلك بفعل رسول الله ﷺ في غزوة بدر.

ومن ذلك أيضاً بلاؤه في محاربة البدع والضلالات التي كانت شائعة في عصره، فإنه لم يكتف بالخطب وكتابة الرسائل في محاربتها والتحذير منها، بل كثيراً ما شارك في إزالتها بيده مع الاستعانة في ذلك بأتباعه المخلصين، يقول خادمه الشيخ إبراهيم الغياني: "فبلغ الشيخ أن جميع ما ذكر من البدع يتعمدها الناس عند العمود المخلق الذي داخل الباب الصغير، فشد عليه وقام واستخار الله في الخروج إلى كسره، فسمع الناس أن الشيخ يخرج لكسر العمود المخلق، فاجتمع خلق كثير معه ولكنهم ما إن وصلوا عنده حتى انخزل أغلبهم ورجعوا خشية أن ينالهم منه في أنفسهم آفة من الآفات أو ينقطع بسبب كسره بعض الخيرات لاسيما وقد أرجف الشيطان بالناس وألقى في قلوبهم أن هذا العمل سيكون مصدر شر كبير، وتقدم الشيخ هو وأخوه شرف الدين وصاحا بالحجارين أن دونكم هذا الصنم، فما جسر أحد منهم أن يتقدم إليه، فأخذا

منهم المعاول وضربا فيه وهما يتلوان قول الله تعالى: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾«الإسراء:٨١» ، وقالا للناس إن أصاب أحداً منه شيء فنحن فداه، فتابعهما الناس بالضرب حتى كسروه، فوجدوه خلفه صنمين من حجارة مجسدة مصورة، طول كل صنم نحو شبر ونصف.

وهذا قليل من كثير، أردنا به التعريف فقط بمدى عناية شيخ الإسلام ابن تيمية بهذه النواحي العملية، وأنه لم يكن من هؤلاء العلماء الذين يظنون أن واجبهم يقف عند حد التبليغ والبيان بل وربما أثروا السكوت والتزموا الكتمان.

الناحية النقدية عن ابن تيمية:

كان على ابن تيمية وهو بسبيل وضع منهاج شامل للإصلاح الديني، أن يبدأ أولاً بالخطوة التي لا بد منها لكل دعوة إصلاحية، وهي الوقوف على كل ما هنالك من مناهج وآراء، والقيام بدراستها دراسة تحليلية، تكشف عن كنها وتميز غثها من ثمينها حتى يعرف ما فيها من حق فيقر أو من باطل فيهدر، وهذا ما فعله ابن تيمية -رحمه الله- فقد أكب على دراسة المذاهب والمقالات من كلامية وفلسفية بشغف بالغ، ونهم شديد، وقرأ كل ما كتب في تأييدها أو دفعها، وغاص في أعماقها إلى الحد الذي جعله يتخوف فيها على أصحابها الداعين إليها، ولم يدرسها تلك الدراسة الواسعة العميقة إلا ليتمكن من نقدها نقداً نزيهاً بعيداً عن المجازفة، ولئن كان الغزالي قد سبقه بنقد الفلسفة واستحق

بذلك لقب حجة الإسلام، كما سبقه ابن رشد الحفيد بنقد الغزالي في كتابه: "تهافت التهافت"، كما نقد مناهج المتكلمين في كتابه: "الكشف عن مناهج الأدلة" وكما سبقه كل الفرق في نقد بعضها بعضاً، فإن ابن تيمية قد استغل كل ما سبق به من نقد، في نقده للفرق المختلفة، المخالفة للكتاب والسنة وزاد على ذلك من ابتكاراته الشيء الكثير، ولهذا يمكن أن نقول: إن ابن تيمية قد أسس أعظم مدرسة نقدية في الإسلام، تميزت بقوة النقد ودقته وأنه لم يكن يختص بنقده مذهباً معيناً ولا فرقة خاصة بل وجه سهام نقده إلى جميع الفرق المخالفة للكتاب والسنة، فإنهما عنده هو الميزان الذي يعرف به قرب المذهب أو بعده من الحق، فلكل مذهب من الحق بمقدار قربه من الكتاب والسنة، وله من الخطأ والضلال بمقدار بعده من الكتاب والسنة.

وإن الكتب التي ألفها في هذه الناحية النقدية تكفي لأن تقوم عليها دراسة خاصة عليا لإبراز ما تحتويه من روائع الفكر وأبكار المعاني لاسيما كتابه المشهور "منهاج السنة النبوية في نقد كلام الشيعة والقدرية" الذي يرد فيه على ابن المطهر الرافضي، فقد أودعه من ألوان النقد وأساليب الجدل ما لا يوجد مثله في كتاب وكذلك كتابه "الموافقة بين المعقول والمنقول" أو الذي يسمى "درء التعارض بين العقل والنقل" الذي يقول فيه تلميذه ابن القيم في قصيدته النونية:

وله كتاب العقل والنقل الذي		ما في الوجود له نظير ثان

وكتاب "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح"، وكتاب "السبعينية" في الرد على ابن سبعين وأضرابه من القائلين بوحدة الوجود، وكتاب "الصارم المسلول على شاتم الرسول"، وكتاب "اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم"، وكتاب "تلبيسات الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية" إلى غير ذلك مما لا يمكن حصره في هذه العجالة.

وقد ألف كتاباً في نقد المنطق الأرسطي في الوقت الذي كان يتمتع فيه هذا المنطق بأعظم مكانة بين العلوم الإسلامية حتى سماه الغزالي "معيار العلوم"، فقد سبق ابن تيمية بهذا الكتاب فلاسفة العصر الحديث من أمثال بيكون وديكارت وجون ستيورات ميل وغيرهم ممن ألفوا في نقد المنطق الأرسطي، ونثروا عليه المنطق التجريبي، بل إن نقدهم له لا يعد شيئاً بجانب نقد ابن تيمية، فإنه لم يترك جزئية من جزئيات هذا المنطق إلا حللها ورد عليها، يقول الدكتور سليمان الندوي في مقدمة هذا الكتاب: (وإذا أمعنت النظر في هذا الكتاب تجد مسائل منطقية وفلسفية، ابن تيمية أبو عذرتها وهي تطابق كل المطابقة ما قال فلاسفة الإفرنج في هذا العصر في بعض مسائل المنطق والفلسفة، فمناطقة المسلمين كلهم اتبعوا أرسطو في جعل الكليات أصل العلم وترجيح ما سموه برهانيات، وحط الشأن من الاستقراء حتى قال العلماء: إن مل، المنطقي الإنجليزي هو الذي هذب الاستقراء ووضع المنطق، فمما يجب علي في هذه الوجيزة الإلماع به هو ما قال المصنف في حقيقة الحد والجنس

والفصل واللزوم وحقيقة العلة والقياس والاستقراء والاستدلال بالمشهورات والاكتفاء بمقدمة واحدة في القياس وغيره من المباحث العويصة التي حل المصنف مشكلها ببيان واضح ودليل راهن، وما قاله في العلة واللزوم هو عين ما قاله غيوم الفلسفي في كتبه، ومسألة اللزوم والعلية من المسائل العويصة التي ضلت في واديها الأفهام، ونبعت من عيونها ضلالات الطبائعيين من أهل الإلحاد، وكم لهذا النابغة في هذا الكتاب من نوادر لم يسبقه إليها أحد ﷺ).

وإذا كان ابن تيمية لا ينقد كما قلنا لمجرد النقد بل كان يتخذ من النقد أداة لإبراز الأخطاء التي وقعت فيها المذاهب المختلفة، فإن نقده لها لم يحل بينه وبين الاعتراف بما عندها من حق موافق للصواب، كما أنه كان لا يؤاخذ أحداً إلا بما صحت نسبته إليه، ويجتهد في عزو كل قول إلى قائله، ويُعنى بتحديد الألفاظ تحديداً ينفي عنها كل إجمال واشتباه، مع التقصي لكل الوجوه المبطلة لكلام الخصم، حتى إنه كان يرد على المسألة الواحدة من عشرين وجهاً ومن أربعين وجهاً أحياناً.

نماذج من نقد ابن تيمية للفرق:

وأخيراً لعل من المفيد أن نذكر نماذج من نقد ابن تيمية للفرق المختلفة يتضح بها أسلوبه في هذا الباب، فإنه أحياناً يهدأ في نقده ويسوق الحجج في رفق واتزان، وأحياناً يعنف حتى يرمي خصومه بلواذع الألفاظ، فمن أمثلة نقده الهادئ قوله في رسالته التدمرية عند مناقشته لنفاة الصفات، ما ملخصه: (فإن

كان المخاطب ممن يقول: بأن الله حي بحياة، عليم بعلم، قدير بقدرة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام، مريد بإرادة ويجعل ذلك كله حقيقة، وينازع في محبته ورضاه وغضبه وكراهته فيجعل ذلك مجازاً ويفسره إما بالإرادة وإما ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات فيقال له: لا فرق بين ما نفيته وبين ما أثبته، بل القول في أحدهما كالقول في الآخر فإن قلت: إرادته كإرادة المخلوقين فكذلك محبته ورضاه وغضبه وهذا هو التمثيل، وإن قلت إن له إرادة تليق به كما إن للمخلوق إرادة تليق به قيل لك: وكذلك له محبة تليق به وللمخلوق محبة تليق به، وله رضى وغضب يليق به وللمخلوق رضى وغضب يليق به، وإن قلت: الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام، فيقال له: والإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة، فإن قلت: هذه إرادة المخلوق، قيل لك: وهذا غضب المخلوق، فهذا المفرق بين بعض الصفات وبعض يقال له فيما نفاه كما يقوله له في منازعه فيما أثبته، وإن كان المخاطب ممن ينكر الصفات ويقر بالأسماء كالمعتزلي الذي يقول: إنه حي عليم قدير، وينكر أن يتصف بالحياة والعلم والقدرة قيل له: لا فرق بين إثبات الأسماء وإثبات الصفات، فإنك إن قلت: إثبات الحياة والعلم والقدرة يقتضي تشبيهاً أو تجسيماً لأنا لا نجد في الشاهد متصف بالصفات إلا ما هو جسم، قيل لك: ولا نجد في الشاهد ما هو مسمى حي عليم قدير إلا ما هو جسم، فإن نفيت ما نفيته لكونك لم تجده في الشاهد إلا للجسم، فانف الأسماء أيضاً، بل وكل شيء لأنك لا تجده للشاهد

إلا للجسم، فكل ما يحتج به من نفى الصفات يحتج به نافي الأسماء الحسنى، فما كان جواباً لذلك كان جواباً لمثبتي الصفات).

ومن أمثلة نقده اللاذع الشديد قوله في الفتوى الحموية في رده على نفاة الصفات الخبرية حينما سئل عن آيات الصفات وأحاديثها يقول: (ثم هؤلاء المتكلمون المخالفون للسلف إذا حقق عليهم الأمر لم يوجد عندهم من حقيقة العلم بالله وخالق المعرفة به، خبر ولا وقعوا من ذلك على عين ولا أثر، كيف يكون هؤلاء المحجوبون المنقوصون المسبوقون الحيارى المتهوكون أعلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكم في باب ذاته وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل وأعلام الهدى ومصابيح الدجى الذين بهم قام الكتاب و به قاموا وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع الأنبياء فضلاً عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم، وأحاطوا من حقائق المعارف وبواطن الحقائق بما لو جمعت حكمة غيره إليها لاستحيا من يطلب المقابلة، ثم كيف يكون خير قرون الأمة أنقصت العلم والحكمة لاسيما العلم بالله وأحكامه وأسمائه وآياته من هؤلاء الأصاغر بالنسبة إليهم؟ أم كيف يكون أفراخ المتفلسفة وأتباع الهند واليونان وورثة المجوس والمشركين وضلال اليهود والنصارى والصابئين وأشكالهم وأشباههم، أعلم بالله من ورثة الأنبياء وأهل القرآن والإيمان؟ وليس غرضي واحداً معيناً وإنما أصف نوع هؤلاء ونوع

هؤلاء وإذا كان كذلك فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسوله ﷺ من أولها إلى آخرها ثم عامة كلام الصحابة والتابعين ثم كلام سائر الأئمة مملوء بما هو إما نص وإما ظاهر في أن الله سبحانه وتعالى هو العلي الأعلى وهو فوق كل شيء وهو على كل شيء وأنه فوق العرش وفوق السماء، فإن كان الحق فيما يقول هؤلاء السالبون النافون للصفات الثابتة في الكتاب والسنة من هذه العبارات ونحوها، دون ما يفهم من الكتاب والسنة إما نصاً وإما ظاهراً فكيف يجوز على الله ثم على رسوله ثم على خير الأمة أنهم يتكلمون دائماً بما هو نص أو ظاهر في خلاف الحق؟ ثم الحق الذي يجب اعتقاده لا يبوحون به قط، ولا يدلون عليه لا نصاً ولا ظاهراً حتى يجيء أنباط الفرس والروم و فروخ اليهود والنصارى والفلاسفة يبينون للأمة العقيدة الصحيحة التي يجب على كل مكلف أو كل فاضل أن يعتقدها، لئن كان ما يقوله هؤلاء المتكلمون المتكلفون هو الاعتقاد الواجب وهم مع ذلك أحيلوا في معرفته على مجرد عقولهم وأن يدفعوا بما اقتضى قياس عقولهم ما دل عليه الكتاب والسنة نصاً أو ظاهراً، لقد كان ترك الناس بلا كتاب ولا سنة أهدى لهم وأنفع على هذا التقدير بل كان وجود الكتاب والسنة ضرراً محضاً في أصل الدين، فإن حقيقة الأمر على ما يقوله هؤلاء المتأولون أنكم يا معشر العباد لا تطلبوا معرفة الله ﷻ وما يستحقه من الصفات نفياً وإثباتاً لا من الكتاب ولا من السنة ولا من طريق سلف الأمة ولكن انظروا أنتم بعقولكم فما وجدتموه مستحقاً له من الصفات فصفوه به

سواء كان موجوداً في الكتاب والسنة أو لم يكن، وما لم تجدوه مستحقاً له في عقولكم فلا تصفوه به، يا سبحان الله! كيف لم يقل الرسول يوماً من الدهر ولا أحد من سلف الأمة هذه الآيات والأحاديث لا تعتقدوا ما دلت عليه، ولكن اعتقدوا الذي تقتضيه مقاييسكم واعتقدوا كذا وكذا، فإنه الحق وما خالفه ظاهره فلا تعتقدوا ظاهره، وانظروا فما وافق قياس عقولكم فاعتقدوه وما لا تتوقفوا فيه ... إلى أن يقول: ثم المخالفون للكتاب والسنة وسلف الأمة من المتأولين في هذا الباب في أمر مريج فإن من ينكر الرؤية يزعم أن العقل يحيلها وأنه مضطر فيها إلى التأويل ومن يحيل أن لله علماً وقدرة وأن يكون كلامه غير مخلوق ونحو ذلك، يقول: إن العقل أحال ذلك فاضطر إلى التأويل بل من ينكر حقيقة حشر الأجساد والأكل والشرب الحقيقي في الجنة، يزعم أن العقل أحال ذلك وأنه مضطر إلى التأويل ومن يزعم أن الله ليس فوق العرش يزعم أن العقل أحال ذلك وأنه مضطر إلى التأويل، ويكفيك دليلاً على فساد قول هؤلاء أنه ليس لواحد منهم قاعدة مستمرة فيما يحيله العقل أو يجيزه بل منهم من يزعم أن العقل جوز أو أوجب ما يدعي الآخر أن العقل أحاله، يا ليت شعري بأي عقل يوزن الكتاب والسنة إذاً، فرضي الله عن الإمام مالك بن أنس حيث قال: (أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد ﷺ لجدل هؤلاء).

منهج ابن تيمية في بحث المسائل الاعتقادية:

يذكر ابن تيمية أن هناك ثلاث مناهج في بحث المسائل الاعتقادية التي تسمى بالأصول، كلها منحرفة عن القصد، سالكة غير سبيل المؤمنين من سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ويسمي أصحاب المنهج بأهل التخييل وهم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم وهؤلاء يقولون: إن ما ذكره الرسول من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر، إنما هو تخييل للحقائق لينتفع به الجمهور ولم يقصد به إلى بيان الحق ولا إلى هداية الخلق، وهؤلاء فريقان:

فريق يقول: إن الرسول لم يعلم الحقائق على ما هي عليه، ويزعم أن من الفلاسفة والأولياء من هو أعلم بالله واليوم الآخر من النبيين والمرسلين.

وفريق يقول: إن الرسول علمها لكن لم يبينها بل تكلم بما يناقضها وأراد من الخلق فهم ما يناقضها لأن مصلحة الخلق في هذه الاعتقادات التي لا تطابق الحق، فما جاء به الرسول من وصف الله جل وعلا بصفات الإثبات من أن له وجهاً ويداً وعيناً ومن كونه مستوياً على العرش وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا، ويجيء يوم القيامة، ومن كونه يغضب ويرضى، ويحب ويكره، ويضحك ويعجب، وما جاء به أيضاً في شئون المعاد من حشر الأجساد ومن إثبات نعيم وعذاب حسيين كل ذلك عندهم خلاف الحق، ولكن لا يمكن دعوة الحق إلا بهذه الطريق لأنهم لا يستطيعون تصور المعاني مجردة عن المحسوسات، وهذا الكذب من الرسول إنما هو لمصلحة العباد عند هؤلاء الفلاسفة فكان جائزاً،

وبالجملة فهؤلاء المتفلسفة يقدمون علومهم الفلسفية التي هي في زعمهم حقائق برهانية على علم الرسول لأنه خطابي لا يليق إلا بالعوام.

وأما أصحاب المنهج الثاني فيسميهم أهل التأويل: وهؤلاء يقولون: إن النصوص الواردة في الصفات وغيرها لم يقصد بها الرسول أن يعتقد الناس الباطل ولكن قصد بها معاني ولم يبين لهم تلك المعاني ولا دلهم عليها ولكن أراد أن ينظروا فيعرفوا الحق بعقولهم ثم يجتهدوا في صرف تلك النصوص عن مدلولاتها إلى تلك المعاني التي استخرجوها بعقولهم ومقصوده بذلك امتحانهم وتكليفهم وإتعاب أذهانهم وعقولهم بأن يصرفوا كلامه عن مقتضاه ومدلوله وأن يعرفوا الحق من غير جهة الرسول، وهذا منهج العقليين من المتكلمين من جهمية ومعتزلة ومن تبعهم من متأخري الأشاعرة كالإمام الجويني، والإمام الغزالي، وفخر الدين الرازي، والآمدي وغيرهم، وهؤلاء يفرقون بين النصوص الواردة في الصفات فيوجبون تأويلها، وبين النصوص الواردة في المعاد فيحملونها على ظواهرها من غير تأويل، ويقول ابن تيمية: إن نصوص الصفات في الكتاب الإلهية أكثر من نصوص المعاد، وإقرار العقول بالصفات أعظم من إقرارها بالمعاد، فإن مشركي العرب كانوا ينكرون المعاد ويناظرون الرسول عليه، ولكنهم لم ينكروا الصفات، فكيف يجوز إذاً أن يكون ما أخبر به الرسول من الصفات ليس على ما أخبر به وما أخبر به من المعاد هو حق على ما أخبر به.

وأما أصحاب المنهج الثالث فيسميهم أهل التجهيل: وهم كثير من المنتسبين إلى السنة و اتباع السلف يقولون: إن الرسول ﷺ لم يعرف معاني ما أنزل الله إليه من آيات الصفات ولا جبريل يعرف معاني تلك الآيات ولا السابقون الأولون عرفوا ذلك. وكذلك يقولون في أحاديث الصفات: إن معناها لا يعلمه إلا الله، فعلى قولهم يكون الرسول تكلم بكلام لا يعرف معناه، لا هو ولا جبريل ولا غيرهما وهؤلاء هم الذين يسمون بالمفوضة، وإذا كانت هذا المناهج الثلاثة بعيدة عن سبيل القصد، جانحة إما إلى الإفراط والغلو في تقدير العقل، والتعويل على أحكامه وحدها في أهم المهمات في الدين وهي العقيدة في الله واليوم الآخر وعزل نصوص الكتاب والسنة عن إفادة الحق واليقين في هذا الباب، وإما مفرطة بإهمال جانب العقل بالكلية كاعتقاد أن في الكتاب والسنة ما لا يفهم معناه أحد، حتى الرسول الذي بلغه وتكلم به ابتداءً كان لا يفهمه، فالمنهج الحق في هذا الباب عند ابن تيمية هو التعويل على النصوص وحدها، والإيمان بكفايتها فمتى صح النص لا يجوز العدول عنه، ولا معارضته بقياس عقلي ولا بكشف صوفي، ولا بغير ذلك مما يدعيه الناس طرقاً للمعرفة بل كل وظيفة العقل عند ابن تيمية في هذا الباب، أن يفهم ما جاءت به النصوص دون أن يبتكر من عنده شيئاً، لأن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق وبين للناس كل ما يحتاجون إليه من أمر دينهم ولم يكلهم في شيء من ذلك إلى قضايا عقولهم لاسيما فيما هو من أصول الدين وقضاياه الكبرى،

فليس من المعقول أن يترك الرسول ﷺ وهو الذي علم أمته كل شيء حتى كيفية الوضوء والاستنجاء، هذا الباب ناقصاً يحتاج أن تكمله العقول، فالعقائد الإيمانية مذكورة ببراهينها في القرآن وما على العقل إلا أن ينظر في هذه البراهين ليستدل بها وليفهم جهة الدلالة فيها، وليس له أن يبتكر من عنده شيئاً بل إن خلاصة ما عند أرباب النظر العقلي في الإلهيات من الأدلة اليقينية والمعارف الإلهية، قد جاء بها الكتاب والسنة مع زيادات أو تكميلات لم يهتد إليها إلا من هداه الله فوفقه لفهم خطابه وما جاء به الرسول من ذلك فوق ما في عقول جميع العقلاء من الأولين والآخرين، فالطريق الوحيد إلى الإيمان الصحيح والعلم اليقيني في هذا الباب ليس كما يقولون أرباب النظر: إنه برهان العقل، بل هو ما جاء به الرسول ﷺ، لأنه أعلم من غيره بذلك، وأنصح من غيره للأمة، وأفصح من غيره عبارة وبياناً، فقد اجتمع في حقه كمال العلم والقدرة والإرادة، ومع وجود القدرة التامة والإرادة الجازمة، يجب وجود المراد، فعلم قطعاً أن ما بينه من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر، حصل به مراده من البيان، وما أراده من البيان فهو مطابق لعلمه، وعلمه بذلك أكمل العلوم، فكل من ظن أن غير الرسول أعلم بهذا منه، أو أكمل بياناً منه، أو أحرص على هدى الخلق منه، فهو من الملحدين لا من المؤمنين، قد يقال: إن فيما جاء به الرسول ما يكون ظاهره مستحيلاً عند العقل فكيف يمكن الإيمان به دون التصرف فيه بالتأويل ولكن ابن تيمية يقول: (إن الفساد لم يأت من قبل النصوص، فهي حق في معناها، ولا

تحتاج إلى تأويل، وإنما جاء من حملها على معاني فاسدة، ليست هي معانيها المرادة بها، وإنما أريد بها إثبات كمالات لله تناسب ذاته، ولم يرد بها أن يحدث لله مثل ما يحدث للمخلوقين، فالعقل الصريح لا يكون أبداً إلا موافقاً للنقل الصحيح، وكل ما يتوهم من تعارض بينهما فلا سبب له إلا أحد أمرين: إما فساد في العقل بهون أن تقليد، وإما فساد في النقل بكذب أو تحريف).

يقول ابن تيمية في "رسالة الفرقان": (فصل في جماع الفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشاد والغي، وطريق السعادة والنجاة، وطريق الشقاوة والهلاك، أن يجعل ما بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، هو الحق الذي يجب اتباعه، و به يحصل الفرقان، والعلم والهدى والإيمان، فيصدق بأنه حق وصدق، وما سواه من كلام الناس يعرض عليه، فإن وافقه فهو حق، وإن خالفه فهو باطل، وإن لم يعلم هل وافقه أو خالفه لكون ذلك الكلام مجملاً لا يعرف مراد صاحبه أو قد عرف مراده ولكن لم يعرف هل جاء الرسول بتصديقه أو تكذيبه، فإنه يمسك فلا يتكلم إلا بعلم، والعلم ما قام عليه الدليل، والنافع منه ما جاء به الرسول، وقد يكون علم من غير الرسول، لكن في أمور دنيوية مثل الطب والكتاب والفلاحة والتجارة وأما الأمور الإلهية والمعارف الدينية فهذه العلم فيها مأخوذ عن الرسول فالرسول أعلم الخلق بها، وأرغبهم في تعريف الخلق بها، وأقدرهم على بيانها وتعريفها، فهو فوق كل أحد في العلم والقدرة والإرادة، وهذه الثلاثة بها يتم المقصود، ومن سوى

الرسول إما أن يكون في علمه بها نقص أو فساد، وإما ألا يكون له إرادة فيما علمه من ذلك فلم يبينه إما لرغبة وإما لرهبة، وإما لغرض آخر، وإما أن يكون بيانه ناقصاً ليس بيانه البيان عما عرفه الزمان)، ويقول في نفس المصدر: (والمقصود هنا أن يؤخذ من الرسول العلوم الإلهية الدينية سمعيها وعقليها، ويجعل ما جاء به هو الأصول لدلال الأدلة اليقينية البرهانية على أن ما قاله حق جملة وتفصيلاً، فدلائل النبوة وأعلامها تدل على ذلك جملة، وتفاصيل الأدلة العقلية الموجودة في القرآن يدل على ذلك تفصيلاً، وأيضاً فإن الرسل إنما بعثوا بتعريف هذا، فهم أعلم الناس به، وأحقهم بقيامه، وأولاهم بالحق فيه) وأيضاً فمن جرب ما يقولونه ويقوله غيرهم وجد الصواب معهم والخطأ مع مخالفيهم من هذه النصوص وغيرها، وهي كثيرة في كتب ابن تيمية، نستطيع أن نجزم بأن منهجه هو الأخذ بطريق الكتاب والسنة، وعدم التعويل إلى على نصوصهما في جميع الأقسام الشرعية، اعتقادية كانت أو عملية، وأن تحمل هذه النصوص على ظواهرها من غير تأويل يصرفها عن مواضعها ويصرفها عما هو المتبادر منها، ويستشهد ابن تيمية دائماً بذلك المنهج بقولة كثير من السلف رضي الله عنهم: (أمروها كما جاءت بلا كيف) يريدون بذلك أن تبقى هذه النصوص على ما هي عليه من الدلالة على معانيها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها، وأما ما يدعيه المتأولون لها من استحالة ظواهرها عند العقل لإيهامها التشبيه فيرده ابن تيمية، بأن الظاهر من هذه النصوص ليس هو ما يناسب المخلوق حتى يوهم

التشبيه، لأنها معانٍ مضافة إلى الله جل شأنه، فلا يكون ظاهرها إلا بما يليق به هو مما لا يماثل صفة المخلوق.

يقول في "الرسالة التدمرية": (إذا قال القائل: ظاهر النصوص مراد أو ظاهرها ليس بمراد، فإنه يقال له: لفظ الظاهر فيه إجمال وافتراق، فإن كان القائل يعتقد أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين أو ما هو من خصائصهم فلا ريب أن هذا غير مراد، ولكن السلف والأئمة لم يكونوا يسمون هذا ظاهرها، ولا يرجون أن يكون ظاهر القرآن والحديث كفراً وباطلاً، والله أعلم وأحكم من أن يكون كلامه الذي وصف به نفسه لا يظهر منه إلا ما هو كفر أو ضلال، وإن كان القائل يعتقد أن ظاهر النصوص المتنازع في معناها، من جنس ظاهر النصوص المتفق على معناها والظاهر هو المراد في الجميع لم يكن له نفي هذا الظاهر، ونفي أن يكون مراداً إلا بدليل يدل على النفي، وليس في العقل ولا في السمع ما ينفي هذا، إلا من جنس ما ينفى به سائر الصفات، فيكون الكلام في الجميع واحداً، فمثلاً إذا كانت النصوص المثبتة لصفات الحياة، والعلم، والقدرة، وغيرها على ظاهرها، وكان هذا الظاهر مراداً، ولم يقل أحد: إن هذا الظاهر مثل حياة المخلوق، وعلمه، وقدرته فكذلك ينبغي أن يقال في النصوص المثبتة للوجه واليدين والاستواء والنزول والرضا والغضب وغيرها أنها على ظاهرها، وأن هذا الظاهر المراد، دون أن يجعل هذا الظاهر مثل وجه المخلوق، أو يده، أو نزوله، أو استوائه، أو رضاه، أو غضبه، وإلا كان ذلك

تفريقاً بين المتماثلين، وهو تحكم لا معنى له ، وأما ما يدعيه المتأولون لهذه الظواهر من جواز حملها على المجاز ما دام قد استحالت معانيها الحقيقية، وما دامت اللغة العربية قد جاءت بالحقيقة والمجاز، فيجيب عنه ابن تيمية بأنا لا نسلم حكم العقل باستحالة هذه الظواهر، فإن ذلك مبني على أنها مستلزمة للتشبيه والتمثيل، وقد بينا عدم ذلك اللزوم، فإن الاشتراك بين صفات الله جل وعلا، وبين صفات المخلوق، إنما هو اشتراك في الاسم فقط، لا يوجب أن تكون صفته كصفة المخلوق، ويجيب ثانياً: بأن اللفظ المستعمل في معنىً لا يجوز تركه إلى معنى آخر على جهة المجاز إلا إذا اجتمع له أربعة أشياء:

الأول: أن يكون ذلك المعنى المجازي، مما يصح أن يراد من اللفظ، بأن يكون اللفظ مستعملاً في لسان العرب، وإلا أمكن لكل مبطل أن يفسر أي لفظ بأي معنى، وإن لم يكن له أصل في اللغة.

الثاني: أن يكون معه دليل من العقل أو السمع يوجب صرفه عن حقيقته إلى مجازه، لأن اللفظ إذا دل على معنى بطريق الحقيقة كان هذا المعنى هو المتبادر عند إطلاق اللفظ، فلا يجوز صرفه عنه إلى المجاز بغير دليل يوجب ذلك الصرف، وإلا أمكن لكل أحد أن يدعي المجاز في كل نص يخالف مذهبه، كما هو الحال عند المتكلمين.

الثالث: أن يسلم ذلك الدليل الصارف عن المعارض، وإلا فإذا قام دليل قرآني أو إيماني يبين أن الحقيقة مرادة امتنع تركها، فإن كان هذا المعارض نصاً لم

يلتفت إلى نقيضه، كالنصوص المثبتة لصفة العلو، فإنها صريحة في معناها لا تحتمل التأويل، وإن كان النص ظاهراً، كان راجحاً في المعنى الحقيقي.

رابعاً: أن الرسول ﷺ وهو أفصح الخلق، وأقدرهم على البيان والأداء، وأحرصهم على إفادة الحق، إذا تكلم بكلام وأراد به خلاف ظاهره، فلا بد أن يبين للأمة أنه لم يرد حقيقته، وإنما أراد مجازه، سواء عين ذلك المجاز أو لم يعينه، لا سيما في الخطابات العلمية التي يراد بها الاعتقاد، فإن تركها بلا بيان مبدٍ إلى اعتقاد الباطل وهو كفر.

وأخيراً قد يتشدق الفريقان من المؤولة والمفوضة، بقوله تعالى في سورة آل عمران: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الأَلْبَابِ﴾«آل عمران:٧» أما المفوضة فيقولون: إن هذه المتشابهات لا يعلم أحد معناها، ولهذا يوجبون الوقف على لفظ الجلالة، ويقولون: نقرأها فقط ولا نبتهل بتفسيرها، ونقول: الله أعلم بمراده بها، وأما المؤولة فيقولون: يجب على العلماء تأويلها، وعندهم أن الراسخون في العلم معطوف على لفظ الجلالة وليس ابتداء كلام، ويفسرون ذلك التأويل بأنه صرف اللفظ عن معناه الظاهر الراجح إلى معنى آخر مرجوح لقرينة)، ولكن ابن تيمية ينبري للرد على كلا

الفريقين من المؤولة والمفوضة، في رسالته المسماة "بالإكليل في المتشابه والتأويل" فهو يرد على المفوضة قولهم: إن التشابه في معنى اللفظ، بحيث لا يعلم المراد به إلا الله تعالى، ويقول: (إن معنى هذا أن الله أنزل على نبيه كلاماً لم يكن يفهم معناه: لا هو، ولا جبريل، ولا غيرها، وهذا قدح في النبي ﷺ وفي القرآن، إذا كان الله أنزل القرآن وأخبر أنه جعله بياناً وهدى، ونوراً وشفاءً، وأمرنا أن نتدبره ونعقله كله، لم يستثني منه شيئاً، لا يتدبر، ولا يعقل، وكذلك أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وأمره أن يبين للناس ما نزل إليهم، وأن يبلغهم البلاغ المبين، فلو كان في القرآن شيء لا يفقه معناه، لم يكن هناك معنى للأمر بتدبره وعقله، ولمن يكن الرسول حينئذ بين، ولا بلغ البلاغ المبين، وحينئذ يمكن لكل ملحد ومبتدع، أن يقول: الحق في نفس الأمر ما علمته برأيي وعقلي، وليس في النصوص ما يناقض ذلك لأنها مشكلة متشابهة لا يعلم أحد معناها، وما لا يعلم معناه لا يستدل به، وفي هذا سد لباب الهدى والبيان من جهة الأنبياء، وأيضاً فإن الكلام إنما يقصد به إفهام المخاطب، فإذا لم يقصد به ذلك كان عبثاً وباطلاً، والله تعالى قد نزه نفسه عن فعل العبث والباطل، فكيف يقول الباطل ، ويتكلم بكلام نزله على خلقه، ولا يريد منهم أن يفهموه، بل الحق أن يقال: إن معاني القرآن كلها مفهومة، وأن الرسول ﷺ لم يمت حتى كان أصحابه على علم تام بجميع معاني الآيات القرآنية في جملتهم، وإن التشابه الواقع في بعض الآيات، ليس معناه أن معرفة المعنى المقصود من هذه الآيات

مستحيل، بل التشابه أمر نسبي إضافي، قد يشتبه على إنسان ما لا يشتبه على غيره، وليس ذلك بالنسبة لآيات مخصوصة، بل قد يشكل على هذا ما يعرفه ذاك وبالعكس، وذلك الاشتباه قد يكون لغرابة في اللفظ، وتارة لالتباس المعنى بغيره وذلك لا نعلم كيفيات وحقائق ما جاءت به النصوص من شئون المعاد وأحوال القيامة، وطعوم أهل الجنة، وعذاب أهل النار، ولكنا نعرف المعنى المدلول عليه بهذه النصوص، ففرق بين المعنى المعلوم، وبين الكيف المجهول).

ثم يرد كذلك على المؤولة، لأنه لم يرد في لفظ التأويل في القرآن، ولا في كلام أحد من السلف، بهذا المعنى الذي اصطلحوا عليه، وهو صرف اللفظ عن معناه حقيقي إلى معنى آخر مجازي يكون اللفظ محتملاً له، ولكن لفظ التأويل حيث جاء في القرآن، ليس له إلا معنى واحد، وهو ما يؤول إليه الشيء أي حقيقته التي يرجع إليها، لأنه مأخوذ من الأول وهو الرجوع، كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾«النساء:٥٩» أي مآلاً وعاقبة، وحينئذ فاللفظ إن كان خبراً، كان معنى تأويله هو نفي الحقيقة المخبر عنها، كما في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ﴾«الأعراف:٥٣» أي ما ينتظر هؤلاء إلا وقوع ما توعدوا به من العذاب، فإن ذلك هو ما تؤول إليه أخبار الوعيد، بحيث يكون الواقع بهم مطابقاً للخبر عنه، وإن كان اللفظ أمراً أو نهياً، فتأويله هو نفي فعل المأمور به، وترك المنهي عنه، كما قالت عائشة رضي الله عنها: (كان

رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوع وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» يتأول القرآن)[1] تعني بذلك، أنه كان يمتثل ما أمر به، في قوله تعلى من سورة النصر: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾أما قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾فإن فسر المتشابه بما احتمل أكثر من معنى، كان معنى تأويله حمله على المعنى الحق، الذي يكون موافقاً للمحكم، ويكون التأويل هنا بمعنى التفسير وبيان المراد، والقرآن كله بهذا المعنى، محكمه، ومتشابهه، يمكن تأويله، ليس فيه شيء لا يمكن فهمه ولا معرفة المراد منه، وإن فسر المتشابه بما لا يعلمه إلا الله، كان المراد بالتأويل حقيقة المعنى وكيفيته التي يؤول إليها كما سبق. هذا هو ملخص ما ذكره ابن تيمية، في الاحتجاج لما ذهب إليه من وجوب الأخذ بظواهر النصوص، واعتقاد أن هذه الظواهر مرادة، مع التفويض لله فيما وراء ذلك، من حقائق هذه الظواهر و كيفياتها، وقد وضع بناءً على هذا المنهج الذي ارتضاه، عدة قواعد يجب مراعاتها في باب الصفات ونحن نجملها فيما يلي:

القاعدة الأولى: أن أسماء الله ﷻ وصفاته كلها توقيفية، لا يجوز إطلاق شيء منها على الله في الإثبات، أو في النفي، إلا بإذن من الشرع، وما لم يصرح الشرع بلفظه ولا بإثباته يجب التوقف فيه حتى يعلم ما يراد به، وإن أريد به معنى صحيح موافق لما جاء به النص قبل، وإلا وجب رده، يقول في منهاج

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها، البخاري (٨١٧)، مسلم (٤٨٤).

السنة: (فالواجب أن ينظر في هذا الباب، فما أثبته الله ورسوله أثبتناه، وما نفاه الله ورسوله نفيناه، والألفاظ التي ورد بها النص يعتصم بها في الإثبات والنفي، فنثبت ما أثبتته النصوص من الألفاظ والمعاني، وننفي ما نفته النصوص من الألفاظ والمعاني، وأما الألفاظ التي تنازع فيها من ابتدعها من المتأخرين، مثل: لفظ الجوهر، والمتحيز، والجهة، ونحو ذلك، فلا تطلق نفياً، ولا إثباتاً، حتى ينظر في مقصود قائلها، فإن كان قد أراد بالإثبات أو النفي معنى صحيحاً موافقاً لما أخبر به الرسول صوب المعنى الذي قصده بلفظه، ولكن ينبغي أن يعبر عنه بألفاظ النصوص، لا يعدل إلى هذه الألفاظ المبتدعة المجملة، إلا عند الحاجة مع قرائن تبين المراد منها).

القاعدة الثانية: أن الله ﷻ في كل ما ثبت له من الأسماء والصفات، لا يماثل شيئاً من خلقه، ولا يماثله شيء، بل كل ما ثبت من صفات الكمال فهو مختص به لا يشركه فيه أحد، وإذا كان هناك من الأسماء ما يطلق على صفات الله وما يطلق على صفات خلقه، فليس هذا إلا محض افتراء في الاسم، لا يقتضي مماثلة صفاته لصفاتهم أصلاً ،فتسميته تعالى قادراً، وتسمية العبد قادراً، لا توجب مماثلة قدرة الله بقدرة العبد، وكذا تسميته عالماً، ومريداً، وحياً، وسميعاً، وبصيراً، لا يستلزم أن علمهم كعلمه، ولا إرادتهم كإرادته، وهكذا يقال في جميع ما وصف الله به نفسه، مما قد يكون صفة للمخلوق، ولعل في تقرير ابن تيمية بهذه القاعدة على هذا النحو من القوة أبلغ رد على من يتهمونه

بالتجسيم والتشبيه، ويفترون عليه في ذلك الكذب، وينسبون إليه ما لا يوجد في شيء في كتبه، كما أدعى عليه "ابن بطوطة الرحالة الأندلسي" أنه سمعه يخطب على المنبر بدمشق يوم الجمعة فقال: إن الله ينزل كنزولي هذا، ونزل درجة من درجات المنبر، مع أنه قد ثبت تاريخياً، أن ابن تيمية كان محبوساً بقلعة دمشق وقت زيارة ابن بطوطة لها.

القاعدة الثالثة: أنه سبحانه وتعالى موصوف بصفات الكمال التي لا غاية فوقها، بريء من صفات النقص والاحتياج، فما من كمال الله لا نقص فيه، إلا وهو ثابت للرب جل شأنه، يستحقه بنفسه المقدسة، ويتنزه عن الاتصاف بضده، وكل كمال ثبت للمخلوق وأمكن أن يتصف به الخالق فالخالق أولى به، وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق أولى بالتنزه عنه، ولا يكون الكمال إلا أمراً وجودياً، أما الأمور السلبية أو العدمية، فلا تكون كمالاً إلا إذا تضمنت أمراً موجوداً، والعدم المحض ليس بشيء، فضلاً عن أن يكون كمالاً، ولهذا كان النفي في الكتاب والسنة إنما يأتي مجملاً في أغلب أحواله، بخلاف الإثبات فإن التفصيل فيه أكثر، لأنه مخصوص لذاته، ولهذا أيضاً لم يرد في الكتاب ولا في السنة صفة سلب إلا وهي متضمنة إثبات ما يضادها من الكمال، وبناءً على هذه القاعدة كان ابن تيمية يرى أنه: (يقتصر من صفات السلب على ما ورد به الكتاب والسنة، ولا يتوسع فيها بحجة المبالغة في التنزيه، كما توسع فيها الفلاسفة والمعتزلة و الجهمية) فكان يرى أن ما تذهب إليه هذه الفرق في هذا

الباب من هذه السلوب، من أنه تعالى ليس كذا، ولا كذا، ولا كذا، يجعلها يبدي إلى نفي الواجب نفسه، وجعله أمراً فرضياً صرفاً لا وجود له إلا في الأذهان، فإنه لا يعقل وجود ذات في الخارج تبلغ هذا الحد من التجرد والتعطيل، ولا تكون هذه الصفات السلبية العدمية إلا وصفاً للمعدوم.

القاعدة الرابعة: أن صفات الله تعالى منها ما هو صفة ذات فقط، فهي لازمة للذات أزلاً وأبداً، لا يتعلق شيء منها بمشيئته وقدرته، كصفات الحياة، والعلم، والقدرة، والقوة، والعزة، والملك، والعظمة، والمجد، والكبرياء، ومنها ما هو صفة فعل تتعلق أفعاله كل وقت وتحدث في ذاته تعالى بمشيئته وقدرته، آحاد تلك الصفات من الأفعال، وإن كان هو لم يزل موصوفاً بها، بمعنى أن نوعها قديم وأفرادها حادثة، فهو سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال فعالاً لما يريد، يقول، ويتكلم، ويخلق، ويدبر الأمور، وأفعاله من ذلك تقع شيئاً، بعد شيء تبعاً للحكمة المقتضية لها، إلا أن صفات الفعل منها ما هو متعلق بذاته سبحانه غير متعدٍ إلى الخلق، كالاستواء على العرش، والمجيء يوم القيامة، والنزول إلى سماء الدنيا، ومنها منا هو متعلق بخلقه، كصفات الخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة وأنواع التدبير المختلفة، ولا يرى ابن تيمية في قيام الحوادث بذاته تعالى شيئاً من النقص، لأنها حوادث يحدثها هو في ذاته بمشيئة وقدرته، فلا يكون الخلو عنها في الأزل نقصاً لأنها لا تكون كمالاً إلا حين تقتضيها الحكمة، أما قبل اقتضاء الحكمة لها فليست كمالاً، ولا يرى أيضاً أن

حدوثها في ذاته مستلزم لحدوثه كما يقول المانعون لها لأنها حوادث قديمة الجنس لا ابتداء لها في ذاته، وإن كانت آحادها حادثة، ويرى أن القول بقيام الحوادث بالذات ضرورة لا مناط منها لتفسير كثير من النصوص المصرحة بذلك في باب العلم، والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر، والرضا، والمحبة، والكراهية، والمقت، والسخط، والرحمة، والحكمة، وغير ذلك من الصفات، التي لا يمكن تأويل كل ما جاء فيها من النصوص،

ففي باب العلم مثلاً يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾«البقرة:١٤٣» ،ويقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾«آل عمران:١٤٢» ،ويقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾«محمد:٣١» .

وفي باب الإرادة يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾«هود:١٠٧» فيعبر بالفعل المضارع الذي يدل على الحال أو الاستقبال، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾«النحل:٤٠» ، وإذا لا يكون مدخولها إلا مستقبلاً، وفي باب الكلام لا يمكن حصر النصوص الواردة فيه والتي تدل على أن الله تعالى تكلم وأنه سيتكلم وأنه قال ويقول، وأنه نادى، وينادي، و ينادي، فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى

أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾«الشعراء:١٠» ، ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾«الأعراف:١٤٣» ، ﴿وناداهما ربهما أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾«الأعراف:٢٢» ، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾«القصص:٦٥» ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾«المائدة:١١٦» ، إلى غير ذلك من النصوص.

وفي باب السمع، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾«آل عمران:١٨١» ، ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾«المجادلة:١» .

وفي باب البصر، ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾«التوبة:١٠٥» إلى غير ذلك.

ويرد ابن تيمية على الكلابي "عبد الله بن سعيد الكلابي" ومن تبعه في نفس قولهم بنفي الصفات الاختيارية، ومنعهم قيام الحوادث بذاته تعالى، ويقول: إنهم تأثروا في ذلك بتلك المقدمة القائلة: إنها لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، ويتكلم في هذه المقدمة كلاماً كثيراً ليس مجاله الآن.

فقه ابن تيمية:

قلنا فيما سبق: إن ابن تيمية كان من أسرة اشتهرت بالإمامة في مذهب أحمد بن حنبل ﷺ، وأنه هو نفسه قد انتهت إليه رياسة هذا المذهب، ولكن إخلاص ابن تيمية لمذهبه، وشدة احترامه للإمامة، وكثرة استشهاده بكلامه، لم يمنعه من الأخذ بما يقتضيه الدليل، وإن خالف أقوال المذهب، بل ولو خالف ما أجمع عليه الأئمة الأربعة، وقد أفتى في عدة مسائل بما أداه إليه اجتهاده دون التزام بمذهب معين، مما جعل الفقهاء من أتباع المذاهب يهيجون عليه، لا سيما في مسألة الطلاق المشهورة، فقد أفتى بوجوب الكفارة في الحلف بالطلاق وأن الطلاق الثلاثة بلفظة واحدة لا يقع إلا واحدة، ومن الغريب وأن الطلاق البدعي لا يقع، وقد ذكر ابن عبد الهادي في "العقود الدرية" بعضاً من اختيارات ابن تيمية التي خالف فيها الأربعة، ومنها القول: بقصر الصلاة في كل ما يسمى سفراً، طويلاً كان أو قصيراً، دون اشتراط مسافة معينة، والقول: بأن البكر لا تستبرأ وإن كانت كبيرة، كما هو قول ابن عمر واختاره البخاري، والقول: بأن سجود التلاوة لا يشترط له وضوء كما يشترط للصلاة، والقول: بأن من أكل في شهر رمضان معتقداً أنه ليل وبان نهاراً لا قضاء عليه، والقول: بأن المتمتع يكفيه سعي واحد بين الصفا والمروة، كما هو في حق القارن والمنفرد، والقول: بجواز المسابقة بلا محلل وإن خرج المتسابقان، والقول: باستبراء المختلعة بحيضة، وكذلك الموطوءة بشبهة، والمطلقة آخر ثلاث تطليقات، والقول: بإباحة وطء الوثنيات بملك اليمين، والقول: بجواز عقد الرداء في

الإحرام بلا فدية، وجواز طواف الحائض ولا شيء عليها إذا لم تستطع أن تطوف طاهراً، والقول: بجواز بيع الأصل بالعصير كالزيتون بالزيت والسمسم بالسيرج، والقول: بجواز الوضوء بكل ما يسمى ماءً، مطلقاً كان أو مقيداً، والقول: بجواز بيع ما يتخذ من الفضة للتحلي وغيره كالخاتم ونحوه بالفضة متفاضلاً وجعل الزائد من الثمن في مقابلة الصنعة، والقول: بأن المائع لا ينجس بوقوع النجاسة فيه إلا أن يتغير قليلاً كان الماء أو كثيراً، والقول: بجواز التيمم لمن خاف فوات العيد والجمعة باستعمال الماء، عدا ما له من اختيارات من المذهب الحنبلي خالف بها المشهور فيه، قد أخذ كثير من متأخري الحنابلة باختيارات شيخ الإسلام وألفوا فيها وتحمسوا لها، لاسيما تلميذه ابن القيم الجوزية الذي كان لسان صدق في الدفاع عن أقوال شيخه والاستدلال عليها، وفي الجملة فقد كان ابن تيمية مجتهداً مطلقاً، توفرت فيه كل طرق الاجتهاد، فكان منهجه في الفروع كما هو في الأصول، اعتداد بالنصوص إلى أبعد حد، مع اعتبار الإجماع والقياس أيضاً إذا استند كل منهما إلى نص، يقول ابن تيمية في "معارج الأصول": (وأما العمليات وما تسميه أناس الفروع، والشرع والفقه، فهذا قد بينه الرسول أحسن بيان، فما شيء مما أمر الله به، أو نهى عنه، أو حلله، أو حرمه إلا بين ذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾«المائدة:٣» ، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ﴾ «يوسف:١١١» ، وأما إجماع الأمة فهو في نفسه حق، لا تجتمع الأمة على ضلالة، وكذا القياس الصحيح حق، فإن الله بعث رسله بالعدل، وأنزل الميزان مع الكتاب، والميزان يتضمن العدل، وما يعرف به العدل، وقد فسروا: أنزل ذلك بأن ألهم العباد معرفة ذلك، والله ورسوله يسوي بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين وهذا هو القياس الصحيح، فقد ضرب الله في القرآن من كل مثل، وبين بالقياس الصحيح وهي الأمثال المضروبة ما بينه من الحق، لكن القياس الصحيح يطابق النص)، فكذلك كان يعتد ابن تيمية بالعرف، واستصحاب البراءة الأصلية، والمصالح المرسلة، وسد الذرائع، ويعتني بفتاوى الصحابة والتابعين، ويحتج بها، ويعتني بإبطال الحيل التي يراد بها تحليل محرم أو إسقاط حق، وقد ألف في ذلك كتابه "بيان الدليل في إبطال التحليل"، وترك في الفقه من الكتب الكبار والرسائل الصغار ما يعتبر ذخيرة ومرجعاً لكل مصلح ومشرع، من أهمها كتابه "الفتاوى" وهي مجموعة اختيارات شيخ الإسلام، ألفها أحد تلاميذه، "والسياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية"، وكتاب "الحسبة في الإسلام"، "والمظالم المشتركة"، "والدليل على إبطال التحليل"، "ورفع الملام عن الأئمة الأعلام"، ولا نستطيع حصر ما كتبه شيخ الإسلام فيه هذا الباب، ويكفي أن نقول: إنه أفتى في كل مسألة من مسائل الفقه، ورجح فيها ما رأى أن الدليل يوافقه، وكان ابن تيمية صاحب ملكة فقهية قوية تمتاز بالتحرر من شوائب التقليد والتبعية، وكان لفتاويه وقع شديد

في العالم الإسلامي كله، وفتواه في الطلاق التي حبس من أجلها، أصبحت الآن فتوى يعمل بها فقد صارت مادة معمولاً بها في الأحوال الشخصية، وقد أفتى بحرمة شد الرحال، وإعمال المطي إلى قبور الأنبياء والصالحين، مستدلاً على ذلك بالحديث الصحيح: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد»[1] ولقد أحدثت هذه الفتوى دوياً هائلاً، وقد حبس بسببها شيخ الإسلام في آخر عمره، هو وجماعة من أصحابه بقلعة دمشق، وظل محبوساً بها ومنع من الكتابة، والقراءة، في محبسه إلا أن وافاه أجله رحمه الله سنة ثمان وعشرين وسبعمائة من الهجرة.

ابن تيمية المفسر:

إنما عثر عليه من تفسير لابن تيمية يشهد له بأنه بلغ في هذا الفن شأواً لا يلحق، وإن كان لم يشتغل بوضع تفسير كامل للقرآن، ولكنني أعتقد أن ما فسره بالفعل يزيد كثيراً على ما عثر عليه حتى الآن، وقد ذكر ابن عبد الهادي في "العقود الدرية" أنه جمع من أقوال مفسري السلف الذين يذكرون الأسانيد في كتبهم أكثر من ثلاثين مجلداً، وقد بيضه بعض أصحابه ولكن كثيراً منه لم يكتب بعد موته، وحكى عن أبي عبد الله بن رفيق -وكان من أخص أصحاب ابن تيمية وأكثرهم كتابة لكلامه- أنه كتب إلى الشيخ وهو في محبسه بالقلعة أن

---

[1] أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد برقم (١٨٦٤)، ومسلم من حديث أبي هريرة برقم (١٣٩٧).

يكتب على جميع القرآن تفسيراً مرتباً على الصور، ولكن الشيخ كتب إليه بأن القرآن فيه ما هو بين بنفسه وفيه ما قد بينه المفسرون في غير كتاب، ولكن بعض الآيات أشكل تفسيرها على جماعة من العلماء، فربما يطالع الإنسان عليها عدة كتب ولا يتبين له تفسيرها فقصدت إلى تفسير تلك الآيات بالدليل لأنه أهم من غيره، وإذا تبين معنى آية تبين معنى نظائرها، وقال له: قد فتح الله عليَّ في هذه المرة من معاني القرآن، ومن أصول العلم بأشياء، كان كثير من العلماء يتمنونها، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن، وقد طبع من تفسيره حتى الآن فيما أعلم مجلدان:

أحدهما: في تفسير سورة الصمد.

والآخر: في تفسير سورة النور.

وله كتاب صغير سماه "أصول التفسير" بين فيه المنهج الذي يجب أن يسلكه المفسر في تفسيره، من محاولة تفسير القرآن بالقرآن أولاً، فإنه نزل يصدق بعضه بعضاً، فما أجمل في آية قد فصل في آية أخرى، وما أبهم في آية قد بين في آية أخرى، فإن لم يجد فبالسنة الصحيحة، فإنها مبينة للقرآن وشارحة له ومعبرة عنه، فإن لم يجد فبقول الصحابة، لا سيما من اشتغل منهم بالتفسير، كابن عباس، وابن مسعود، وغيرهما وذلك مع العناية بأسباب النزول، فإنها تعين في فهم الوقائع التي نزلت فيها الآيات وتوضح الغرض التي سيقت من أجله، وبالجملة فإن ناحية التفسير كان من أظهر نواحي ابن تيمية وأبرزها في

حياته العلمية، كما ذكر المترجمون له، رغم قلة ما وصل إلينا من إنتاجه في هذا الباب.

ابن تيمية والتصوف:

يمكن تلخيص موقف ابن تيمية من التصوف، في إنكاره الشديد لكل ما خرج من عقائد المتصوفة أو أعمالهم عن دائرة الكتاب والسنة، فقد حارب أصحاب التصوف النظري، من القائلين بمذاهب وحدة الوجود، كابن عربي، وابن سبعين، وابن الفارض، والكونوي، والتلمساني، وغيرهم، وقد ألف في الرد عليهم رسالته "السبعينية" التي ألفها وهو محبوس بالأسكندرية حتى إنها تسمى الرسالة الاسكندرانية رد فيها على ابن سبعين وأفراده، كما ألف رسالة أخرى في الرد على فصوص الحكم لابن عربي سماها "الرد الأقوم على ما في كتاب فصوص الحكم" وهو يعتبر أصحاب هذه المذاهب كفاراً بل أكثر من اليهود والنصارى، أما القائلون بالوحدة فلا يثبتون إلا وجوداً واحداً، ويقولون: إن وجود [الكون هو عين وجود الله][1] ليس عندهم موجودان خلق أحدهما الآخر، وبناءً على أصلهم الفاسد، يكون عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله، وكذلك من عبد العجل من بني إسرائيل إنما عبدوا الله في زعمهم، فيقولون: إن موسى لام هارون على إنكاره على بني إسرائيل في عبادة العجل، وعندهم أن فرعون كان صادقاً حين قال لقومه: أنا ربكم الأعلى، فإنه صورة من صور

---

(١) الصوت غير واضح وهذه زيادة يقتضيها السياق.

الحقيقة المطلقة، فكل شيء في هذا الوجود عندهم هو رب، وهو عبد، وهو مالك، ومملوك، وخالق ومخلوق، وكل ما يوصف به العبد من صفات الذم والنقص يوصف به الخالق أيضاً إلى غير ذلك من حماقاتهم، وأما أصحاب مذهب الحلول، مثل الحلاج وأشياعه، فهم لا يقولون بوجود واحد، ولكن عندهم أن العبد إذا وصل إلى درجة من الصفاء صار أهلاً لأن يحل الله فيه، فيصير جسده أو ناسوته محلاً للاهوت أي لله، ويصير بذلك شخصاً إلهياً، فقد أفاض ابن تيمية في الرد على هؤلاء وأولئك بحماسة المؤمن، الذي يفيض قلبه غيرة على دينه، ويرى في مذاهب هؤلاء أعظم الخطر على هذا الدين، الذي يعتبر الإيمان بوجود الإله الخالق للعالم منفصل عنه أعظم أصوله، كما ينكر عليهم ما يدعونه من شهود الحقيقة ، وجعلهم ذلك ذريعة إلى إبطال التكاليف الشرعية، والتخلص منها، يقول ابن تيمية في "رسالة العبودية": (وهؤلاء الذين يشهدون الحقيقة الكونية وهي ربوبيته تعالى لكل شيء، ويجعلون ذلك مانعاً من اتباع أمره الدين الشرعي على مراتب في الضلالة فغلاتهم يجعلون ذلك مطلقاً عاماً فيحتجون بالقدر في كل ما يخالفون فيه الشريعة، وقول هؤلاء شر من قول اليهود والنصارى، ومنهم صنف يدعون التحقيق والمعرفة، فيزعمون أن الأمر والنهي لازم لمن شهد لنفسه ، أو أثبت له صنعاً، وأما من شهد أن أفعاله مخلوقة، أو أنه مجبور على ذلك، أو أن الله هو المتصرف فيه، كما يحرك سائر المتحركات، فإنه يرتفع عنه الأمر والنهي، والوعيد والوعيد،

ويقولون إن من شهد الإرادة سقط عنه التكليف، وقول هؤلاء كفر صريح وإن وقع فيه طوائف لم يعلموا أنه كفر، فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن الأمر لازم لكل عبد ما دام عقله حاضراً إلى أن يموت، لا يسقط عنه الأمر والنهي، لا بشهود القدر، ولا بغير ذلك، وهذه المقالات محادة لله ولرسوله، ومعاداة له، وصد عن سبيله، وتكذيب لرسله، ومضادة له في حكمه)، فأما أصحاب التصوف العملي المتعلق بالسلوك، فإن ابن تيمية لا ينكر من أحوالهم ما جاء به الكتاب والسنة، من الميل إلى الزهد والتزام بالورع، ومحاسبة النفس ومراقبتها عند كل قول وعمل، وأخذها بالمجاهدة المشروعة، وكان هو أحد هؤلاء الزهاد، ولكنه ينكر عليهم هذه الشارات والاصطلاحات الخاصة، من التزام زي معين، أو نظام خاص في مطعم، أو تحريم شيء مما أحل الله، بدعوى الزهد، إلى غير ذلك مما هو معروف من أحوال أصحب الطرق ونظامهم، ويحكي لنا ابن عبد الهادي (أنه في سنة خمس وسبعمائة، اجتمع جماعة من الأحمدية الرفاعية عند نائب السلطنة بالقصر، وحضر الشيخ تقي الدين، وطلبوا أن يسلم إليهم حالهم، وأن الشيخ تقي الدين لا يعارضهم، ولا ينكر عليهم، وأرادوا أن يظهروا شيئاً مما يفعلونه من أكل النار ونحوه، فانتدب لهم الشيخ وتكلم باتباع الشريعة، وأنه لا يسع أحداً الخروج عنها بقول ولا بفعل، وذكر أن لهم حيلاً يتحيلون بها في دخول النار وإخراج الزبد من القلوب، وقال لهم: (من أراد دخول النار فليغسل جسده في الحمام، ثم يدلكه بالخل، ثم يدخل

ولو دخل لا يلتفت إلى ذلك، بل هو نوع من فعل الدجال عندنا) وانفصل المجلس على أنهم يخلعون أصوات الخبيث، وعلى أن من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه، وفي الجملة فقد كان التصوف بنوعيه مما عما به ابن تيمية نفسه طول حياته، بكثرة ما في من بدع وضلالات مخالفة للشريعة، مع افتتان الناس به واعتقادهم أنه هو الطريق الموصل إلى الله، فكان على ابن تيمية أن يكشف عما في التصوف من دعاوى و تلبيسات، ويبين براءة الإسلام منها، كما فعل ذلك من قبل أبو الفرج الجوزي، في كتابه "نقد العلماء أو تلبيس إبليس"، فقد قام ابن تيمية بما يجب على مثله من النصح والبيان، فما ترك شيئاً مما يدعيه القوم إلا بينه وفصل القول فيه، وقد ترك في هذا الباب آثاراً ضخمة ورسائل عدة، نذكر منها على سبيل المثال "رسالة العبودية"، "ورسالة زيارة القبور البدعية منها والشرعية"، "ورسالة شد الرحال"، "ورسالة في الخلوات وما يلقيه الشيطان على أهلها من الشبه"، "ورسالة في الشيوخ الأحمدية وما يظهرونه من الإشارات"، "وله قواعد في تحريم السماع" في مجلدين، "ورسالة في تلازم الحقيقة والشريعة"، "ورسالة في الرد على ابن العريض في التصوف"، ورسالة في الرد على ... [1] "ورسالة في لبس الخرقة"، "وقاعدة في الوسيلة"، "ورسالة في الفتوة وبيان أنه ليس لها أصل في الأحكام الشرعية"، إلى غير ذلك مما يدل على عنايته الفائقة بهذه الناحية.

---

(١) كلمة غير واضحة، وقد تكون: الرد على الإخنائي وهو كتاب مطبوع له رحمه الله.

ابن تيمية الكاتب:

وأخيراً نختم هذه المحاضرة ببيان أسلوب ابن تيمية في كتابة الرسائل، وأنه لم يكن رجل علم ومعرفة بلغ فيهما الغاية فحسب، بل كان رجل أدب وعاطفة أيضاً، امتازت رسائله برقة الأسلوب، وحرارة عاصفة، في كل ما كتبه لأصحابها، وفي كل ما دونه وسجله، ونكتفي في التدليل على ذلك بإيراد هذه الرسالة، التي كتبها إلى والدته وهو محبوس بمصر قال رحمه الله: (من أحمد بن تيمية إلى الوالدة السعيدة، أقر الله عينها بنعمه، وأسبغ عليها جزيل كرمه، وجعلها من خيار إمائه وخدمه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وهو للحمد أهل وهو على كل شيء قدير، ونسأله أن يصلي على خاتم النبيين، وإمام المتقين، محمد عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم تسليماً، كتابي إليكم عن نعم من الله عظيمة ومنن كريمة وآلاء جسيمة، نشكر الله عليها، ونسأله المزيد من فضله، ونعم الله كلما جاءت في نمو وازدياد، وأياديه جلت عن التعداد، وتعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد إنما هو لأمور ضرورية متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا، ولسنا والله مختارين للبعد عنكم ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم ولكن الغائب عذره معه وأنتم لو اطلعتم على باطن الأمور فإنكم ولله الحمد ما تختارون الساعة إلا ذلك، ولم نعزم على المقام والاستيطان شهراً واحداً، بل كل يوم نستخير الله لنا ولكم، و ادعو لنا بالخيرة، فنسأل الله العظيم أن يخير لنا ولكم وللمسلمين ما فيه الخيرة من خير وعافية، ومع هذا فقد فتح الله من أبواب الخير والرحمة،

والهداية، والبركة، ما لم يكن يخطر بالبال، ولا يدور في الخيال، ونحن في كل وقت مهمومون بالسفر، مستخيرون الله سبحانه وتعالى، فلا يظن الظان أنا نؤثر على فرجكم شيئاً من أمور الدنيا قط، بل ولا نؤثر من أمور الدين ما يكون قربكم أرجح منه، ولكن ثم أمور كبار نخاف الضرر الخاص والعام من إهمالها، والشاهد يرى ما لا يراه الغائب، والمطلوب كثرة الدعاء بالخيرة لنا، فإن الله يعلم ولا نعلم، ويقدر ولا نقدر، وهو علام الغيوب، فقد قال النبي ﷺ: «من سعادة ابن آدم استخارته الله، ورضاه بما يقسم الله له، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله، وسخطه بما يقسم الله له»[1] فالتاجر يكون مسافراً يخاف ضياع بعض ماله فيحتاج أن يقيم حتى يستوفيه، وما نحن فيه أمر يجل عن الوصف ولا حول ولا قوة إلا بالله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته كثيراً، كثيراً وعلى سائر من في البيت من الكبار والصغار وسائر الجيران والأهل والأصحاب واحداً، واحداً، والحمد لله رب العالمين وصلى الله سلم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

وبعد فهذه أيها السادة إلمامة قصيرة أردت بها إبراز بعض الجوانب في حياة ذلك الحبر الجليل، إنصافاً للحقيقة وقياماً بواجب الوفاء نحو رجل، طالما رفض قلمه ولسانه للذب عن دين الله، ووهب أمته من نفسه كل ما يملك من

---

[1] ضعيف: أخرجه الترمذي (٢١٥١) والحديث ضعفه الشيخ الألباني، انظر السلسلة الضعيفة (٤/ ٣٧٧).

خير، ولم يأل زهداً في نصحها، وكشف الحقائق لها، ولكنه لم يجد منها في حياته وبعد موته غير الجحود والنكران، اللهم إلا فئة قليلة من الناس، خلعوا عنهم رقة التقليد، وتحرروا من نزعات العصبية، فأدركوا سمو دعوته، ونبل غايته، ووضوح منهجه، وعرفوا له قدره في العلم، وجهاده في الحق، وإخلاصه في الدين، فاتبعوه على بصيرة، فاستفادوا من كتبه ما لا يجدونه في غيرها من روائع الأفكار، ودقيق المعاني، وكنت في خاتمة كتاب ابن تيمية السلفي قد رجوت القائمين على الأمور في الأزهر الشريف أن يجعلوا لهذا اللون من الثقافة النقدية العالية التي أسسها ابن تيمية، وأتمها تلميذه النابغة ابن القيم الجوزية من بعده، نصيباً ملحوظاً من المناهج التي تدرس بكليات الأزهر ومعاهده، حرصاً على فائدة الطلاب، وتربية لروح النقد فيهم، حتى يتعودوا ألا يقبلوا رأياً إلا بعد الفحص والتمحيص، وألا يؤمنوا بقضية إلا بعد إثباتها بالدليل، وإني إذ أقدر هذا الرجاء مرة أخرى أعلم أن القائمين على الأزهر من أستاذه الأكبر حفظه الله، ووكيله الموقر ومديريه الفضلاء هم أعرف الناس بآراء ابن تيمية ومنهجه وهم ولا شك عاملون إن شاء الله على تحقيق هذا الرجاء.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.

والسلام عليكم ورحمة الله.

استجيبوا لله وللرسول(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وهو لكل حمد أهل، وهو على كل شيء قدير، نحمده سبحانه وتعالى، كما يحب ربنا ويرضى، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ليس معه إله غيره، له الألوهية كلها، فهو الذي تألهه القلوب تعظيماً، ومحبة، وإجلالاً، ورغبة، ورهبة، وذلاً ،واستكانة، وتوكلاً، واستعانة، لا إله لها غيره، ولا معبود لها سواه، وله الربوبية كلها، فله الخلق وله الأمر، يعطي ويمنع، ويضر وينفع، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا ينفع ذا الجد منه الجد، أحمده سبحانه وتعالى وأثني عليه، كما أثنى هو على نفسه، ولا نحصي ثناءً عليه، كما أثنى هو على نفسه، وأصلي وأسلم وأبارك على عبد الله ورسوله محمدﷺ، قام بالعبودية الحقة لربه، فكان أشرف الرسل، وكان أفضل الأنبياء، كملت عبوديته لله، فكان أقرب الخلق إلى الله، بعثه الله ﷻ رحمة منه للعالمين، وهدى وبشرى للمؤمنين، وجعله خاتم الرسل، وأعطاه الكتاب تفصيلاً لكل شيء، وهدى رحمة لقوم يؤمنون، بعثه بين يدي الساعة مبشراً ونذيراً، حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، وجعل الهدى والفلاح والسعادة لمن أطاعه واتبعه، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه الذين

---

(١) هذه الخطبة ألقاها فضيلة الشيخ العلامة محمد هراس يوم الجمعة الموافق سبعة وعشرون فبراير سنة ألف وتسعمائة وتسعة وخمسون بمسجد الهبارة.

اخترتهم لصحبته، والذين قاموا على هذا الدين أمناء مخلصين، يبلغون دعوته وينشرون رسالته، حتى عم الأرض كلها نور الإسلام، وحتى ظهر دين الله على الدين كله، تحقيقاً لما وعد به سبحانه من قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾«النور:٥٥» .

أما بعد: فيقول الله تبارك وتعالى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾«الأنفال٢٥:٢٤» هاتان الآيتان الكريمتان من سورة الأنفال، وسورة الأنفال سورة مدنية، نزلت على رسول الله ﷺ بعد غزوة بدر الكبرى، حين اختلف المسلمون في قسمة الغنائم، وتنازعوا أيهما أحق بها وأولى، فنزلت سورة الأنفال تأمرهم أن يفوضوا الأمر فيها لله وللرسول، وأن يتقوا الله ويصلحوا ذات بينهم، وألا يدعوا عامل الفرقة يدب بينهم، وألا يحملهم شيطان الشهوة، ولا طاغوت المادة على أن ينسوا هذه الوحدة الجامعة، والرابطة التي ربطتهم وجعلتهم إخواناً في الله متحابين، وأنصاراً متعاطفين، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾«الأنفال:١» ثم ذكرهم الله تبارك وتعالى

بالصفات التي يجب أن يكون عليها المؤمن، الذي صدق في إيمانه، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾«الأنفال٤:٣» ثم ذكرهم الله تبارك وتعالى بما امتن به عليهم من النصر في غزوة بدر، الذي جعلها الله آية على صدق رسوله، وعلى صحة الإسلام، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيا عن بينة، فذكرهم بأنه استجاب لهم حين دعوه، وسألوه النصر، وأنه وعد رسوله إحدى الطائفتين، إما العير وإما النفير، وأنه أنزل معهم الملائكة في هذه الغزوة، يثبت أقدامهم، وتبشرهم بالنصر، وتطمئنهم وترغبهم في القتال، وتحثهم عليه، وأنه أنزل من السماء ماء ليطهرهم به، ويذهب عنهم رجس الشيطان، وليربط على قلوبهم، ويثبت به الأقدام، ثم أمرهم سبحانه وأرشدهم، إلى ما يجب أن يكونوا عليه، من صدق في اللقاء، ورغبة في الموت، والاستشهاد، وألا تحدثهم نفوسهم بجبن ولا فرار، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾«الأنفال١٦:١٥» ثم حذرهم الله سبحانه، أن يغتروا بهذا النصر، الذي حصل لهم، وأن ينسبوه إلى أنفسهم، فما كان إلا من عند الله سبحانه، فهو الذي بيده النصر، وبيده الهزيمة، وما كان

لتلك الفئة القليلة من المسلمين في غزوة بدر أن تنتصر على جحافل المشركين إلا بمشيئة الله، وعونه، ونصره، وتأييده، ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾«الأنفال:١٧» ، ثم بشرهم بأن أمر هذا الشرك إلى أفول، ونهايته إلى انقضاء وزوال، وأن هذا الشرك الذي كان يصول عليهم ويجول في مكة، بدأ بوادر ضعفه واضمحلاله، وأن الله سيذهب كيده شيئاً فشيئاً، ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾«الأنفال:١٨» ، ثم أمرهم أن يطيعوا الله ورسوله، وأن يسمعوا لما أمرهم الله ورسوله، وألا يتولوا عنه وهم يسمعون، فيكونون كهذه الدواب، ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾«الأنفال٢٣:٢٢» ، ثم أمرهم الله تبارك وتعالى أن يستجيبوا لله، وأن يستجيبوا لرسول الله ﷺ، إذا دعاهم لما يحييهم، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾«الأنفال:٢٤» الاستجابة لله ولرسوله، هي السمع والطاعة، والقبول والانقياد، لكل ما أمر الله به ورسوله، فلا تولي، ولا إعراض، ولا استكبار، ولكن خضوع وطاعة، وانقياد، وقبول، ورضا، بكل ما يأمر الله به ورسوله، وإن الحياة الحقة، الحياة النافعة، التي ينتفع بها صاحبها، والتي يدرك بها أنه حي، وأن فيه حياة، ليست حياة هذا البدن، تلك الحياة التي

يشاركك فيها أخس البهائم، وأرذل الحيوانات، ولكن الحياة الحقة، الحياة النافعة، الحياة التي يطيب بها قلب صاحبها، ويطمئن لها، ويشعر أنه حي موجود، لا أنه هالك معدوم، هذه الحياة، هي التي تكون لمن يستجيب لله ولرسوله، فكل من استجاب لله، واستجاب لرسول الله ﷺ ، فهو حي القلب، حي الروح، حي الضمير، حي الشعور، هو حي تلك الحياة الصادقة، الحقيقية، التي لا يعتيرها موت، ولا فناء، فإنها حياة القلوب، والبقاء، هؤلاء الذين يستجيبون لله ولرسوله هم أحياة، وإن ماتت أبدانهم، وهؤلاء الذين يعرضون عن الله ورسوله، هم أموات وإن كانوا أحياء، إن هؤلاء الذين يسمعون عن الله، ويعقلون ما قال الله، وما قال رسوله، قد اشتروا الحياة الطيبة الهانئة الباقية الدائمة، بثمن قدموه، وهو رضاؤهم عن الله ﷻ، وطاعتهم لله سبحانه وتعالى، لا يعرضون، ولا ينكثون، ولا يتلونون، ولا يتغيرون، فهذه أيها الإخوة هي الحياة الحقيقية، التي تضمن لصاحبها كل خير، وكل سعادة، عند الله تبارك وتعالى، حيث يحيا في جنة الحيوان، التي هي الدار الباقية الدائمة، وإن الناس من هذه الحياة مختلفون كل الاختلاف، فإن هذه الحياة الطيبة لا تكون إلا لمن استجاب لله ولرسوله، وتكون بحسب هذه الاستجابة، وبحسب ما قدم من سمع وطاعة، فمن كملت استجابته لله ولرسوله، فقد كملت له هذه الحياة، ومن ضعفت استجابته لله وللرسول، فقد ضعفت فيه هذه الحياة، وهذه الحياة التي تضمنها تلك الاستجابة لله وللرسول، لن تكمل أبداً، ولن تقوى أبداً، إلا

إذا سمع المسلم كلما أمره الله به ﷻ في كتابه، وكلما أمره به رسوله ﷺ في سنته، فإن هذه الأوامر التي أمرنا الله بها، والتي أمر بها رسوله، هي عناصر تلك الحياة، وهي سر قوتها، فمن قام بهذه الأوامر كاملة غير منقوصة، فقد قويت فيه هذه الحياة، ومن نقص شيئاً منها فقد نقص منه، ومن حياته بقدر ما نقص من طاعته لله ولرسوله، فالواجب إذاً أن نسمع ما قال الله، وأن نسمع ما قاله رسول الله ﷺ، إذا دعانا لما يحيينا، وإنك لن تستطيع الاستجابة لله وللرسول، وأنت لا تنظر فيما قال الله ولا فيما قال الرسول، إن شرط هذه الاستجابة أن تسمع عن الله، وأن تسمع عن رسول الله، وأن تعقل، وتفهم، وأن تدبر معاني كلام ربك، ومعاني كلام رسوله ﷺ، وأما هؤلاء المخذولون، المحجوبون، الذين لا يعقلون عن الله، ولا يفهمون مراد الله من كلامه، والذين يستقصرون عقولهم، وأفهامهم، أن تأخذ أحكام الدين، وأوامره، ووصاياه، من كلام الله، وكلام رسوله ﷺ، فيذهبون إلى ما ألف الناس، وإلى ما قال الناس، وإلى ما رأى الناس، فيأخذون دينهم من هذه الكتب، التي لا تحوي إلا كلاماً فارغاً، وإلا ضلالاً مبيناً، والتي اختلف فيها أصحابها، وتناقضوا، واضطربوا، كيف تلتمس الهدى من هذا الضلال؟ كيف تلتمس الشفاء من هذا المرض؟ إذا أردت شفاء لنفسك، وحياة لقلبك، وصفاء لروحك، فارجع إلى ربك، وتفهم ما قاله لك، وما أمرك به، وما شرعه لك، فإنه كلمك أيها المسلم بلسان عربي مبين، لا عوج فيه ولا التواء، بل العوج والالتواء في كلام غيره، وإنما كلام

ربك، وكلام رسول ربك، أوضح، وأبين، وأبهر، وأشفى من كل قول، ومن كل كلام، هؤلاء الذين أعرضوا عن كتاب الله، وعن سنة رسوله ﷺ، ثم راحوا يجولون في هذه المهانة، ويقرءون هذه الضلالات، يلتمسون فيها الهدى، ويلتمسون فيها الشفاء، فلا يرجعون إلا بالحيرة، تملأ قلوبهم، وإلا بالضلال يكاد يمزق أحشائهم، ولو أنهم استفتوا كتاب ربهم، ولو أنهم أخذوا عن ربهم، وعقلوا وفهموا عن ربهم، وعن رسول ربهم وفهموا مراد الله ﷻ من كلامه، وفهموا مراد رسوله ﷺ من كلامه، واستقوا أحكام دينهم من هذين النبعين الصافين الذين لا ينضبان أبداً، والذين لا يتغيران أبداً، واللذان لا يفنيان أبداً، لو أنهم رجعوا إلى هذا الأصل الأصيل، من كتاب ومن سنة، لوجدوا الهدى من كل حيرة، ولوجدوا الشفاء من كل مرض، ولوجدوا الدواء من كل علة، ولكنهم راحوا يتمذهبون، بمذهب هذا، ومذهب ذاك، وما مذهب هذا وذاك، إلا أقوال رآها، واستنباطات استنبطها بعقله، وبما عنده من علم، فما لنا و لك لقد استنبط لنفسه، فما لنا لا نستنبط لأنفسنا، إن هؤلاء الذين يشيعون هذه المذاهب، ويجرون وراءها، ويقدمون كلام أئمتها على كلام الله ورسوله، وإذا دعوا إلى كلام الله ورسوله، أعرضوا، واستكبروا، وقالوا: حسبنا ما وجدنا في هذه الكتب، فإن أشياخنا وأئمتنا كانوا أعلم منا وأفهم، فلا يمكن أن يكونوا قد ضلوا، ولا أن يكونوا قد أخطئوا، فادعوا لهم العصمة، وأخذوا عنهم دينهم، فكيف يقال: إن هؤلاء قد استجابوا لله وللرسول؟ إنهم لم يستجيبوا لله،

ولا لرسوله، ولكنهم استجابوا لمن قلدوهم، وأطاعوهم، وعملوا بكلامهم، وآرائهم، بغير فهم، ولا معرفة، ولا دليل، ولا برهان، هؤلاء أصحاب المذاهب، من الفقهاء الذين جمدوا على هذه المذاهب المعروفة، وهؤلاء المتكلمون أرباب المقالات الباطلة، والنظريات الكاذبة، من الأشعرية، وغير الأشعرية، الذين جروا على ما قاله لهم هؤلاء، وأخذوه قضايا مسلمة، يعارضون بها كلام الله، ويعارضون بها قول رسول الله ﷺ، بل يدعي بعضهم جهلاً وكفراً، أن القرآن والسنة ليس فيهما علم، وأن دلالتهما ظنية لا تفيد اليقين، وأن العلم هو ما ارتأته عقولهم المريضة، وأفهامهم السقيمة، ألا بئس ما يقولون، ألا بئس ما اشتروا لأنفسهم، أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون، نعم إن هؤلاء لم يستجيبوا لله، ولا لرسوله، ولهذا ماتت قلوبهم، وانطمست بصائرهم، وضرب الله ﷻ على قلوبهم حجبا لا يفهمون عنه، ولا يعقلون عنه، لأنهم أعرضوا، فكان جزاء هذا الإعراض منهم، أن صرف الله قلوبهم، بأنهم لا يفقهون، إنهم لا يسمعون من القرآن إلا ترنما، وإلا تغنيا، وإلا أصواتاً يجهر بها القارئ، يتلذذون بتلك الأوقاع، وبتلك النبرات، التي تخرج من فم القارئ، ولكنهم لا يحسون بما يسمعونه، من معنى، ولا يفهمون لهذه الآيات غرضاً، ولا معنى، ولا يعقلون عن الله تبارك وتعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾«البقرة:١٧١» ، وإذا تليت عليهم أحاديث رسول الله ﷺ، وفيها ما في كتاب الله ﷻ من الهدى، والشفاء، وفيها الحكمة، وفيها النور،

وفيها العصمة من الضلال، والنجاة من الهوى، إذا سمعوا هذه الأحاديث سمعوها تبركاً بها، سمعوها للتبرك فقط، ليتبركوا بتلاوة هذه الأحاديث، ولكنهم لا ينظرون إلى ما احتوته من معانٍ رائقة، وأخلاق كريمة، وإرشادات رحيمة، وشرائع عادلة مستقيمة، أراد بها رسول الله ﷺ أن يبين ما أجمل الله في كتابه، وأن يوضحه للناس عملاً وتطبيقاً، كما أمر به كتاب الله ﷻ، فإنه هو المبين عن الله، والمبلغ إلى الناس مراد الله من كلامه، ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾«النحل:٤٤» ، إن من أراد أن يحيا حياة العزة، وحياة القوة، وحياة الاستقامة، إن من أراد أن يحيا هذه الحياة الطيبة، التي يشعر بها، أنه حي، وأنه موصول بالحياة، وأنه لا ميت ولا هالك، فليقرأ كتاب الله ليحيا به قلبه، ويشرق به ضميره، وينشرح له صدره، وليقرأ كلام رسول الله ﷺ، قراءة تدبر، وإمعان، وفقه، لا هزرمة، ولا قراءة عابرة، كما تقرأ الصحف، وكما تقرأ المجلات، ولكن يجب الوقوف عن كل آية، من كتاب الله تبارك وتعالى، يسأل عن معناها، وعما أراده الله منها، ونقف عند كل جملة من كلام رسوله ﷺ، نتدبر معناها، ونعرف مراد رسول الله ﷺ منها، فما انتفع أحد بما في كتاب الله، ولا في سنة رسول الله، إلا من مارس الكتاب والسنة عقلاً، وتفهماً، وتدبراً وفقهاً، وفتح بصيرته على هذا النور، حتى أشرقت في قلبه أنوار الكتاب والسنة، فاستغنى بهما عن غيره، فصار في حياته على هدى من ربه، وأحياه الله من ضلاله، وأحياه الله من الموت الذي كان فيه بالجهل،

والضلال، والكفر، والعمى، ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾«الأنعام:١٢٢» ، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾«الشورى٥٣:٥٢» حياة القلوب، فأحيوا قلوبكم بماء الحياة بهذا العبير، بهذا النمير الطيب، الذي يفيض عليها من كتاب الله، ومن سنة رسول الله ﷺ، فتحيا قلوبكم، وتزدهر، وتربوا، وتنبت بإذن الله ثمراً شهياً، من كل زوج بهيج، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، أعمالاً صالحة، وأخلاقاً كريمة، ورضاً واستقامة، تنبت هذا النبات الطيب، لأنها شجرة طيبة سقيت بماء طيب، ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾«إبراهيم٢٥:٢٤» .

إن القلوب لها حياة، وللأبدان حياة، وإن حياة القلوب أعز، وأرفع، وأسمى من حياة الأبدان، فيا أيها المجتهد في حياة بدنه، وفي المحافظة على بدنه، وفي جلب الغذاء والقوت، والملبس لبدنه، يخشى عليه العطب، ويخشى عليه التلف والهلاك، هلا تزودت لروحك أيضاً، وهلا تزودت لقلبك ما به غذائه،

وما به قوته، وما به حفظه وحياته، ترضى أن تعيش لبدنك خاصة، فتكون كهذه الأنعام التي لا تعرف إلا ما تأكل وتشرب، لا بل يجب أن ترتاد لقلبك مرعىً طيباً، ونباتاً حسناً، وأكلاً شهياً، وغذاءً طيباً، ولن تجد هذا الغذاء الذي به شفاؤك، والذي به حياتك، والذي به قوتك، والذي به رجولتك، والذي به إنسانيتك، والذي به تكون كريماً على نفسك، وكريماً على الناس، وكريما على الله ﷻ، لم تجد هذه الغذاء الطيب الشهي إلا في كتاب الله، وإلا في سنة رسول الله ﷺ، فإلى الكتاب وإلى السنة أيها الإخوة، ندرسهما ونتدبرهما، ونحيا بهما، ونحيا لهما، ونكون معهما دائماً، ولو كره المعرضون، ولو كره المجرمون، الذين هجروا كتاب الله واتخذوه ورائهم ظهرياً، هجروا تحكيمه، والتحاكم إليه، هجروا تدبره، هجروا تفهمه وعقله، هجروا الاستشفاء و التداوي به، وما أنزله إلا شفاء، وما أنزله الله إلا طباً، وعلاجاً، لأدواء القلوب، وأمراض النفوس، إلى الكتاب والسنة أيها الإخوة، فإن فيهما الحياة الرغيدة، وإن معهما العيش الهنيئة الطيب، حتى ولو ضاقت بنا سبل هذه الحياة، حتى ولو ألمت بنا كل مصائب هذه الحياة، حتى لو كنا من هذه الحياة في سجون ومعتقلات، حتى ولو كنا من هذه الحياة في فقر مدقع، وضر موجع، فإننا سنعيش في بستان كتاب الله، وفي روضة رسول الله ﷺ، سنعيش منهما في فسحة، سنعيش منهما في حياة فسيحة الأرجاء، طيبة الأكناف، لا يشبهها إلا نعيم الآخرة، الذي أعده الله ﷻ لمن استجاب له ولرسوله ﷺ.

إن هذه الأمة أيها الإخوة كانت أعز ما تكون، وكانت أقوى ما تكون، حين كانت تستجيب لله، وحين كانت تستجيب لرسول الله، إذا دعاها لما يحييها، إذا دعاها لما فيها حياتها، حياتها الحقة، لا هذه الحياة الماجنة العابثة، لا هذه الحياة المادية الفاتنة، لا هذه الحياء الزائلة الفانية، ولكنه كان يدعوها لحياة أبقى وأخلد، كان يدعوها لحياة العزة والكرامة، لحياة المجد، لحياة القوة، حين كانت تستجيب لله، وتستجيب لرسول الله، كانت أعز ما تكون، وكانت أقوى ما تكون، فلما فتنها الشيطان عن حياتها، ولما صدها عن سبيل ربها، ولما صرفها عن هذا المعين الطيب، الذي كان تستقي منه رياً، وتتخذ منه غذاءً، وصدها عن هذا الماء، وصرفها إلى هذا المياه الآسنة، والآبار الآجنة المتغيرة، فشربت منها وعلت، ففسدت قلوبها، واعتلت أرواحها، وانصرفت عن كتاب ربها، وصارت غثاءً كغثاء السيل، لا يخيف عدواً، ولا يسر صديقاً، بل صارت حالها إلى ما هي عليه الآن من تشتت، وفرقة، وتخاذل، وضيعة، وتفريط، وخيبة، رجاء، وانحلال، وفساد، إلى فجور، وفسق، وإباحية، وإلحاد، فتح عليها الشيطان كل باب من أبواب الشبهات، وفتح عليها كل باب من أبواب الشهوات، وكلما فتحت لها باب شبهة ولجت، وكلما فتح عليها باب شهوة ولجت، فلم تترك باباً من هذه الأبواب إلا ولجته، وسدت عن باب الله، الذي يدعوها إليها داعي الله ﷻ في قلوبها، والذي يدعو إليه كتاب الله، ويدعو إليه رسول الله ﷺ، فما أعظم هذه الخيبة، وما أشد هذا الخسران، إذا كانت هذه الأمة

تريد لنفسها الحياة، وإذا كانت تريد لنفسها القوة، فلتصل نفسها بالله، ولترجع إلى حظيرة دين الله، ولتلتمس الهدى والشفاء في كتاب الله، فلا إقامة لمصانع تشفيها، ولا هذه القوى المادية التي تسعى إليها تقويها، ولا هذه التنظيمات التي تشرعها لتنظم بها أحوالها تنفعها، أو تغني عنها شيئاً ما دامت بعيدة عن كتاب الله تبارك وتعالى، ففيه القوة، وفيه الشفاء، وفيه المجد، وفيه النظام، وفي الحركة، وفيه الحياة، وفيه العزة، وفيه كل ما تبغيه أمة، تبغي لنفسها المجد والسيادة، والكرامة، والقوة، هذا هو الذي يجب على هذه الأمة، أن تنظر فيه، وأن تتدبره، قبل أن يأتيها عذاب الله، وقبل أن ينزل غضب الله، الذي توعد به كل من أعرض عن أن يستجيب لله، أو أن يستجيب لرسول الله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ هذا هو الوعيد أيها الإخوة، هذا هو الوعيد الشديد الذي توعد الله به كل من أعرض عن ذكره، وكل من حاد عن سبيله، وكل من نكب عن صراطه، توعده بأنه سيحول بينه وبين قلبه، فإذا تمادى العبد في إعراضه عن الله ﷻ، وقصر وتهاون في الاستجابة لله ولرسول الله ﷺ، ضرب الله على قلبه، فصرفه عن تلك الاستجابة فلا يستطيعها أبداً، حتى ولو حاولها ألف مرة ومرة، فقد حال الله بينه وبين قلبه، فاحذروا أيها الإخوة من التمادي في الإعراض، ومن التقصير والتهاون، في أن تستجيبوا لله وللرسول، بل أسرعوا في ذلك وأقبلوا عليه، طائعين، منقادين، مذعنين لحكم الله وحكم رسوله، قبل أن يحول الله بينكم وبين قلوبكم، فتشتهون ذلك فلا تجدونه أبداً، إن الله هو

مالك القلوب ومقلبها، وقلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فإن وجد من هذه القلوب طواعية وانقياداً وإذعاناً ومسارعة إلى الامتثال والخضوع والطاعة لأمره وأمر رسوله ﷺ، فتح هذه القلوب على الخير كله وأحياها بهذه الاستجابة أحسن الحياة وأطيبها، وإذا وجد من هذه القلوب غفلة، وإعراضاً، وإباءً، واستكباراً، وتثاقلاً، وتقصيراً في الاستجابة لأمره، أو لأمر رسوله، ضرب على هذه القلوب حجاباً، ضرب عليها الحجاب فلا تستطيع بعد ذلك الاستجابة أبداً: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾«الصف:٥» ،﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾«المنافقون:٣» ، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾«النور:٦٣» ، ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾«الأنفال:٢٥» هذه الآية أيها الإخوة أشد وعيداً مما قبلها، إنه لا يكفي أن تستجيبوا لله وللرسول حتى تأمنوا الفتنة، وحتى تسلموا منها، لأن الله ﷻ يتوعد الأمة كلها، إن لم تستجب جميعها لله وللرسول، فسيضربها بفتنة عمياء تدع الحليم حيران، ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ كما جاء في الحديث: «أن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك الله أن يعمهم بعذاب»[1]، ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا

---

[1] صحيح: أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، وابن ماجة (٤٠٠٥).

مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ «الأنفال:٢٥» إنها الفتنة تقع، فتدع الحليم حيران، إنها الفتنة التي تقع حين تختلف الأمة، وحين يعرض المستجيبون لله وللرسول، عمن عتوا وتمردوا وأعرضوا، فيتركونهم في تماديهم، وفي غفلتهم، بلا تحذير، ولا إنذار، فتنزل الفتنة، وتعم الأمة كلها، فالواجب علينا لكي نسلم من هذه الفتنة الشعواء التي يتوعدنا كتاب الله ﷻ بها، أن نعذر إلى الله ﷻ كل الإعذار، وأن نبلغ دعوة الله التي ائتمننا عليها، ولا أقول التي اختارنا الله ﷻ لها، تصديقاً لوعد رسوله لنبوءة رسوله ﷺ: «لا تزال طائفة ظاهرين على أمر الله، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله»[1] لعلنا أيها الإخوة نكون هذه الفئة المنصورة، لعلنا أيها الإخوة نكون هذه الطائفة التي رضي الله أن تحمل هذه الأمانة، وأن تبلغها إلى العالمين، فلا تقصير أيها الإخوة، ولا تواني، ولا كسل، ولا فتور، بلغوا دعوة الله إلى عباد الله، في كل مكان، وفي كل بلد، حذروا، وأنذروا، وأبشروا.

فيا أيها الإخوة، إن هاتين الآيتين من كتاب الله ﷻ، لا بد أن نجعلها شعاراً لنا،ودستوراً في هذه الحياة، يضيء لنا السبيل، ويضيء لنا الطريق، فإن الطريق صعبة، وإن المهمة شاقة، وإن السفر بعيد، وإن الزاد قليل، وإن الراحلة كليلة، وقد ذهب إلى ربه، من كنا نعول بعد الله ﷻ عليه، ذلك الذي كان جبلاً

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري من حديث المغيرة برقم (٣٦٤٠)، ومسلم من حديث جابر برقم (١٥٦).

شامخاً، وطوداً عظيماً يصد عنكم عادية الأعداء، ويدفع بقوة علمه وغزارته، عن كتاب الله، وعن سنة رسول الله ﷺ، ولكن يجب أيها الإخوة ألا نهلك أسىً، وجزعاً، وألا يفت في عضدنا ضعف، ولا وهن، فإن الموت قضاء مقدور، وأجل مكتوب، لا معزى عنه، ولا مهرب، وقد مات رسول الله ﷺ، وكان خيراً من شيخنا الذي مات، فما وهن أصحابه، ولا ضعفوا، ولا استكانوا، ولا ناموا عما ألقي عليهم من تبعات ومسئوليات، بل قاموا بها حق القيام، وأدوها تبليغاً وإنذاراً، ودعوة للناس جميعاً، وحرباً وجهاداً، في سبيل الله ﷻ، حتى فتحوا أقطار المعمور، وحتى وصلت جيوشهم إلى حدود الصين، وإلى قلب فرنسا، كل ذلك بما أودع الله في قلوبهم من إيمان وحكمة، كل ذلك بفهمهم في كتاب الله، وفهمهم لسنة رسول الله ﷺ، فلما وجدت منهم القلوب الواعية الفاهمة، وأكبت هذه القلوب على كتاب الله، وعلى سنة رسول الله، استطاعت أن تجد فيهما كل شفاء، وكل هدىً، وكل قوة، وكل مجد، فعلينا أيها الإخوة أن نسير كما ساروا، وأن ننهج منهجهم، وأن نقتفي آثارهم، في تحكيم كتاب الله ﷻ، في كل ما تنازعنا فيه، نرده إلى الله وإلى الرسول، كما أمرنا الله تبارك وتعالى.

ولقد قرأت هذا اليوم في إحدى الجرائد، خبراً يقول: إن لجنة ستجتمع في مكتب الأستاذ محمود عبد اللطيف، ولا أعرف من هذا محمود عبد اللطيف، أن لجنة من كبار رجال الدين، والقانون، والاقتصاد، ستجتمع في مكتب الأخ محمود عبد اللطيف، لتبحث في الأحكام الدينية، التي تتناسب مع النظريات

العلمية الحديثة، والتي لم يتكلم الفقهاء السابقون فيها، ولم يجدوا لها حكماً فيما بين أيديهم من الكتب، كتب المذاهب الأئمة، وأن هذه اللجنة ستختار أيسر المذاهب سهولة في هذه الأحكام، التي يحتاجها المسلمون في هذه العصور الحديثة، حتى تتناسب مع حاجات العصر، ومطالب العصر، و لكن لي أن أعترض على تأليف هذه اللجنة، فنحن أحوج ما نكون إلى مثل هذه اللجان، ولكني أعترض على المنهج أو الطريقة التي ارتضتها اللجنة لنفسها في البحث، وارتضتها لنفسها في استنباط الأحكام، إن هذه اللجنة تقول: إنها سترجع إلى كتب المذاهب، لتأخذ بأيسرها أحكاماً، مما يتلاءم مع حاجات العصر، ومما تتفق مع مطالب العصر، ولست أدري ما معنى أيسرها؟ حتى ولو كان بلا دليل؟! تأخذ من المذاهب أيسرها، حتى لو خالف هذا الأيسر والأسهل كتاب الله وكلام رسوله ﷺ؟! أليس هناك شيء من حياء؟ أيجوز للجنة تجتمع من كبار رجال الدين، والقانون، والاقتصاد، تقول: إنها ستنظر في المذاهب لتأخذ بأيسرها مما يتطلبه العصر، ومما يحتاج إليه من الأحكام التي تناسب حياتنا وعصرنا، هذا والله أمر يقضي منه العجب، لقد كان أولى بهؤلاء بدلاً من أن يضلوا ويتيهوا بين أرجاء هذه الكتب، وبين صفحاتها، وسطورها، لقد كان أولى بهم وأجدر أن يرجعوا إلى كتاب ربهم، وإلى سنة نبيهم، فسيجدوا فيها - ولا شك- كل ما يحتاجون إليه من أحكام، وتحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور، نعم ستجدون في كتاب الله وفي سنة رسوله كل ما يتطلبه

العصر، بل فيهما أوفى مما يتطلبه العصر، بل فيهما أوفى وأكمل مما سيجدونه في هذه الكتب التي سيختارون منها الأيسر والأسهل، لا أيها الإخوة لا، بل يجب الرجوع إلى مصدر الدين، إن كنتم صادقين، إن كنتم صادقين في أنكم تريدون أحكاماً دينية، لا أحكاماً شيطانية، إن الأحكام الدينية التي تنسب إلى دين الله، لا تؤخذ من هنا ولا من هناك، ولكنها تؤخذ من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ، وكل ما وراء ذلك فليس بشرع ولا دين، وإنما هو شرع الهوى، وإنما هو دين الشيطان، والعجب أن يقولوا: نختار الأيسر والأسهل، العجب من هؤلاء أنهم يريدون أن يجروا دين الله جراً إلى حياتهم، بدل أن يجروا حياتهم إلى دين الله، فهل انعكست الآية، بدل من أن يقولوا للناس: ارجعوا إلى كتاب الله، وطبقوا معاملتكم، وأعمالكم، وسلوككم، وحياتكم، طبقوها على كتاب الله وسنة رسوله، نذهب نحن فنتكلف أحكاماً لتطابق حاجات الناس، ومعاملات الناس، لماذا نكلف أنفسنا هذا الشطط؟ إما أن نستطيع أن نرجع بالناس إلى حظيرة الكتاب والسنة، وإما أن نتركهم وما يعملون، مما يخالف دين الله ويخالف كتاب الله وسنة رسوله، أما أن نحاول تبرير أعمال الناس، ونحاول تبرير أغلاط الناس، ونحاول تبرير هذه الأخطاء التي يقع فيها الناس، بتلمس أحكام لها من كتب المذاهب، وكتب الأئمة، فهذا مما لا يرضى به مسلم يغار على دينه، وعلى كتاب ربه.

وقرأت خبراً أدهى وأعجب من هذا الخبر، أن لجنة موقرة، لجنة من كبار رجال الأزهر، والأوقاف، والإرشاد، والصحة، ألفت، تعرفون لماذا ألفت أيها الإخوة؟ ألفت للنهوض بالموالد، سبحانك ما أعظمك، سبحانك ما أحلمك على هؤلاء، فألفوا لجنة من كبار رجال الأزهر، ومن كبار وزارة الأوقاف، ومن عدة وزارات لا لتقول هذه اللجنة كلمة الحق، ولا لتقول هذه اللجنة، إن الموالد بدعة لا أصل لها في دين الله ﷻ، ولكن لتقول، إن هذه الموالد شرعة يجب أن تبقى، ودين يجب أن يتبع، ولكن يجب النهوض به، نعم إنهم تواصوا وتواتروا، على أن هذه الموالد يجب أن تبقى، وما جرؤ أحد منهم أن يقول كلمة الحق، بأن هذه الموالد عار في جبين الأمة، وعار في جبين الإسلام، وموائد للشيطان يعبث بها، ويلعب بعقول بني آدم، ما جرأ أحد منهم على أن يقول هذه الكلمة، ولكنهم رأوا فقط أن ينهضوا بالموالد، فما هي طريقة النهوض بالموالد؟ كل ما رأوه من وسائل النهوض بهذه الموالد، أنهم سيحظرون على "الموالدية"[١]، ومن يذهبون إلى الموالد أن يتخذوا من المساجد دوراً للأكل، والشرب، والنوم، ويجب عليهم أن يكونوا بعيداً عن المساجد إذا أكلوا، أو شربوا، أو ناموا، هذا كل ما رأته اللجنة الموقرة للنهوض بالموالد، وأما ما وراء ذلك فهو من أحسن الأشياء عند اللجنة ومن أطيبها، أليس هناك ذكر يقف فيه الناس حلقات يذكرون الله؟، لا يجب ألا نتعرض لهذا الأذكار، ولا لهذه

---

(١) لفظ يطلق عند المصريين ويراد به المتصوفة وأرباب الموالد.

الحركات البهلوانية، يجب ألا نتعرض لهذه الأضرحة، التي يدخلها الناس، والتي تتساقط على أعتابها كرامات الناس، وتوحيد الله، ودين الإسلام، هذه المقامات والأضرحة، يجب أن تبقى مفتوحة لزائريها، ولمن يلتمسون البركة فيها، ولم يلتمسون الهدى وشفاء عندها، هذه لم تتعرض لها اللجنة الموقرة، ولم تتعرض إلا لتنظيف المساجد، ممن يأكلون، ويشربون، ويلهون، هذا هو كل ما استطاعت هذه اللجنة أن تفعله، ونحن نقول لهم بكل صراحة، وبكل جرأة، إن دين الله لا مجاملة فيه، ولا محاباة فيه، فإن كنتم تريدون هذا الموالد لدنياكم، فأنتم أعلم بشئون دنياكم، وأما إن كنتم تريدونها ديناً يتبع، وإن كنتم تزعمون أنها من دين الله، فنحن نقول لكم: إن هذه الموالد أضر على دين الله من كل فتنة، وأضر على دين الله من كل ما دخل في دين الله من بدع ومستحدثات، فإن كنتم تريدون لهذا الدين، أي تريدون لهذا الدين خيراً فامنعوا هذه الموالد، واستأصلوا شأفتها، ولا تقطعوا الذنب وتبقون الرأس، إن كنتم صادقين فاقطعوا الرأس والذنب جميعاً، ولا تبقوا لهذا البدعة أصلا، ولا تبقوا لها أثر، اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، إنك سميع قريب مجيب الدعوات يا رب العالمين.

الإسراء والمعراج

الحمد لله، ليس معه إله غيره، أنزل الكتاب بلسان عربي مبين، ليجعله حجة دائمة باقية إلى يوم الدين، وأمر رسوله أن يبين لأمته ما اشتبه عليهم من آيات الكتاب، وأن يدلهم على كل معنىً من المعاني التي أرادها الله ﷻ في الكتاب، فكان الكتاب مع بيان الرسول ﷺ هدىً ورحمة، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، وأمره أن يتلو الكتاب، وأن يبين للناس ما نزل إليهم، ولعلهم يتذكرون، صلى الله وسلم وبارك على عبد الله ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن الله ﷻ يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ «الإسراء:١» هذه الآية الكريمة من أول سورة الإسراء، والتي تسمى أيضاً سورة بني إسرائيل، فيها تصريح لا يحتاج إلى جدل، ولا إلى تأويل، بأن الله سبحانه أسرى بعبده، يعني سار ليلاً بعبده محمد ﷺ، من المسجد الحرام الذي بمكة، إلى المسجد الأقصى الذي بالشام، وأنه جعل هذا الإسراء لحكمة عظيمة، وهو أن يري عبده محمداً ﷺ من آياته الكبرى، ثم ختم الآية الكريمة باسمين كريمين من أسمائه سبحانه وتعالى، فقال: ﴿إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ السميع لأقوال عباده،

مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذبهم، والبصير بأحوالهم، المطلع على أعمالهم، فيجزيهم بها يوم القيامة، يوم تجزى كل نفس بما عملت وهم لا يظلمون.

كانت حادثة الإسراء حقاً لا ريب فيه، بمنطوق القرآن العظيم، فلا لجاجة، ولا مكابرة، في وقوع الإسراء، بعدما أخبر عنها القرآن العظيم، وكل جحد وإنكار للإسراء فهو كفر بالله، وتكذيب بصريح القرآن، لكن الناس قد يختلفون فيما وراء ذلك، بعد أن يؤمنوا بوقوع الإسراء، يحلو لهم أن يختلفوا لهم هذا الاختلاف، هل كان الإسراء بالجسد والروح معاً؟ أو كان بالروح وحدها؟ وإذا كان بالروح فهل كان يقظة أو مناماً؟ نحن وإن كنا لا نخرج أحداً من هؤلاء المختلفين من دائرة الإسلام، بعد أن آمنوا بالإسراء، لكننا ندعو كل الناس إلى أن يؤمنوا بما هو أقرب إلى ألفاظ القرآن العظيم، فليس كل قول يقال يكون حقاً، بل يجب علينا أن نوازن بين الأقوال والآراء، وأن نرجح أقربها إلى النص، فكلما قرب الرأي من النص ومن ظاهر اللفظ، كان أقرب إلى الصواب، إن هذه الآية نفسها تدل على أن الإسراء كان بالجسد والروح جميعاً، وأنه كان يقظة لا مناماً، لأن الله ﷻ يبدأها بـ "سبحان"، فيسبح نفسه، والتسبيح لا يكون إلا عند الأمر العجيب، الذي فيه غرابة، ولو كان الإسراء بالروح وحدها، لم يكن فيه عجب ولا غرابة، ثم يقول سبحانه وتعالى: ﴿أسرى بعبده﴾ ولفظ العبد إنما يطلق على مجموع البدن والروح، يطلق على الشخص كله، فلا يقال للروح وحدها: عبد، إنما يقال: عبد إذا كان المراد

الشخص كله، بجسده وروحه، ثم يقول: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ وهنا تحديد لابتداء الرحلة ونهايتها، ثم يقول: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ والإراءة إنما تكون للعين وللبصر، فهذا هو ما دلت عليه الآية الكريمة، وهناك دلائل أخرى تشهد لهذا وهو ما ورد في أحاديث الإسراء والمعراج، المتفق على صحتها، من أنه ﷺ أتي بالبراق، والبراق دابة لا يحتاج إلى ركوبها إلا البدن، فالروح في مسراها ليست بحاجة إلى مركب تركبه، ثم ما ورد كذلك من استهزاء المشركين، لما أخبرهم رسول الله ﷺ بأنه أسري به الليلة من مكة إلى بيت المقدس، فعجبوا لهذا أشد العجب، وأنكروه أعظم الإنكار، ولو أنه قال لهم: رأيت في منامي أنني ذهبت إلى بيت المقدس، أو أنني صعدت إلى السماء، لما كان هناك عجب ولا إنكار، وإنما انصب إنكارهم وعجبهم لأنهم قال: أسري بي، أي بجسدي وشخصي، فهذا الذي جعلهم يعجبون ويستهزئون، ويقولون له: نحن نضرب أكباد الإبل شهراً مصعدة وشهراً قافلة، ثم تزعم أنت أنك ذهبت إلى بيت المقدس ورجعت من ليلتك فبت فينا، هذا هو موضع العجب وموضع الإنكار، أنت بعد هذه الآيات والدلائل يجوز خلاف، إن كل منصف لا بد أن يقدر لهذه الدلائل قدرها، وأن يؤمن بما دلت عليه، وبما عليه جمهور هذه الأمة سلفها وخلفها من أن الإسراء كان بالجسد والروح جميعاً، فإن هذه الحادثة إنما أريد بها تكريم رسول الله ﷺ، والتكريم لا يكون كاملاً ولا تاماً إلا إذا كان تكريماً لشخصه، الذي هو مجموع بدنه

وروحه، وإلا فروحه الطاهرة في كل ليلة تخرج من بدنه، وتصعد إلى السماوات العلا مكرمة هناك، فالتكريم يقتضي أن يكون الإسراء والمعراج بالجسد والروح جميعاً، كانت هذه الحادثة كما يقول المؤرخون: قبل الهجرة بسنة واحدة، وهذا هو الأقرب إلى التحقيق، لأنه قول الثقات من المؤرخين، وقيل: إنها كانت قبل الهجرة بستة عشر شهراً، والخلاف هنا هين ويسير، لكن إذا جرينا على أنها كانت قبل الهجرة بسنة واحدة، كان معناها أنها وقعت في ربيع الأول، لأن الهجرة كانت في ربيع الأول، وأما إذا جرينا على أنها كانت قبل الهجرة بستة عشرة شهراً، وهذا قول رجل يقال له: السدي، وهو ضعيف في روايته، كان الإسراء أو حادثة الإسراء في رجب، كما اعتاد الناس أن يحتفلوا بها في شهر رجب، ومن العجب أن يعينوا ليلة من رجب، هي ليلة السابعة والعشرين ليقولوا: إن الواقعة وقعت في هذه الليلة، وليس لهذا أي سند، ليس لهذا سند صحيح بالمرة، حتى لو جرينا على أن الحادثة وقعت في رجب، فليس هناك ما يدل على أنها وقعت في السابع والعشرين من رجب، كانت حادثة الإسراء في جو مليء بالمآسي والأحزان، التي أحاطت بالدعوة، وبصاحب الدعوة صلوات الله وسلامه عليه، لقد كان يعاني خلال هذه الفترة التي وقعت فيها الإسراء، من ظلم قريش، ومن جرأتها عليه، ومن استخفافها به، ما تنوء به الجبال، حتى إنه اضطروه إلى أن يخرج من مكة مختفياً، فيذهب إلى ثقيف بالطائف، يدعو إلى نصرته وحمايته، حتى يبلغ رسالة ربه، وقطع رسول الله ﷺ تلك الرحلة الشاقة

سائراً على قدميه، وليس معه إلا مولاه زيد بن حارثة ﷺ، فليهنأ أهل الخطوة بخطوتهم، هذا رسول الله يخرج من مكة بعد ما دعا إلى الله، هذه الدعوة الصادقة، وبعد ما احتمل في سبيل الله هذا العذاب، ومع ذلك لم تنزل له السماء فرساً يركبه، ولا حملته الريح، وإنما أرادت السماء أن يطأ هذه الأرض بقدميه، حتى يعلو بكل خطوة قدره، علواً فوق علو، لأنها قدم اغبرت في سبيل الله، ذهب إلى ثقيف بالطائف، وعرض عليهم الإسلام، ودعاهم إلى الله، وبشرهم بالجنة إذ هم أووه ونصروه، حتى يبلغ رسالة ربه، فلم يجد منهم إلا الصدود والإعراض، والجبهة والغلظة، فكلما دخل على واحد من سادتها طرده، وأمر أن يخرج من داره، اذهب عنا، إننا لا نريد أن تقع بيننا وبين قريش عداوة من أجلك، لا نريد دينك، لا كذا، لا كذا، وهو صابر مستسلم لحكم الله، مكث فيهم نحواً من عشرة أيام، ماذا كان يأكل في هذه الأيام وهو بين قوم لئام؟ ماذا كان يشرب؟ أين كان ينام؟ لا أحد يسأل عن هذا، فإن هذا شيء فوق ما يحتمله غيره من البشر، وبهذا فضله الله على سائر البشر، ولما يأس منهم قفل راجعاً إلى مكة، بعدما طلب من القوم أن يخفوا رحلته عن قريش، وألا يخبروهم بمسيره إليهم، ولكن القوم كانوا لئاماً أشد اللؤم، فحتى هذا الطلب التي تهش له المروءة العربية، حتى هذا الطلب اليسير أبوه عليه، وقالوا: لا بد أن نخبر قريشاً بما كان، ثم تركهم وانصرف مهموماً مكدوداً يسير في غير وعي، وقد جعل له القوم سماطين من سفهائهم، وصبيانهم، يرمونه بالحجارة، وهو سائر حتى

أدموا عقبيه وكان زيد ﷺ يترس عليه، ويقيه بجسده من الحجارة، حتى بعد عن دار القوم ومحلتهم، فجلس إلى حائط كان لعتبة وشيبة بني ربيعة، مهموماً مكروباً، في هذه اللحظة التي لا ينساها الزمان أبداً، في هذه الآونة التي تطلعت فيها الدنيا كلها إلى ألفاظ تخرج من هذا اللسان الرطب دائماً بذكر الله، تخرج شكايته إلى الله لا إلى أحد من ، فقد يأس من الناس جميعاً، فيقول في دعائه بعدما رفع يديه إلى السماء: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى قريب يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بي غضبك، أو يحل عليَّ سخطك، و لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1] سمعت السماء لشكاية داعي السماء، صلوات الله وسلامه عليه، ارتجت الملائكة في سماواتها، وصدر أمر الله إلى جبريل، أن يأمر ملك الجبال أن ينزل إلى محمد ﷺ حيث دعا ربه فيطيعه في كل ما يأمره به، في شأن قومه، فنزل ملك الجبال وقال له: (يا محمد إن الله قد أمرني أن أطيعك فيما تأمرني به في شأن قومك، فلو شئت أطبقت عليهم الأخشبين) فما كان جواب رسول الله ﷺ على كلام الملك؟ هل فرح بأن الملك جاء يعرض عليه هلاك قومه؟ هل رغب في التعجيل بنهايتهم؟ لا، بل قال له: «إني أستأني

---

(١) ضعيف: رواه الطبراني (١٤/ ١٣٩)، انظر ضعيف الجامع (١/ ١٦٦).

بهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده وحده، ولا يشرك به شيئاً»[1] لم يقل رسول الله ﷺ كما قال نوح داعياً على قومه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾«نوح:٢٧» ، ولم يقل كما قال موسى داعياً على فرعون وقومه: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾«يونس:٨٨» ، بل كان بقومه رءوفاً رحيماً، ولما أراد صلوات الله وسلامه عليه أن يدخل مكة لم يستطع أن يدخلها إلا في جوار رجل من المشركين يقال له: المطعم بن عدي، بعدما عرض على بعض أشراف قريش أن يجيروه فأبوا عليه ذلك، لكن المطعم بن عدي هلل لهذه الرغبة، ونزلت من نفسه مكانة عظيمة، وخرج هو وبنوه بسيوفهم، يحمون رسول الله ويحيطون به، حتى دخل مكة، وحتى طاف بالبيت الحرام، ثم أوصلوه إلى بيته، لم ينس صلوات الله وسلامه عليه هذه اليد للمطعم بن عدي، بل ظل يحسبها حتى إنه لما أسر سبعين من رجالات قريش وصناديدها، قال: والله لو كان المطعم بن عدي حياً وكلمني في هؤلاء النتن لوهبتهم له، فصلى الله وسلم وبارك على رسول الوفاء، ورسول الخلق العظيم، في هذه المحن القاسية، وفي هذه الظروف العصيبة، تقع حادثة الإسراء، تسرية لقلب رسول الله، ثراء بالمال، ولا إغراء بالملك، ولا إغراء بالسيادة، كما لم يرهبه في سبيلها تهديد، ولا وعيد، فكانت

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها، البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

حادثة الإسراء هي النوط الإلهي الذي علقته السماء بصدر رسول الله ﷺ، وكانت هي حفلة تكريم الذي قدم لهذا الرسول العظيم في مكة قبل أن يهاجر إلى المدينة، كانت إرهاصاً من الله ﷻ، بأن هذا الدين الجديد سوف لا يبقى حديثاً بمكة يضيق عليه كفارها الخناق، بل إنه سيمتد ويمتد، سيمتد إلى المدينة أولاً، ثم يخرج منها فاتحاً ظافراً، يملأ الدنيا كلها عدلاً ونوراً، بعد أن ملئت ظلماً وجوراً، كانت هذه الحادثة ربطاً من الله لرسالات السماء، فقد كانت هناك بالشام رسالات الرسل من بني إسرائيل، أبناء يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فالشام هي معزل الأنبياء، ومهبط الرسالة عليهم، فأراد الله أن يجمع هذه النبوة الجديدة إلى تلك النبوات القديمة، وأن تلتقي بها في مهدها الأول، إشارة إلى وحدة دين الله، وأنه دين واحد للأولين والآخرين، ليس فيه فرقة ولا اختلاف، فدعوة نوح هي بعينها دعوة هود، هي بعينها دعوة صالح أخي ثمود، هي بعينها دعوة إبراهيم، ثم صارت كلمة التوحيد في عقب إبراهيم حتى انتهت في مسراها إلى نبينا ﷺ، فتلقاها كأحسن ما يكون التلقي، وقام بها كأحسن ما يكون القيام، فأراد الله أن يريه دار الرسالات، ومهبط النبوات، وأن يبشره بأن دينه سيحل هذه الأرض، وستصير ولايات إسلامية، يحكمها الخليفة المسلم الذي يقيم بالمدينة المنورة، هكذا أراد الله أن يجمع الرسالات كلها في تلك الليلة، ليخبر ويعلن أن الدين عند الله الإسلام، وأنه الدين الواحد الذي بعثت به كل الرسل عليهم الصلاة والسلام، ماذا كان من شأن

تلك الرحلة؟ لقد تحدث القرآن كما قلنا عن الرحلة الأرضية، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهنا يصف بعض الناس ولا يريد أن يزيد على ما قال القرآن، هو يريد أن ينكر خبر الرحلة السماوية، فلا يعترف ولا يقر بأنه صلوات الله وسلامه عليه في تلك الليلة عرج به إلى السماوات العلا، حتى وصل إلى مستوً سمع فيه صريف الأقلام، لا بل الرحلة السماوية كالرحلة الأرضية، كلاهما حق، وكلاهما واقع، ومن ينكر ويجحد الرحلة السماوية فقد جحد الأخبار المتواترة التي امتلأت بها دواوين السنة، والتي رويت عن أكثر من عشرين صحابياً، فأحاديث المعراج لا تحصى كثرة، وقد اتفقت فيما بينها على أشياء، ولم يقع بينها إلا يسير خلاف في الألفاظ، أو زيادة في بعض الروايات، ونقص في البعض الآخر، وما كان هذا ليضير هذه الروايات، ولا ليحملنا إلى إنكارها وجحدها، بل نحن نصدق، ونؤمن بالمعراج الذي تواتر الخبر به، والذي تشير إليه آيات النجم، إذ يقول الله ﷻ فيها بصريح العبارة: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ماذا يقولون الجاحدون؟ ماذا يقول المكابرون؟ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ أي رأى محمد جبريل عليهما السلام، ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ في صورته الملكية، ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ

الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾«النجم:١٧» هذه الآية الكريمة تريد أن ترد على من يقول: إنه رآه لكن رآه رؤيا منام، أو رؤيا روح، فقال الله ﷻ رداً ودفعاً لمن ينكر أن محمداً ﷺ رأى جبريل عند سدرة المنتهى ببصره، لا رؤيا منام ولا رؤيا بالروح، يقول: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾«النجم:١٨» ، ومع ذلك فنحن نرى أن هذه الآيات صريحة كصريح الإسراء، كما صرحت آية الإسراء بالإسراء، فقد صرحت هذه الآيات بالمعراج، ثم الأحاديث التي لا تحصى كثرة عن نسب المعراج له ﷺ وصعوده عليه، وهي أحاديث متفق عليها في دواوين السنة كلها، وبحسبها من القوة أن يرويها الشيخان، اللذان اتفقت الأمة على قبول روايتهما، حتى قال بعض المحدثين: إن ما اتفق عليه الشيخان يفيد القطع كالقرآن، ولا يجوز أبداً رد حديث ورد في الشيخين، واتفقت عليه روايتهما، بل يجب أخذه بالقبول والتسليم، فكيف، وهي ليست رواية واحدة في كل منهما؟ بل هي روايات وروايات، غير ما يوجد في دواوين السنة، من مسند أحمد، أو أبي يعلى، أو أبي داود، أو الترمذي، أو غيرها من كتب السنة، فهو أمر اتفقت عليه الأمة، وأجمعت عليه في كل عصرن وفي كل جيلن ولم ينكره إلا ملاحدة معطلون جاحدون، لا يروق لهم إلا الإنكار، وإلا الجحد، مهما أقمت لهم من الأدلة، رحلة السماء، رحلة حقيقية، صادقة، وقعت في نفس الليلة التي حدثت فيها واقعة الإسراء، فقد جاء في نفس أحاديث الإسراء، أنه ﷺ لما وصل إلى

بيت المقدس، نزل وربط جبريل دابة في الحلقة، ودخل هو ورسول الله ﷺ، فصليا جميعاً ركعتين تحية المسجد، ثم خرجا وعند الباب قدم لرسول الله ﷺ إناءين، إناء من لبن، وإناء من خمر، وقيل: من عسل، وقيل: من ماء، فاختار اللبن، فقال له جبريل: (أصبت الفطرة) أو (هديت للفطرة) ثم قال: «فنصب لي المعراج» بعد هذا مباشرة، بعدما خرج من باب المسجد، نصب له المعراج الذي هو سلم ذو الدرج، فرقا عليه هو وجبريل عليهما السلام، حتى بلغا أسباب السماء الدنيا، فاستفتح جبريل فقال له خزانها: من؟ قال: (جبريل) قيل: ومن معك؟ قال: (محمد) قالوا: أوقد بعث؟ أوقد أرسل إليه؟ قال: (نعم) قال: فأهلاً به ومرحباً، ولنعم المجيء جاء، يستبشر به أهل السماء، وليعلمون ما أراد الله به لأهل الأرض، ثم يرى في السماء الأولى أباه آدم عليه السلام، فيقول له جبريل: (اذهب إلى أبيك آدم فسلم عليه) فيسلم عليه، فيرد عليه آدم ويقول: (أهلاً ومرحباً، بالابن الصالح، والنبي الصالح) ثم يجاوز آدم إلى السماء الثانية، فيستفتح جبريل، فيلقى فيها ابني الخالة عيسى ويحيى عليهما السلام، فيرحبان به، ويدعوان له بخير، ثم يرقى إلى الثالثة، فيجد فيها يوسف بن يعقوب، وقد أعطي شطر الحسن، ثم يرقى إلى الرابعة، فيجد فيها إدريس عليه السلام، فيسلم عليه، فيرحب به إدريس ويدعو له بخير، ثم يلقى في الخامسة هارون، ذلك الرجل المحبب في قومه، ثم يلقى في السادسة، موسى كليم الله، ثم يلقى في السابعة، إبراهيم خليل الرحمن، ثم يصل إلى سدرة

المنتهى، ويقول صلوات الله وسلامه عليه في وصفها: «لقد غشيها من أمر الله ما غشيها، فتغيرت فلم يستطع أحد أن يصفها من حسنها» ويقول: «إن أوراقها كآذان الفيلة، وإن ثمارها كقلال هجر» ثم يصعد فوق السدرة، وهذا مقام ما علاه أحد من الخلق، حتى ولا جبريل ملك الوحي، لا يستطيع أن يجاوز السدرة، ولكن ضيف الليلة ذلك الضيف الكريم على ربه، أذن له أن يدنو ويدنو، ويقرب، ويقرب فتجاوز السدرة، حتى وصل إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام، وغشيته سحابة فيها من كل لون وكان من ربه، ﴿قاب قوسين أو أدنى﴾ وحينئذ سمع نداء الرب جل شأنه، يقول له من فوقه: «يا محمد إني منذ خلقت السماوات والأرض، فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة كل يوم وليلة» وهنا انقشعت عنه السحابة، يعني انتهت المقابلة الملكية، بس دعاه سبحانه ليقول له هذه الكلمات ليقربه ويدنيه، هذا الإدناء، وهذا التقريب الذي لم يكن لأحد من الخلق سواه، ثم ليفرض عليه الصلاة، «إني منذ خلقت السماوات والأرض، فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة كل يوم وليلة» فيرجع رسول الله ﷺ حيث كان ينتظره جبريل، فيهبط به جبريل، فيمران على إبراهيم فلا يقول له شيئاً، ثم يمران على موسى ابن عمران، فيستوقفه ويقول له: يا محمد ماذا عهد إليك ربك، وإلى أمتك؟ يا لها من نصيحة، تحمل معاني الإشفاق، من أخٍ إلى أخيه، من موسى إلى محمد، وهما أخوان في الرسالة، لم يشأ موسى أن يترك محمداً ﷺ يمر دون أن ينصح له، لعل

موسى كان قد سمع هذا العهد من الله إلى محمد وهو في مكانه، فقال في نفسه: إذا رجع محمد أو مر بي فلا بد أن أستوقفه لأنصح له كي يرجع إلى ربه فيسأله التخفيف، فلما قال له: «خمسين صلاة كل يوم وليلة» قال: (يا محمد ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف عن أمتك، فإن أمتك أضعف الأمم، أبداناً، وقلوباً، وأسماعاً، وأبصاراً، وأقصرها أعماراً، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف) فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل عليه السلام كأنه يستشيره في الرجوع والعودة)، لأن ذا مقام لا يعرفه رسول الله ﷺ، ملك البروتوكول الإلهي جبريل هو الذي يعرف إن كان يجوز، إن كان يسوغ في اللقاء الإلهي أن يعود محمد لمقابلة ربه أذن له في ذلك، ولهذا لما نظر رسول الله إلى جبريل يستشيره قال له: (نعم، إن شئت) فصعد مرة أخرى، وفي نفس المكان الذي غشيته الضبابة قال: «يا رب حط عن أمتي، فإن أمتي ضعيفة لا تطيق ذلك» فحط الرءوف الرحيم، واستجاب لنداء عبده، وحط عنا خمساً، أو قال عشراً، على خلاف الروايات، وهو كذلك خلاف هين وخلاف يسير، من الروايات روايات تقول: «إنه حط عنه خمساً فخمساً، فخمساً، حتى صارت خمس صلوات» ومنها ما يقول: «إنه حط عنه عشراً فعشراً »ثم في النهاية خمسة وبقيت خمسة، على كل حال الخلاف يسير، المهم أن مراجعة نبينا ﷺ لربه ثابتة في كل الروايات الصحيحة، يعني هي التي اتفق عليها بين الروايات، بين الروايات اختلاف في بعض الأمور، ولكن لم تختلف الروايات أبداً في هذه المراجعة، وأن موسى هو الذي أشار على رسول

الله ﷺ بتلك المراجعة، وأن الله ﷻ ظل يحط عن عبده حتى بقيت خمس صلوات، فقال له في آخر مرة: «يا محمد هي خمس، عليك وعلى أمتك، وكل حسنة بعشر أمثالها، فهي عندي خمسون، ما يبدل القول لدي، وما أنا بظلام للعبيد» وزاده على ذلك «أن من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة، فإن عملها كتبت له عشر حسنات، إلى سبعين ضعفاً، إلى سبعمائة، إلى ما شاء الله، وأن من هم منهم بسيئة فلم يعملها» أي تركها لله «كتب له حسنة، فإن عملها كتبت له سيئة واحدة»[1]، هذا هو حديث الإسراء والمعراج لماذا ننكره؟! لماذا يلج هؤلاء المنكرون؟! لماذا يمعنون في السفاهة وفي الغي؟! لماذا ينكرون المعراج؟! وهل في المعراج إنكار بعدما أخبر عنه الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه، وبعد ما حمل عنه هذه الروايات كلها صحابته الأمناء الثقات الجديرون بكل ثقة؟! ثم حمل ذلك عنهم التابعون الذين رضي الله عنهم، ثم حمل ذلك أئمة هذه الأمة، وسلفها الصالح، يكذبوا من في هؤلاء؟ أنا أريد أن أعرف من يكذب في هذه الروايات؟ نكذب أحمد؟ نكذب الثوري؟ نكذب

---

(١) أصل الحديث في الصحيحين، وقد رواه البخاري مختصراً حتى قوله: (أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك)، البخاري (٣٤٣٧)، ورواه مسلم ببعض الزيادات برقم (١٤٦) وانظر مسند الإمام أحمد (١٩/ ٤٨٥). وللشيخ الإمام الألباني رحمه الله مصنف مستقل في تتبع هذا الحديث وإيراد طرقه سماه: (الإسراء والمعراج وذكر أحاديثها وتخريجها وبيان صحيحها)، وهو مطبوع.

الأوزاعي؟ نكذب ابن المبارك؟ نكذب فلان وفلان من أئمة هذه الأمة؟ وإذا ضاعت ثقتنا بهؤلاء، وهم الذين حملوا إلينا هذا الدين، وبلغوا إلينا هذه الأمانة، فنضع ثقتنا في من إذاً؟ من نصدق بعد هؤلاء، إذا كان هؤلاء عندنا في موضع الاتهام؟ فمن نصدق بعد هؤلاء الكرام؟ من نصدق؟ فيا قوم اتقوا الله في دينكم، اتقوا الله ولا تسمعوا لهؤلاء التافهين، إنهم بين أمرين: إما مخدوعون مضللون، وإما عملاء مأجورون، فلا نصدقهم أبداً، فننفض أيدينا من أكرم فراس، وأغلى كنز وضعه الله بين أيدينا، وهو كنز السنة المطهرة، التي تضيء لنا الطريق، في هذه الظلمات التي تغشانا بين الحين والحين، إنها هي التي تبصرنا الطريق، وتهدينا السبيل، كيف نعيش بلا سنة؟ كيف نعيش بلا حياة؟ إن السنة هي الحياة، فكيف نعيش بلا حياة؟ كيف نعيش هملاً؟ كيف نعيش بدون أدب؟ نأخذه من نبينا ﷺ، هل رأيتم في الدنيا أحداً ينزل عليه كتاب ثم يسكت عن بيان هذا الكتاب وهو مأمور بالبيان؟ يعني كانت مهمته صلوات الله وسلامه عليه أن يقرأ القرآن وفقط، كما يقرأه فلان وفلان؟ هل كان قارئاً فقط، أم كان مطبقاً وكان مبيناً؟ إذا كان المهمة القراءة، كل واحد يقدر يقرأ، كانت مهمته فقط يقول: تعالوا أقرأ عليكم سورة الجاثية؟ سبحان الله! كيف نقطع الصلة بيننا وبين هذا النور فنعيش في الظلام؟ كيف نقطع السنة من القرآن وقد وصل الله بينهما؟ هؤلاء الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، السنة والقرآن توأمان، أمر الله أن يوصل القرآن بالسنة، وأن يفهم الكتاب بالسنة، فمن قطع

القرآن عن السنة فقد ضل ضلالاً بعيداً، وكل الطوائف التي اعتمدت في دينها على القرآن فقط، وقطعت الحبل الذي ربط القرآن بالسنة ضلت ضلالاً بعيداً، وهاكم الخوارج كان سبب ضلالهم هو تعويلهم على القرآن ورفضهم السنن، حتى إنهم أنكروا الرجم وهو ثابت بالتواتر والسنة الصحيحة، وأنكروا المسح على الخفين، وأنكروا كثيراً من السنن، لأنهم اعتمدوا على القرآن، فلما لم يجدوا في القرآن ما دلت عليه السنة أنكروه وكفروا به، وجاءت المعتزلة أيضاً كذلك أنكروا كثيراً من السنن، لكن كان موقفهم أخف من موقف الخوارج، لأنهم صدقوا ببعض الأحاديث وأنكروا بعض، على كل حال هناك قانون للقبول، وقانون للرفض، فلا نقبل كل شيء، ولا نرفض كل شيء، بل معنا الميزان الذي نزن به الأقوال والأخبار، فالخبر الذي يجوز القنطرة، ويرجح في الميزان، نقبله على العين والرأس، الخبر الذي يتعثر ويطيش في الميزان نرفضه ولا كرامة، هذا هو قانون العدل يا إخواني والإنصاف، ليس أرفض مباشرة كل السنن، لا هذا كلام فارغ، إذاً أنت متهور، أو أقبل مباشرة كل السنن، لا، هذه سذاجة، لأننا لا ننكر أنه قد وضعت أحاديث على رسول الله ﷺ، وهناك أحاديث ضعيفة وفي رواتها من أتهم، فلا علينا أن نعرض عن هذه الأحاديث جانباً، ونأخذ الصحيح الجلي الذي يتألق كتألق الشمس، كتألق الفجر، نأخذه على العين والرأس، وأئمتنا رضي الله عنهم قد كفونا هذه المؤونة، قد كفونا مؤونة البحث عن أحاديث فغربلوها مرة، ثم نخلوها مرة، حتى أخرجوا لنا الزبد، الزبدة

الخالصة التي لا يشك فيها أحد، وكل يوم نسمع جديداً، فنسمع لهم إنهم ينكرون العرش.

انتهت

الإسلام دين الأنبياء

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ليس معه إله غيره، أنزل الكتب، وبعث الرسل، ليكون الدين خالصاً له وحده،﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾«البينة:٥» ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، دعا إلى توحيد الله ﷻ، وإخلاص الدين له وحده، وجاهد في سبيل الله، لا يسعه الجهاد جهاد بالقلب واللسان، وجهاد بالسيف والسنان، حتى لقي الله ﷻ راضياً مرضياً، ولم يترك أمته إلا بعد أن أكمل لهم الدين، وأتم عليهم النعمة، ورضي لهم الإسلام ديناً، تركها على محجة بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك مفتون، صلى الله وسلم وبارك على عبد الله ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واستن بسنته إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن الإسلام هو دين الله للأولين والآخرين، هو الدين الذي شرعه الله على ألسنة رسله وأنبيائه، وأنزل الكتب من السماء داعية إليه، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾«آل عمران:١٩» وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه،﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾«آل عمران:٨٥» ،وجاء نبينا ﷺ مجدداً لدين الإسلام، ومحيياً

للحنيفية السمحة، التي هي ملة إبراهيم عليه السلام، ولقد كان إبراهيم مسلماً، قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾«البقرة:١٣١» ، ولقد كان نوح قبله مسلماً، قال نوح لقومه: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾«يونس٧٢:٧١» ، وكذلك كان هود أخو عاد، وكذلك كان صالح أخو ثمود، وكذلك كان أبوكم آدم أبو البشر عليه السلام كان هو وبنوه على الإسلام، ومكثت الدنيا بعد آدم عشرة قرون، كلها على التوحيد، وعلى دين الإسلام، قبل أن يحدث الشرك في قوم نوح، وكان سبب حدوث الشرك في الإنسانية، أن قوم نوح كان فيهم جماعة صالحون يعبدون الله ﷻ أحسن العبادة، فعكف قوم نوح على قبورهم ليتذكروا أعمالهم، فلما طال عليهم الأمد سول لهم الشيطان أن يتخذوا صوراً لهؤلاء الصالحين، فصوروهم، وعظموا هذه الصور، وجاء الشيطان إليهم، فقال لهم: إن آباءكم كانوا يستشفعون بهذه الصور إلى الله، ويستسقون بها المطر فعبدوها من دون الله، وهذه أصنام قوم نوح، الذي نهى نوح قومه عن عبادتها، وأمرهم أن يخلصوا العبادة لله، ولكنهم تواصوا على الكفر، ولكنهم تآمروا على

التوحيد، ولكنهم نبذوا دعوة نوح عليه السلام، وقال كبراءهم للسفهاء﴿لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾«نوح:٢٣» ، وكان أولاد إبراهيم على الإسلام، إسحاق، ومن بعده يعقوب، ثم أولاد يعقوب، ثم بقيت كلمة الإسلام في بني إسرائيل يتوارثها الأنبياء، ويدعوا إليها العلماء، حتى انقضت النبوة في بني إسرائيل، وانتقلت إلى العرب من أولاد إسماعيل، فتلقفها نبينا ﷺ، تلقف كلمة التوحيد وقام بها بما لم يقم به أحد قبله، فكان أكمل الناس توحيداً، وأكملهم دعوة إلى التوحيد، وأكملهم عبادة لله، وإخلاصاً لله ﷻ، يقول الله ﷻ في شأن إبراهيم:﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾«العنكبوت١٧:١٦» ،﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾«الزخرف٢٨:٢٧» .

إن الإسلام الذي بعث به محمد ﷺ، الذي هو خاتم الأديان، وتمامها، وكمالها، إنما يقوم على أصلين لا ثالث لهما، إذ هو يقوم على أصلين، لا بد أن يفهمهما كل مسلم، فلا يجوز أن يماري فيهما أحد، ولا أن يكونا محلا خلاف وجدال بين المسلمين:

الأصل الأول: ألا يعبد إلا الله، هذا هو أساس دين الإسلام كله، قديمه وحديثه، فما جاءت الرسل إلا داعية إلى هذه الدعوة الكريمة، أن يخص الله وحده بكل ما هو عبادة، وبكل ما هو تعظيم وإجلال، فلا يجوز أن يعبد إلا الله، ولا أن يخاف ويرجا إلا الله، ولا أن يستعان إلا بالله، وألا يتوكل إلا على الله، وألا يدعى ويسأل في الحاجات كلها إلا الله، وألا يرغب ويرهب، الرغبة كلها والرهبة كلها إلا الله، وألا يتقى إلا عذابه، وألا يرجى رحمته وثوابه، وأن تشكر نعمه، وأن يصبر على قضائه، وأن تكون أعمال الجوارح، وأقوال اللسان كلها خالصة لله، وملهية بذكره، ونثني عليه الثناء كله، ولا نبدأ عملاً إلا باسماً، ولا نستغيث بمخلوق، وإنما نستغيث به وحده، وألا نعوذ بمخلوق، وإنما نعوذ به وحده، وألا ننذر إلا له، وألا نذبح إلا له، وألا نحلف إلا باسمه، فالعبادات كلها هي حقه، التي لا ينبغي أن يعطى لغيره، فإن عبادة الله هي أعدل العدل، وإن عبادة غيره هي أظلم الظلم، يقول الله تبارك: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾«الأنعام:٨٢» ، ويقول سبحانه خبراً عن لقمان عليه السلام وهو يعظ ولده يقول له: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾«لقمان:١٣» ، ومن الظلم أن يخلقك الله ويصورك في بطن أمك، ويجري عليك غذائك، ويخرجك طفلاً، ثم يسبغ عليك نعمه، ومع ذلك تجعل له نداً، وتجعل له من خلقه شريكاً، تتوجه إليه كما تتوجه إلى الله، وتخافه كما تخاف الله، بل أكثر مما تخاف الله، وترجوه كما ترجو الله، وتحبه كما

تحب الله، إن كل مدعو من دون الله فإنما يدعى بغير حق، وهو معبود باطل لا يستحق من العبادة شيئاً، ولا يملك لعابديه نفعاً، ولا ضراً، ولا هدى، ولا رشاداً، ولا يملك أن يجلب لهم خيراً، ولا أن يدفع عنهم شراً، ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾«يونس:١٠٦»، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾«الأعراف:١٨٨»، ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾«الأنعام:٥٠»، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾«الكهف:١١٠» لقد كان نبينا ﷺ أعلم الناس بالله، وكان أخوف الناس إلى الله، وكان أكثرهم محاسبة لنفسه، وكان أكثرهم عبادة وخشوعاً لربه، لم يقبل من أصحابه حتى أن يقوموا له، إذا أقبل عليهم وكان ينهاهم عن ذلك، ويقول: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يعظم بعضهم بعضاً»[١] وقال: «من عظم غنياً لغناه، لقد ذهب ثلث دينه»[٢]، وجاء رجل من أهل المعصية، فقال له رسول الله ﷺ: «ألا تتوب يا غلام» فرفع الرجل يديه وقال: اللهم إني أتوب

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٥٢٣٠) والحديث ضعفه الشيخ الألباني.

(٢) لم أقف عليه.

إليك، ولا أتوب إلى محمد، فضحك النبي ﷺ وقال: «عرف الحق لأهله»[1]، وقال جماعة من الصحابة فيهم أبو بكر: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله ﷻ»[2]، ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ كلكم ﴿أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ «فاطر١٧:١٦» ، إن من أصول الإسلام ألا يدعى إلا الله، ألا يطلب من مخلوق ما لا يقدر عليه إلا الله، ولا يجوز أن تسأل أحداً أن يغفر لك ذنبك، لأن مغفرة الذنوب هي من حق الله وحده، ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ «آل عمران:١٣٥» ، لا يجوز أن تطلب من أحد أن يزيل كربك، فإن الذي يزيل الكروب هو الله، لا يجوز أن تطلب من أحد أن يشفي مرضك، فإن الذي يشفي ويبرئ من كل العلل والأمراض هو الله، لا يجوز أن تطلب من أحد غنىً، ولا هدىً، ولا شفاءً، فكل ذلك من فضل الله، اسمع إلى

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٥)، والحاكم (٤/ ٢٥٥)، والطبراني في "الكبير" (١/ ٤٢/ ٢) والحديث ضعفه الشيخ الألباني في الضعيفة (٨/ ٣٢٣).

(٢)أخرجه أحمد في "مسنده" (٥ / ٣١٧ / ٢٢٧٥٨)، يقول الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف لضعف عبد الله بن لهيعة.

إبراهيم وهو يقول لقومه، عندما سألهم ماذا تعبدون؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾«الشعراء:٧٨» من خلقك هو الذي يهديك، هو الذي يملك أن يهديك، لا الذي لم يخلق فيك شعرة، فكيف يملك لك هدىً؟ والله يقول لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾«القصص:٥٦» ، ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾«الشعراء:٨١» من يملك لك حياةً أو موتاً من دون الله؟ بل هو الذي بيده سر الموت، وسر الحياة، هو ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾«الملك:٢» ، ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾«الشعراء:٨٢» فسل الله في كل شيء، سل الله حتى شسع نعلك، وملح [طعامك][1] ولا تستعن من دون الله أحداً، فإن الله لا يغضب إن سئل، ولا يمل إن سئل، ولكن غيره إذا كررت عليه السؤال، وإذا ألححت عليه بالسؤال غضب منك، وملَّك، وسئمك وربما

---

(١) كلمة غير واضحة.

شتمك، فكيف تدعو مخلوقاً مثلك لا يملك [ضراً ولا نفعاً][١] ؟! فهو مثلك يحتاج إلى رحمة الله، يحتاج إلى فضل الله، من بيده الفضل كله؟ ذاك الذي خزائنه لا تنفذ، وسل من يمينه ملئى لا تغيض من النفقة، سحاء الليل والنهار، تعرض أنت لله بالسؤال، وعلى قدر إخلاصك في الدعاء، يكون قربك من الإجابة، لأن الله ضمن الإجابة لكل من دعاه مخلصاً له في الدعاء، وقال عز من قائل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾«البقرة:١٨٦» ، وقال ربكم: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾«غافر:٦٠» لم يقل الله: ادعوني بفلان، ولا فلان، إنما قال: ﴿ادعوني﴾أنا وحدي، ولا تدعو معي غيرين ولا توسطوا بينكم وبيني واسطة في الدعاء، فالدعاء عبادة، يجب أن تكون خالصة لله وحده، أما الذي يدعى من دون الله، أما الذي يسأل من دون الله، فإنه عاجز ضعيف، لا يملك لسائله ولا لداعيه مثقال ذرة من خير، ولا يملك أن يكشف عنه مثقال ذرة من كرب، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلًا﴾«الإسراء:٥٦» ، ويقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾«النحل٢١:٢٠».

---

(١) كلمة غير واضحة في أصل المادة، فأثبتناها بما ترى.

القضية الأساسية في الإسلام إلهكم إله واحد، من [يستطيع أن][1] ينكر هذه القضية؟! [لا ينكرها إلا][2] صنف واحد فقط ﴿الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾«النحل٢٣:٢٢» كل من لا يؤمن بوعد الآخرة، كل من لا يقدر الله حق قدره، كل من لا يعرف حق الله عليه، فهو الذي يماري وينازع في قضية التوحيد، ويجرح كبرياء التوحيد، ويخدش جوهرة التوحيد.

لقد كان رسولكم ﷺ يحوط التوحيد بسياج متين، فكان ينهى أن يقع عن كل ما يشوب جوهرة التوحيد، فكان ينهى عن كل وسائل الشرك، انظر كيف يقول صلوات الله وسلامه عليه في حق نفسه: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، وإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»[3]، ويدخل عليه رجل، فتأخذه الرهبة من هيبته فيقول له: «يا أخي هون عليك فإنما أنا امرأة كانت تأكل القديد بمكة»[4] ويقول لأصحابه مفاخراً: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم» فقالوا له: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط

---

(١) كلمة غير مفهومة وهذه زيادة يقتضيها السياق.

(٢)كلمة غير مفهومة وهذه زيادة يقتضيها السياق.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٤٤٥).

(٤) أخرجه ابن ماجة في سننه (٣٣١٢) والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح سنن ابن ماجة.

لأهل مكة»[١] أي ملاليم لأهل مكة، فالنبي يخبر عن نفسه أنه رعى الغنم، وأنه عبد لله، ونهى أيضاً عن الغلو فيه، وأن يطروه كما أطرت النصارى ابن مريم، وأمرهم أن يضعوه في منزلته التي وضعه الله فيها، أنه بشر، وأنه خير البشر، وسيد ولد آدم يوم القيامة، حين يقوم الناس لرب العالمين، وحين يلجم الناس العرق وتأخذهم الشدة فيلهمون للاستشفاع بالأنبياء، فكل نبي يحيل على من بعده، حتى تأتي النوبة إليه ﷺ، فيقول: «أنا لها، أنا لها»[٢] أنا والمقام المحمود الذي وعده ربه في قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ «الإسراء:٧٩».

أيها الأخوة هذا الأصل الأول من أصول الإسلام، هل حافظنا عليه أم ضيعناه؟ الآن الأصل الذي هو أساس ديننا، وجوهر إيماننا، فهو أقوى صلة بيننا وبين ربنا، قد ضيعناه وأهملناه، أين هو توحيد من يقف أمام غير الله، خاشعاً ذليلاً منكسراً؟ أين هو توحيد من يسأل الموتى، ويطلب منهم، ويحيل عليهم، ويرجوهم ويخافهم؟ أين هو توحيده؟ أين هو توحيد من يطوفون بالأضرحة، ويقبلون الأعتاب، أين هذا التوحيد، عند هذه الأمم من الصوفية الذين يخضعون لمشايخهم، ويمتثلون أمرهم، ويعملون لمعصية الله، تقرباً إلى

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة برقم (٢٢٦٢).

(٢) جزء من حديث الشفاعة، وهو متفق عليه من حديث أبي هريرة، البخاري (٣٣٤٠)، مسلم (١٩٤).

غير الله، و إرضاءً لأهواء هؤلاء، أين هو التوحيد، التوحيد الذي هو أصل الدين، وأساس الدين، أين هو الآن؟ لقد أراقوا دمه، لقد ذبحوه في أضرحة الأولياء، ذبح التوحيد اذهبوا وابحثوا عن التوحيد، كبروا على التوحيد، كم من جنازة على التوحيد؟ اذهبوا وانظروا ماذا يفعل الناس في هذه الأضرحة التي يسمونها المقامات، انظروا كيف ينادون الموتى، ويدعونها من دون الله؟ انظروا كيف يطلبون منهم ما لا يطلب إلا من الله، وبعد ذلك نقول: إننا مسلمين، مسلمين قد أضعنا أصل الإسلام، وأساس الإسلام، وهو توحيد الله ﷻ.

الأصل الثاني من أصول هذا الدين بعد التوحيد: ألا يعبد الله إلا بما شرع الله، وكل عبادة لم يشرعها الله، ولا رسوله، فهي بدعة ضلالة، محدثة في الدين، لا يقبلها الله ويردها على صاحبها، يقول صلوات الله وسلامه عليه فيما روته عائشة أم المؤمنين: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[1] أي مردود عليه، بل إن البدعة تحبط العمل، فلا يقبل الله من صاحب بدعة عملاً أبداً، حتى يتوب عن بدعته، البدعة والرياء كلاهما محبط للأعمال، الرياء إذا رأيت في عملك، وأردت بعملك حظ نفسك، وأردت بعملك أن ترائي الناس، ويراك الناس عاملاً، حبط عملك، فالرياء محبط، والبدعة محبطة، كلاهما محبط للعمل، فاخش على عملك، حاذر أن تقع في واحدة منهما، الرياء والبدعة، فإذا عملت

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها، البخاري (٢٦٩٧)، مسلم (١٧١٨).

عملاً فأخلص فيه لله، حتى تنجو من الرياء، ثم ليكن عملك موافقاً لما شرعه الله، موافقاً لاتباع رسول الله ﷺ، هما توحيدا، لنا يا معشر المسلمين: توحيد الله بالإخلاص، وتوحيد المتابعة لرسول الله ﷺ، فإنه هو المبلغ عن الله، وهو المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، فلا يجوز لأحد أن يعدل عن سنة رسول الله ﷺ ، ولا أن يأخذ برأي أحد، إلا بعد أن يعرضه على ما جاء به رسول الله ﷺ، فالدين كله يجب أن يؤخذ منه وحده، لئلا يلتفت إلى سير غيره، والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾«الحجرات:١» فلا يجوز لأحد أن يقول في الدين شيئاً لم يقله رسول الله، ولا أن يحكم إلا بما علم أن رسول الله قد حكم به، ومن أعرض عن حكم رسول الله، وعن اتباع سنته، ومخالفة شريعته، فهو مشاق لله ولرسوله، والله يقول: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾«النساء:١١٥» ، يجب علينا في كل عمل أن نرجع إلى سنة رسول الله، في صلاتنا، في صيامنا، في حجنا، في عمرتنا، في جهادنا، في نومنا، في يقظتنا، في أكلنا، في شربنا، في وضوءنا، في غسلنا، في كل أعمالنا يجب أن نتأسى برسول الله، وأن نعرف سنته، وأن نتبعها، فإن المخالف لسنة رسول الله ﷺ فله عند الله العذاب الشديد، ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ

يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ «النور:٦٣» وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

[ومما يدمي القلب أن ترى من يصلي][1]عند أضرحة المشايخ، الله أمرنا أن نصلي الصلاة في جماعة، وأن صلاة الجماعة كذا وكذا، وأمرنا أن نصلي الجمعة والعيدين وأن نقف جميعاً بعرفة كل المسلمين، فأي دين أمر أو شرع، هذه الاجتماعات الرخيصة المبتذلة؟! من الذي يجتمع فيها إلا الصياع والمتسكعين؟! لا يوجد أحد من أهل الفضل والشرف يحفل بالبدع أبداً، ولا يجتمع فيها إلا من لا خلاق من الشباب الفارغ، والمتعطل، وغير النسوة الآلي يقفن على أبوابهن، وغير الصبيان الذين غرتهم الألوان المتلألئة التي فيها الألوان، ثم يقومون بإطعام الطعام، وهذا طعام لم يرد به وجه الله، وكل من أطعم في مولد بنكلة فما أراد بها وجه الله، ومن أراد بها التقرب إلى صاحب الضريح، إلى صاحب القبر، فهذا لا ثواب له في طعامه، وإنما عليه الوزر، ولو كان يريد أن يطعم الطعام لوجه الله فيطعمه في بيته، أو يقدمه إلى الفقراء في بيوتهم، ولا يخرج به في الساحة، لا يأكل في الساحة إلا كل فحل قادر على العمل يتصنع حبة لأنه يأكل بالمجان، وإذا رقبته ضخمة ويظل يأكل في المولد، بدلاً من أن يعمل ويجتهد ويكسب من تعبه ومن كسب جبينه.

---

(١) يوجد انقطاع في الصوت، فأثبتنا النقص بما تراه ليناسب سياق الكلام.

وتراهم يتتبعون الموالد، الأسبوع هنا، وهذا الأسبوع هنا، وطبعاً السنة كلها بعدد أيامها لا تخلو عن مولد، ثلاثمائة وستين يوماً في السنة لليالي الصائمة في الدسوقي وفي البدوي وكذا وكذا، يعني ضامنا أن يجد عيشه وطعامه إلى آخر العام.

أما ذكرهم فإنما هو ذكر المجانين، وذكر المستهزئين لا ذكر الخاشعين ولا ذكر المتبتلين، هل يرضى الله أن نذكره على تلك الرقصات؟ على الناي وعلى صوت المنشد، في الذكر أن نتطاوح يميناً وشمالاً كالمجانين، هل هذا ذكر تطمئن به القلوب؟! هل هذا ذكر ترتاح له النفوس؟! والله يقول: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ «الرعد:٢٨».

فهذا الذكر إنما هو عربدة، إنما هو شيطنة، إنما هو من عمل الشيطان، لا من عمل الرحمن، وإلا إذا أردت أن تذكر الله، تذكر الله على كل حال، تذكر الله وأنت نائم، تذكره وأنت تمشي، تذكره وأنت في عملك، تذكره وأنت تأكل، تذكره وأنت تشرب، وذكر الله ما له وقت محدود، أو له عمل مخصوص يا عبد الله.

انظر يا أخي المسلم ليس في الإسلام لا مشاهد ولا موالد، إنما فيه مساجد تعمر بالصلوات الخمس، ويذكر فيها اسم الله، ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ «النور:٣٦» ليس في الإسلام شيء اسمه مشاهد، ولا الموالد، وإنما فيه شيء اسمه المساجد، وأنت إذا دخلت المسجد كنت في

رحمة الله وكنت في صلاة ما كنت تنتظر الصلاة، أما عند المشاهد، ما هي المشاهد؟ المشاهد يعني القبة العالية، القباب العالية التي أقاموها كناطحات السحاب فوق أضرحة المشايخ، وبعد الخطبة تأتي المقصورة الكبيرة، النحاسية، أو الخشبية، لكي يغطى بها الضريح، وبعد ذلك العمامة الكبيرة فوق الضريح، فكل هذه الأمور مخالفة للإسلام، والإسلام يبرأ من هذا ولا يقره، النبي ﷺ يقول لعلي: «اذهب فلا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته، ولا تمثالاً إلا طمسته»[1] ونهى عن رفع القبر أكثر من شبر، أو نصف ذراع، نهى عن تجصيص القبور، ونهى عن العكوف على القبور، والصلاة عند القبور، ولعن اليهود والنصارى، لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ما في شيء اسمه المشاهد، لكن الأمر لمن يعلم أين يكون دين الله، لوجب أن تهدم، لا خير فيها، بل فيها الفتنة وفيها يراق التوحيد، وفيها يخفت صوت الإسلام، أما الموالد فبدعة منكرة لا خير فيها أبداً، الميت الذي يحتفلون به أكثر المحتفلين بالموالد لا يعرفون من حال هذا الميت شيء، ولا يعرفون كيف كان يعيش؟ ولا كيف كانت أعماله؟ وهل كان صالحاً أم طالحاً؟ لا يعرف أحد منهم شيئاً.

فلا صلة بين حي وميت، اعلموا أيها الإخوة أن من مات فقد انقطع عمله، وفارقت روحه جسده، وليس في القبر إلا رمة، إلا العظام النخرة، التي لا تسمع ولا تجيب، الميت قد بطل حسه فلا يسمع من كلمه، ولا يرى من

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٦٩٦).

دخل عليه، الميت لا يملك لك شفاعة ولا دعاء، لأنه لا يشعر بك، ولا يعلم أنك دخلت عليه، ولا أنك تكلمه، إنما الميت قطعة جماد بعد موته، أصبح كقطعة الخشب، إنما روحه عند الله، مودعة في مستقرها، فإما في روح وريحان وجنة نعيم، وإما في عذاب أليم، فكيف نكلم من لا يسمعنا، فكيف ندعو من لا يجيبنا؟ وكيف ندعو من لا يشعر بنا يا عباد الله؟ اتقوا الله وافهموا دينكم، افهموا أصول دينكم على وجهها الصحيح، وتمسكوا بها، وإياكم وهؤلاء المشعوذون، الذين يصرفونكم عن دينكم الحق، فلا يصدونكم عن سبيل الله، ويبغونكم عوجاً، اللهم اغفر للمؤمنين وللمؤمنات، اللهم لا تدع لنا ذنباً إلا غفرته، ولا عيباً إلا سترته.

الأسماء والصفات

-المحاضرة الأولى-

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعبد الله ورسوله، وعلى آله وصحبه أجمعين.

كلنا يعلم أن هذه الدار دار حملت لواء السلفية، منذ تأسست على يد مؤسسها الأول الشيخ محمد حامد الفقي -غفر الله له ورحمه-، وظلت هذه الدار أمينة على هذه الدعوة، وظلت تدفع عنها، وتدافع بكل ما أوتيت من قوة، عن منهج هدي سلف هذه الأمة وعقيدتها، وهو الأمر الذي تميزت به هذه الجماعة عن غيرها من الجماعات التي تنتسب إلى الدين في هذه البلاد، فهناك جماعات كثيرة قامت على أساس ديني إن صح أن يقال ذلك، لكن هذه الجماعات جميعاً إنما تقوم على عقائد بدعية، وإن كانت العمليات تتظاهر بالتمسك بالسنة، ولكن العقيدة التي هي الأساس، بعيدة كل البعد عن منهج القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وما كان عليه سلف هذه الأمة رضي الله عنهم، فلنا أن نعتز دائماً بأننا روادها، وأن نعتز دائماً بأن دعوة هي دعوة السماء، لم تخلط بما يشوبها من هوىً رديء، ولا من بدع دخيلة، بل إنها الدعوة الأولى التي قام بها الداعي الأول صلوات الله وسلامه عليه، فلم تزغ بها الأهواء، ولم تنحرف لا يمينا، ولا يساراً، كما انحرف كثير من الناس، ولنا أن نعتز بذلك، وأن نحمد الله على هذه النعمة، التي خصنا بها، وأن نقوم لله سبحانه بشكرها، وشكر هذه

النعمة لا يكون بأن نقول فقط الحمد لله، ولكن بأن نحمل ما عندنا من حق وفير لكل الناس، وأن نعلمه، وننشره، وندعو إليه، فهذا هو الوفاء في الدعوة، فالدعوة أمانة في أعناقنا جميعاً، فيجب أن نحفظ هذه الأمانة التي استودعها الله ﷻ إياها، وأن نخلص لها، وأن نكون جميعاً جند هذه الدعوة المباركة الطيبة.

عقيدة السالف الصالح رضي الله عنهم هي عقيدة أهل السنة، فهي تميز السلف عن غيرهم في عقائدهم أنهم لم يأخذوا الدين برأي فلان، ولا بمذهب فلان، ولم يستفتوا فيها غير القرآن، وغير ما صح عن رسول الله ﷺ، فحين أقول: مذهب السلف، أو عقيدة السلف، فلا يعني أن السلف اخترعوا مذهباً، أو ابتدعوا عقيدة، كما اخترع غيرهم، أو كما ابتدع غيرهم، لا، إذا قلنا: مذهب السلف، أو عقيدة السلف، فهذا يساوي تماماً قولك عقيدة القرآن، أو مذهب القرآن، لأن السلف كما قلت لكم: لم يشذوا فيه شعرة عن مدار القرآن الكريم، ولا عما وردت في السنة الصحيحة.

علام تقوم عقيدة السلف في أسماء الله وصفاته؟

ولو أن هذا الكلام إذا قلناه يعتبر معاداً مكروراً، لأنه كما قلت لكم هذه الدعوة، هذه الدار من أكثر من ربع قرن وهي تردد هذه الأسس، التي هي أسس دعوتها، والتي قام عليها بناؤها، لكن لا يعدم التكرار من فائدة، ربما كان بيننا غريب يريد أن يعرف ما عقيدة هذه الجماعة؟ ما الأسس التي بنو عليها

دعوتهم؟ فلا بد أن نعرف الناس دائماً، ولا نمل من التكرار ولا من تعريف الناس بدعوتنا الحقة، السلف.

بعض الناس يقول: أنتم تبتدعون، لأن السلف ما تكلموا عن أقسام التوحيد، ولا قسموا التوحيد إلى توحيد ربوبية، وتوحيد إلهية، وتوحيد أسماء وصفات، إنما أول من فعل ذلك هما الشيخان الجليلان ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى، فأنتم تكذبون على هذا المنهج لكن هذا ليس منهج السلف، ولكن هؤلاء غفلوا عن شيء بسيط، وأن القرآن بين أيديهم، لو استقرأت آيات القرآن التي وردت في الشئون الإلهية، أو في معاني التوحيد فلا يمكن أن تخرج عن واحد من هذه الثلاث، إذا استقصيت وأحصيت آيات القرآن الكريم فإما أن تكون في الإخبار عن الربوبية، أو عن توحيد الربوبية، وإما أن تكون دعوة إلى توحيد الإلهية، وإما أن تكون إخباراً عن أسماء الله وصفاته، فما وجدنا فيها قسم رابعاً أبداً، يعني الله تبارك وتعالى يحدثنا عن نفسه كثيراً في القرآن، بأنه الرب المنفرد بكل شئون الربوبية، من خلق، ورزق، وملك ، وتدبير، وأن الأشياء كلها تقع في مشيئته، وأنه لا منازع له في سلطانه، وأن بيده وحده النفع والضر، والإعطاء والمنع، و الإشقاء والإسعاد، والإعزاز والإذلال، والإحياء والإماتة، والخفض والرفع، وأنه رقيب علينا، وحفيظ، يكلؤنا بالليل والنهار، وأنه بنا رءوف رحيم، وأنه مدبر لجميع خلقه، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما

تعدون، هذه هي الربوبية، هذا كله داخل في توحيد الربوبية، فحين يشير القرآن بأن الله خالق كل شيء، وأنه مالك كل شيء، وأنه الرزاق ذو القوة المتين، كلها داخلة في معنى الربوبية، لأن الرب معناه المالك، الخالق، الرازق، الحافظ، المدبر، فكل هذه داخلة في معنى الربوبية، فالله هو المنفرد بذلك بمعنى لا رب غيره، ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾[يونس:٣١] ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[المؤمنون:٨٦] ، ﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[المؤمنون:٨٤]، ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[المؤمنون:٨٨] ، كل هذه آيات، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٢] ونصوص القرآن العظيم آيات الربوبية كحجج لإثبات توحيد الإلهية، يعني توحيد الربوبية في القرآن لم يذكر من أجل الدعوة إلى الإيمان به، وإلا فالناس يؤمنون بتوحيد الربوبية، حتى المشركين مقرون بهذا النوع من التوحيد، لله تبارك وتعالى، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[العنكبوت:٦١] ، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ

اللَّهُ﴾[العنكبوت:٦٣] فالمشركون مقرون وشهدوا بتوحيد الربوبية، بمعنى أن الله وحده هو المنفرد بالخلق، والرزق، والنفع، والضر، وأنه مالك لكل شيء، فالقرآن لا يذكر هذا النوع من التوحيد من أجل أن يدعو الناس إلى الإيمان به، لأنه أمر مفروغ منه، وكل الفطر تقر وتشهد بهذا النوع من التوحيد، لكن القرآن يجعله دليلاً على توحيد الإلهية، يعني يأتي للعرب الذين يقرون بأن الله خالق كل شيء، ثم يسوون بين الله الخالق وبين آلهتهم المخلوقة، التي يعلمون هم أنها لم تخلق شيئاً فيقول لهم: أين عقولكم؟ أين غابت عنكم العقول حين سويتم بين الخالق الذي انفرد وحده بخلق كل شيء وبين هذه الآلهة المخلوقة التي لم تخلق نفسها فضلا على أن تخلق غيرها؟ فيحيلهم على هذا وينكره عليهم، فيضرب القرآن مثلاً ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[الرعد:١٦] ، ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:١٧] ، ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾[لقمان:١١] ، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[الأحقاف:٤] ، ثم يجعل كذلك انفراده سبحانه بالآلاء، والنعم، دليلاً على استحقاقه وحده للإلهية، والعبادة، فيسوق النعم، يسوق القرآن النعم ظاهرة وباطنة، ثم يتساءل من المنعم بهذه النعم؟ وإذا كان الله هو المنفرد بالإنعام، وهو المعطي لهذه النعم

كلها، وهو المحسن بها، فكيف نجعل له نداً، لم يعطنا شيئاً، ولم ينفعنا بشيء، ولا يستطيع لنا جلب نفع، ولا دفع ضر؟ إبراهيم عليه السلام يقول لقومه كلمتين اثنتين: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت:١٦] يعني إن كنتم ناس تفهمون، ولكم عقول تفهم، فلا بد أن تفعلوا هذا، أن تفردوه وحده سبحانه بالعبادة، وأن تتقوه حق تقاته، لماذا يا إبراهيم أمرت الناس بهذا ﴿اعبدوا الله واتقوه﴾؟ قال: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾أنا أدعوكم إلى عبادة الله وحده، لأنه هو ما يقتضيه العقل السليم، وهو ما يقتضيه الحق والإنصاف، إن كنتم منصفين لأن آلهتكم هذه إنما هي إفك أفكتموه، إنما هي أسماء سميتموها، ولا حقيقة لها في الواقع، إنما هي أوهام، إنما هي خيالات تخيلتموها، بل هي جبت، أين هي؟ هل تسمعكم إذا دعوتموها؟ هل تجلب لكم نفعاً أو ضراً؟ أبداً، ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ ولماذا يا إبراهيم لا نعبدها؟ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾هل يقدر إله من هؤلاء ينزل لكم قطرة من السماء؟ يقدر ينبت لكم عود من الأرض؟ لو اجتمعوا جميعاً لكي ينزلوا قطرة من السماء حبسها الله ولم يرد إنزالها؟ ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، لو اجتمعوا جميعاً لكي ينبتوا عوداً من الأرض ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، إذاً كيف يليق بعاقل أن يلجأ إلى هذه الآلهة العاجزة الضعيفة الفقيرة؟ وبعد ذلك ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ

لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[العنكبوت:١٧] إبراهيم إمام الحنيفية، هو القدوة لكل من جاء بعده في التوحيد، توحيد الإلهية تحديداً، هذه دعوة إبراهيم، وأيضاً في مقام آخر يقول لأبيه وقومه ما تعبدون؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾[الشعراء:٧١] فقال إبراهيم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾[الشعراء:٧٣] لأن الذي يستحق العبادة هو الإله الذي يسمع دعاء من دعاه، والذي إذا سمع دعاء من دعاه، ملك الإجابة، فإذا كان الداعي يريد جلب نفع نفعه، وإن كان يريد دفع ضر كشفه، فقال لهم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ لماذا نعبده إذا كان لا يسمع ولا يجيب؟ قالوا: لا يسمعون، ولا ينفعون، ولا يضرون، طيب لماذا عبدتموهم؟ تقليداً للآباء ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[الشعراء:٧٤] يعني مجرد التقليد للآباء والأجداد، إبراهيم لما سمع كلام هؤلاء الغافلين الحمقى، أعلن البراءة منهم ومن معبوداتهم جميعاً، واستثنى معبوده الحق، الذي هداه الله بفطرته إلى عبادته، قال: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾[الشعراء:٧٧] هو في الحقيقة أن المناسب أن يقول إبراهيم: فإني عدو لهم، ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ﴾ فإني عدو لهم، لكن قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ

لِى﴾ يعني جعل العدواة منهم له، كأن عداوته لهم ليس في حاجة إلى أن يصرح بها إبراهيم، بل هم أعداء إلي، وأنا عداوتي لهم لا تقدر، ولا تحتاج إلى تصريح، ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِى﴾ وأنا عدو لهم طبعاً، ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا يشير إلى أن القوم كانوا يعبدون الله، ويعبدون معه تلك الآلهة، فهو استثنى من معبوداتهم معبوداً واحداً، وهو رب العالمين، ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِى﴾ أي كل معبوداتهم، معبوداتكم أعداء لي، إلا من عبدتموه حقاً، لأنه رب العالمين، ﴿الَّذِى خَلَقَنِى﴾ إبراهيم يأتي بحيثيات الكفر، لماذا اخترت هذا المعبود فقط وكفرت بما عداه؟ أي جعلتهم كلهم عدواً لك، إلا هذا المعبود الواحد، فأتى بحيثيات تقنع، إن كان لهم شيء فيما سأقول فيستحقون أن نعبدهم، لكن أنا سأذكر من شئون هذا الإله ما لا يستطيع واحد من هذه الآلهة أن يزعم أن له في هذا الأمر شيء، قال: ﴿الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٧٨] هل في هؤلاء من خلق من إبراهيم عضواً؟ أو خلق من إبراهيم شعرة؟ أو ذرة؟ كلا، ثم قال: ﴿فهو يهدين﴾ خلقني وهو المتكفل بهدايتي، وإرشادي، وإلهامي، إلى ما فيه مصلحتي، ونفعي، ﴿الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ طبعاً لا يقدرون يزعمون لآلهتهم أنها تخلق، ولا أنها تهدي، ﴿وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء:٧٩] فهل تقدر تقدم لي لقمة أكل، أو تقدم لي شربة ماء؟ لا، ﴿وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ن ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ

يَشْفِينِ﴾[الشعراء:٨٠] ألم بي مرض، نزل بي ضر، إذاً من الذي يشفيني؟ هو، ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، ﴿وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ﴾[الشعراء٨٢:٨١] هذه حيثيات إبراهيم، في اختيار لهذا المعبود الحق، لأنه هو الذي يقوم لإبراهيم بكل هذا، فهو الحقيق والجدير بأن يعبد وحده، ولا يعبد غيره، ممن لا يخلق، ولا يهدي، ولا يطعم، ولا يسقي، ولا يشفي مرض، ولا يغفر خطيئة، فهكذا كان القرآن العظيم يمشي مع هؤلاء المقرين بتوحيد الربوبية، والمنكرين لتوحيد الإلهية، فيجعل توحيد الربوبية حجة عليهم، ما داموا مقرين به، فهذا يقتضي أن يكون هذا الرب الواحد هو الإله الذي لا تستحق العبادة إلا له، لأنه لا يستحق أن يكون إلها معبوداً، إلا من كان رباً قائماً، بكل شئون الربوبية من خلق، ورزق، وحفظ، ورعاية، وتدبير، إلى آخره، فالقرآن تحدث طويلاً جداً عن توحيد الربوبية، وإنما يسوقه دليلاً لتوحيد الإلهية، ثم أخبر وهو يدعو إلى توحيد الإلهية، أخبر عن عجز كل من يدعى من دون الله، وعن فقره، وعن ضعفه، وأن داعيه أحمق، لأنه يدعو من لا يملك له نفعاً، ولا ضراً، ولا موتاً، ولا حياة ولا نشوراً، ثم يقرر عجزهم بأبلغ الوجوه، يقرر عجز هذه الآلهة بأبلغ وجه، ويضرب المثل لهذا العجز فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾كل من يدعى، لا تتحاشى أن تتقن في هؤلاء، كل من عبد من الرسل، والأنبياء، والملائكة، والأولياء، فالقرآن لا يحابي أبداً في باب التوحيد،

وإنما يريد أن يقول لهم، كل من دعوتهم من دون الله شأنهم هذا، شأنه أنه لا يملك شيئاً، ولا يقدر على شيء، قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾عزير، المسيح، محمد، كل من عبد من المشايخ، من الأولياء، كل من عبد من الملائكة، الذين قالوا عنهم إنهم بنات الله، إلى آخره، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ﴾و ﴿الذين﴾كما تعلمون كلمة عموم تشمل كل من دعي من دون الله، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا﴾﴿لن﴾جاء بـ ﴿لن﴾عشان يفيد عجزهم المؤبد، ليس عجز وقتي، ليس عجز في الحال، وبعدين بكرة يقدروا لا، قال: ﴿لن﴾عشان يفيد أن عجزهم على طريق التأبيد في المستقبل، يعني أنهم عاجزون في كل وقت، حالاً أو مستقبلاً، لم يفعلوا هذا، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ لم يقل جاموسة، ولا بقرة، ولا جمل، فضلاً عن السماء، والأرض، والنجوم، لم يأت بشي كبير، أبداً، لم يأت القرآن في التحدي بشيء كبير، وإنما تحداهم بأصغر مخلوق، تحداهم بأصغر وأحقر مخلوق، قال:﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ يعني هذا الكلام أنهم لو انفردوا، فكل واحد منهم لا يقدر، لكن لو اجتمعوا قال: ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾الله أكبر، ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾، طيب ممكن لا يستطيعون أن يخلقوا؟ لكن أيضاً ممكن يكون لهم من الأمر شيء يقدروه، قال: لا، هم أعجز وأحقر من هذا، فالذباب أو الذبابة لو وقعت على أحدهم، على هذه الآلهة ثم غرزت خرطومها فمصت شيئاً من

دم أو غيره وطارت، لم يستطع أن يأت بالذبابة ويستخرج منها ما أخذته الذبابة من جسده، ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾هل رأيت أعجز من هذا، يعني في صورة للعجز، في صورة للعجز أوضح من هذا، هذا بالنسبة للخلق، انظر بالنسبة للملك أيضاً، نفى عنهم كل ملك، لما ذكر عن نفى سبحانه أنه فعل كذا وكذا، من سورة فاطر من أول ما تأتي بقوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[فاطر:١٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحج:٧٠] ، ﴿وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾[فاطر:١٣] عرفنا الله بنفسه، وذكر آياته ودلائل إنعامه وقدرته، وحكمته حيث قال: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي عمل هذا كله، ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ له الملك وحده، ويقول أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾[فاطر:١٣] فالذي نفى الخلق عنهم، نفى عنهم أن يخلقوا ذبابة، نفى هنا عنهم أن يملكوا قطميراً، وقد يسأل سائل ما هو القطمير؟ أقول لك: الله

كما نفى عنهم خلق الذبابة أحقر شيء، نفى عنهم ملك القطمير الذي هو أيضاً أصغر وأحقر، لأن القطمير هو تلك القشرة البيضاء التي تراها على النواة، لما تأتي بتمرة وتجد على النواة قشرة بيضاء رقيقة جداً، لو مسكتها بيدك لن تجد شيئاً، يعني معدومة الملك، فهم كلهم كل من دعي من دون الله وعبد، ﴿ما يملكون من قطمير﴾ وليس ذلك فقط، بل مع نفي الند عنهم، ذكر من شأنهم ما يزهد فيهم كل من يدعوهم أو يعبدهم قال: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ أين الأذن، والطبلة والسماع؟ فلا عين ترى، ولا أذن تسمع، ليس هناك شيء والله، ليس تحت القبة شيخ، إنما تحت القبة رماد وتراب، ليس فيها شيء بالمرة، إنما مقصورة صماء، بكماء، عجماء، تقول له: كيف يسمع؟ يقول لك: هم أرواحهم ترجع مرة أخرى، ما دامت فيها سمع وبصر و تتكلم، ليس فيه ضرورة لهذا الجسد، هذا الجسد آلة، آلة من روح، لا يمكن أبداً أن تعمل الروح عملاً إلا بواسطة تلك الآلة، فلا ترى الروح إلا بالعينين، التي في الجسد ولا تسمع الروح إلا بالأذن، التي في الجسد، ولا تتكلم إلا بلسان الذي في الجسد، ولهذا ربنا جل وعلا يعيد الروح إلى الجسد بعد الموت، يحي الميت لكي يسأله، لو كانت الروح تسأل، وتستطيع أن تجيب، لم يكن ضرورة لعودة الروح للجسد مرة أخرى وتتكلم، الروح وهي في الجسد كان ربنا يسأله فوق سبحانه وتعالى، لا بد من الجسد بالروح، حتى في النعيم والعذاب، يعني تتألم الروح، أو تنعم لا بد من الجسد، فالنعيم أو العذاب بواسطة الجسد، ولهذا كان

البعث وكان النشور والناس سيدخلون الجنة بأجسادهم، والنار بأجسادهم لكي يشعروا بالألم، أو يشعروا بالنعيم، هذا كلام فارغ دعوى أن الروح حية وتسمع أهل الدنيا وتشعر بأهل الأهل، دعوة باطلة، لابد أن تأتي الروح إلى الجسد تسمع وتشعر وتحس، والروح ليست مع الجسد هنا الآن أبداً، فهؤلاء كذابون، لأن الله يقول: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾[الزمر:٤٢] فالروح ممسكة عند الله، فمن يقول: تأتي الروح تحوم أو تحوط حول القبر، فهذا كذاب، وكل هذه آثار فارغة، لا أصل لها، فالأرواح عند الله، إن كانت منعمة فهي مشغولة بما عنده الله، وإن كانت معذبة فهي مشغولة بعذابها ليس لها شأن بشيء.

لا صلة أبداً بين الأموات الأحياء، ولا يعرف الميت عن الحي شيء، أبداً، صحيح ورد بعض الآثار أن الأرواح هناك فوق تتلقى الأرواح الجديدة وتسألها، لو كانت تعلم لماذا تسأل أرواح الموتى الجديدة، تصعد روح إنسان جديد تتلقاه الأرواح التي كانت تعرفه فتقول لها مثلاً: ماذا عملت فلانة الآن حينما تزوجت بعد زوجها؟ فهي تسأل لأنها تجهل، ولو كانت الأرواح يمكن أن تتصل بالأحياء لم يكن لها حاجة إلى أن تسأل تلك الأرواح الجديدة التي وردت عليها هذا كله كلام فارغ، وتكذيب بصريح القرآن، هؤلاء يكذبون بصريح القرآن لأن القرآن يقول: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ ثم

القرآن كتاب أمة، كتاب بيان، سنتنزل معهم إذا فرضنا أنهم يسمعوا ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ وهذا فرض.

انتهى الشريط الصوتي

تتمة[١]

[لابد أن نضع في اعتبارنا أن الزكاة، الحج، الصوم، الصدق، الأمانة، عبادات تحتاج إلى مراقبة الله]، لابد أن تضع في اعتبارك أنك تتصدق خوفاً من الله، وأنك أمين حباً لله، وطاعة لله، وإنك لا تنذر إلا لله، لماذا تنذر؟ لإنسان تخاف منه، إننا نخاف ممن؟ من الله رب العالمين، إذاً لا نتوجه بالنذر إلا لله، إذاً لا نسأل إلا الله، لماذا؟ لأن السؤال عبادة، النبي عليه الصلاة والسلام يقول: «الدعاء هو العبادة»[٢]، وفي رواية يقول: «الدعاء مخ العبادة»[٣] لماذا؟ لأن الدعاء إظهار المذلة وإظهار الضراعة، وإظهار الحاجة إلى الغني، من الغني الذي يعطيك؟ الله، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَأَلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾«النمل:٦٢» إذاً الله هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء، إذاً ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾متى؟ ﴿إِذَا دَعَانِ﴾شرط، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾«البقرة:١٨٦» ، إذاً الدعاء لا يكون إلا لله، لأن الدعاء عبادة، والحلف لا يكون إلا بالله، لأن الحلف تعظيم وإشهاد، والتعظيم

---

(١) هذه التتمة كانت ضمن شريط صوتي بعنوان "إنا هدينا السبيل" ستأتي إن شاء الله، فوجدنا أنها مناسبة لتكون تتمة لهذه المحاضرة.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩).

(٣) ضعيف: أخرجه الترمذي في سننه (٣٣٧١)، والحديث ضعفه الشيخ الألباني.

والإشهاد لا يكون إلا لله العظيم، وإلا للذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حلف بغير الله فقد أشرك»[١] ويقول صلى الله عليه وسلم كما في البخاري: «من كان حالفاً، فليحلف بالله أو ليصمت»[٢]، فالله يعلمك أن تتوجه دائماً للغني ولا تذهب لفقير مثلك وتطلب منه ما يطلب من الله، ولذلك يقول الله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾«الملك:١» ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلماذا أذهب لغير الله طالما أنه هو الملك، لماذا أذهب لغفير وأنا أستطيع أن أصل إلى الملك، وقد يكون الغفير نفسه فقيراً، وإذا كان غنياً فقد لا يعطيني، وإذا أعطاني سيعطيني بطريقة محدودة، وإذا كان لا يملك ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾«الأعراف:١٩٤» فهو عبد مثلك ماذا يصنع لك؟ والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»[٣].

إذاً معنى التوحيد:

أولاً: توحيد في القصد والتشريع.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، والحديث صححه الشيخ الألباني.

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، البخاري (٣٨٣٦)، مسلم (١٦٤٦).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٢٥١٦)، والحديث صححه الشيخ الألباني.

ثانياً: توحيد في العبادة: يعني لا تتوجه بالعبادة إلا إلى الله.

ثالثاً: توحيد في الربوبية: يعني أن تعلم، أن الخلاق، وأن الرزاق، وأن الملك، وأن العظيم، وأن الكريم، وأن البارئ، وأن المصور هو الله، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، هذه هي الربوبية.

الألوهية يعني جميع العبادات لا تتوجه بها إلا إلى الله، الصفات تعلم تمام العلم أن الله عظيم وأن الله كريم وأنه له الأسماء الحسنى وأنه رحمن، وأنه جبار، وأنه القهار، وأنه لطيف، وأنه سميع، وأنه بصير، وأنه واحد، وأنه أحد، وأنه فرد، وأنه صمد، وأنه لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، كل ذلك في إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ «الشورى:١١».

الآن نتكلم عن توحيد القيادة، من الذي يقودنا؟ السيد البدوي؟! السيدة زينب؟! الحسين؟! سيدك عليٌّ؟! سيدك المهدي؟! سيدك الجيلاني؟! سيدك الطلياني؟! لا هي قيادة واحدة، قيادة سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ فهو سيدنا، وهو سيد آباءنا، بل هو سيد الأولين والآخرين، وأنه قال عن نفسه: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[1] هو سيدنا، نعم، هو قدوتنا، نعم، هو أسوتنا، نعم، هو قيادتنا، نعم هو رائدنا، نعم، هو الذي يهدينا للطريق الأمثل، هو الذي يهدينا للسبيل السوي، هو الذي يرينا الطريق المستقيم، لا نشفع

---

(١) أخرجه الإمام مسلم بهذ اللفظ: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر)، انظر صحيح مسلم (٢٢٧٨)، ولفظ البخاري: (أنا سيد يوم القيامة) برقم (٣٣٤٠).

لغيره، ولا نأتمر بأمر غيره، إنما نأتمر بأمر الله، وإنما نتأسى برسول الله ﷺ، توحيد القيادة، توحيد الراية التي توحد، لا تكون راية أحزاب فلان وعلان، لأن الراية واحدة هي راية القرآن الكريم، يفسره رسول الله ﷺ، توحيد الكتاب المصدر، قلنا مصدر التشريع لا يمكن أن يصدق كلاماً جاء في كتاب من الكتب، أو على لسان إنسان كائناً من كان، عالماً، أو واعظاً، أو خطيباً، أو رئيس جماعة مثلي، أو أي إنساني، لا تسمعوا له إلا إذا كان كلامه مؤيداً من كتاب الله، ومن سنة رسول الله، إذا لم يكن فيه دليل فكلامه مردود مهما طالت سبحته، مهما طالت لحيته، مهما زادت ريالته [لعابه][1]، مهما كانت ثيابه مرقعة، مهما كان شيخ المشايخ، مهما كان مركزه، لا تسمعوا له، ولا تسمعوا مني إلا إذا جئتكم بالحكم من كتاب الله، ومن سنة رسول الله، هذا هو الكلام، هذا هو التوحيد.

رب ابنك بكتاب الله، علم ابنك من كتاب الله، أدب ابنك بكتاب الله، علم زوجتك بكتاب الله، وعامل زوجتك وعامل جيرانك وعامل أحبابك وعامل عملائك وعامل عشيرتك وعامل وطنك وعامل حاكمك كل هؤلاء بكتاب الله وسنة رسول الله.

---

(١) كثير من العامة في مصر –حتى فترة قريبة– كانوا يعتقدون أن المجاذيب؛ ممن رفع الله عنهم التكليف، أنهم أولياء لله، ومن مظاهرهم أنهم لا يهتمون بنظافة أبدانهم فتجد لعابهم يسيل على جسدهم من غير أن يتداركوا أنفسهم بالنظافة.

فلو أن الحاكم يصلي، ويتقي الله في رعيته، ويقول: بالعلم والإيمان نطيعه ونسمع منه، أما لو خرج عن ذلك، نقول: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، كما قلنا للسابقين ولم يهمنا، وقلنا في كل مكان، لكن اليوم فله الطاعة علينا لأن رئيسنا يدعو إلى العلم والإيمان، ويهتف بسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، هذا دأبنا وهذا نظامنا، وهذه خطتنا، ومجلتنا "مجلة التوحيد"، يعني نعلم الناس كيف لا يلجئون إلا إلى الله، وكيف لا يستعينون إلا بالله، وكيف لا يطلبون النصر، ولا العز، ولا السلطان إلا من الله، لأن القوة لله جميعاً، وأن الله على كل شيء قدير، والله يهدي إلى صراط مستقيم.

الأسماء والصفات

-المحاضرة الثانية-

أحمق الذي يـدعو هـؤلاء مـن دون الله، ممـن لا يملكـون لـه اسـتجابة لدعائه، ولا قضاء لحوائجه، فيصوره بصورة تنفر كل إنسان، وتربأ بكل عاقـل عن أن يضع نفسه في هذا المنظر الـشنيع، مـن يـرضى أن يكـون في صـورة هـذا الأحمق؟! الذي عطش عطشاً كبيراً، فوجـد نهـراً يجـري، فهـرع إلى هـذا النهـر وجلس على شاطئه، سيموت من العطش، ثم بدل ما يلـتمس بيديـه ويـشرب، اكتفى بأن يضع كفيه على الماء، بسط كفيه عـلى المـاء، طامعـاً ومـؤملاً أن يـصل الشراب إلى فمه، فهذا لو مكث مليون سنة وهو على هذه الحالة، فلن يبلغ المـاء فاه أبداً، كذلك من يدعو غير الله، سيظل يدعو ويدعو ولا محصول لدعائـه ولا مجيب، يعني أتعب نفسه، وأمل نفسه.

وفي سورة الرعد، توبيخا لحال هؤلاء الحمقى، الذين يقفون أمـام هـذه الأضرحة، مختلفين متهافتين، فلنسمع للآية الكريمـة وهـي تنعـى عـلى هـؤلاء حماقتهم وجهلهم يقول الله: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ يعني من دعـاه، فقـد دعـا مـن يستحق أن يدعى، لأنه يسمع داعيه، ويملك أن يجيب له دعائه، لـه ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ «الرعد:١٤» يعني إنسان لو بسط كفيه على المـاء فلـن يبلـغ المـاء فـاه،

كذلك لن يجيب الميت دعاء من دعاه، فإن كنا نعلم جميعاً أن من بسط كفيه على الماء فلن يبلغ الماء فاه أبداً مهما أطال الجلوس على الماء، فكذلك نحن نعلم أن داعي غير الله لا يمكن أن يجاب دعاؤه أبداً مهما أطال الدعاء، ولهذا قال: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أنتم تعرفون الضلال، الضياع، ضاع عليه الوقت الكبير، أن تقوم بدعاء غير الله، يبقى راح عليهم، كانوا يقدرون أن يقضوا هذا الوقت في أشياء نافعة، لكن هؤلاء قضوا هذا الوقت في أمر ضائع ذاهب لا يمكن أن يعود عليهم بالنفع بل عاد عليهم بالخسران والعياذ بالله.

وكما نفى القرآن الخلق والملك عن هذه الآلهة، نفى عنهم ما يدعونه من شفاعتها عند الله، لأن القرآن يريد أن يسد كل أبواب الشرك، كل منافذ الشرك، التي ينفذ منها أبالسة الشرك، ويحتجون بها يريد أن يسدها القرآن، يسد عليهم كل باب، اسمع الآية الكريمة التي في سورة سبأ، تقطع كل حجة للمشركين، لا تدع لهم باباً أبداً من أبواب الرجاء والأمل في هذه الآلهة، ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ادعوهم ﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ ونفى عنهم الملكِ بأبلغ وجه، لأنه نفى عنهم بأن يملكوا مثقال ذرة، ﴿لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ فيأتي المشرك ويقول: هم ما يملكون على سبيل الاستقلال، لكن يمكن يكون لهم شركة مع الله في الملك، قال: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ﴾ فنفى عنهم الملكية أولاً على سبيل الاستقلال، ثم نفى عنهم الملكية على سبيل

الشرك، فيقولون: هم ما يملكون لكن كل ملك له وزراء وأعوان، فربما كانوا أعواناً للملك، والملك هو ملك وله أعوان، ووزراء، ووكلاء، قال: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾«سبأ:٢٢» لا يحتاج معونة أحد منهم، ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ قالوا: ليس هناك لا ملك، ولا ظهارة، ولا معاونة، لكن فيه شفاعة، هذه التي يحتجون بها علينا الآن، فالقبوريون يحتجون بالشفاعة فقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾«سبأ:٢٣» فنفى عنهم الشفاعة إلا بإذنه، فسد القرآن عليهم كل باب، لا يملكون، ولا شركة لهم في الملك، ولا هم ظهراء للمالك، ولا أعوان له، ولا لهم شفاعة عنده كما، والشفاعة عنده لا تكون إلا بإذنه، ومن أين لكم أنه أذن لهؤلاء أن يشفعوا، ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾هذا القرآن مثلما قلت لكم: يتخذ من الأشياء التي أقر بها هؤلاء المنكرون، يتخذ منها الدليل عليهم، حينما أقروا بتوحيد الربوبية جعل توحيد الربوبية دليلاً لتوحيد الإلهية، وقال لهم: إن كنتم عقلاء فلا تنبهوا أنفسكم، لأن ما دمت اعتقدت إنه منفرد بالربوبية، فيتحتم عليك أن تعبده وحده، لأنه لا يستحق العبادة إلا من كان مالكاً، خالقاً، مدبراً،إلى آخره، والقرآن لا يتخذ من قضية الخلق، أو قضية الملك فقط دليلاً لتوحيد الإلهية، بل يتخذ من انفراده سبحانه بالأسماء الحسنى دليلاً كذلك لتوحيد الألوهية، لأن هؤلاء المشركين كانوا مع إشراكهم يعتقدون بأنه منفرد بما له من الأسماء والصفات، صحيح أنهم اشتقوا أسماء لألهتهم من أسماء الله، لأنهم قالوا اللات

من الله و العزى من العزيز. والله قادر على أن يتخذ مما له من الأسماء الحسنى دليلاً على وجوب إفراده بالعبادة، انتبه إلى الآيات عندما قالت: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾«البقرة:١٦٣» فاحتج بتوحيد الإلهية بهذين الاسمين الكريمين وهما الرحمن والرحيم، قبل أن تحتج بالآيات الكونية، يعني قبل الاحتجاج بالآيات الكونية، احتجت بانفراده سبحانه بأنه الرحمن الرحيم، فهذا يقتضي أن يعبد وحده، لأن غيره لا رحمن، ولا رحيم، ثم جاءت الآية بعد ذلك بالدلائل الكونية على وجود توحيد الإلهية، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾«البقرة:١٦٤» كلام الله في أخر سورة الحشر واضح وظاهر جداً الاستدلال بالأسماء الحسنى على توحيد الإلهية، فمثلاً يقول الله ﷻ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لماذا؟ ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ﴾وحده ﴿الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾كل الأسماء الحسنى له وحده، دليل بل من أكبر الأدلة على أنه الإله وحده الذي له توحيد الإلهية.

باختصار توحيد الربوبية معناه توحيده بأفعاله هو سبحانه، يعني أن أفعاله كلها صادرة منه بإرادته ومشيئته، لا رب غيره ينازعه شيئاً في الملك، ولا في السلطان. وأن توحيد الإلهية فهو إفراده ﷻ بكل ما يدخل في معنى العبادة، يعني كل ما يطلق عليه عبادة، أو يدخل في مفهوم كلمة عبادة، فيجب أن يكون لله وحده، يجب أن يخلص فيه لله ﷻ، فلا نجعل من عبادتنا شيئاً لغيره، ويمكن أيضاً أن نختصر معنى هذا التوحيد، توحيد الإلهية في أن المراد به توحيده بأفعالنا، يعني أن أفعالنا كلها يجب أن تتجه إليه وحده، وأن نقصده دائماً مخلصين له الدين، وألا تتوزع إرادتنا، ولا قصودنا بينه وبين غيره، بل يجب أن تتجه إليه كل القصود والإرادات، فلا يكون له شريك في نياتنا، ولا في أعمالنا، ولا في إراداتنا إلى غير ذلك، وقد أوفينا الكلام فيما أعتقد في هذين النوعين من التوحيد.

بقي النوع الثالث: وهو توحيد الأسماء والصفات، وهذا النوع من التوحيد هو أخطر أنواع التوحيد، وهو الذي وقع فيه النزاع الطويل بين أهل السنة وبين خصومهم، من الجهمية، والمعتزلة، والأشعرية، وغيرهم من أئمة التعطيل والنفي، فيجب أن يتنبه لهذا النوع جيداً، وأن نكون على بصيرة لما نسمع في هذه الليلة، إن هذا النوع من التوحيد هو الذي يميز أنصار السنة الآن، صحيح نحن نبين للقبوريين توحيد الإلهية، ونرد على عباد الأضرحة، ونبين العبادات الواجب إخلاصها لله، إلى غير ذلك، إنما هذا النوع من التوحيد

أيضا ذو أهمية بالغة، فيجب علينا أن نفهم كل ما يتصل بهذا الموضوع إن شاء الله.

توحيد الأسماء والصفات:

ما المراد بتوحيد الأسماء والصفات؟

طبعاً هذه العبارة هي التي تعطينا مفهوم هذا النوع من التوحيد، أنه إفراد الله ﷻ بما له من الأسماء والصفات، فمعنى التوحيد الإفراد، وتوحيد الأسماء والصفات معناه أن نفرد الله ﷻ، كما أفردناه في ربوبيته، وكما أفردناه في ألوهيته، فكذلك علينا أن نفرده سبحانه وتعالى وأنه نخصه بما له من الأسماء الحسنى، والصفات العليا، التي لا تنبغي إلا له وحده.

توحيد الأسماء والصفات معناه، أن الله تبارك وتعالى منفرد بما له من الأسماء والصفات، فله الأسماء الحسنى التي لا تنبغي ولا تليق إلا له وحده، وله الصفات العليا، التي لا يدخلها نقص بأي وجه من الوجوه، بل لها الكمال المطلق الذي لا حد له ولا نهاية وراءه، فكل كمال ممكن هو ثابت لله، وكل صفة كمال ثبتت لله ﷻ، هي بالغة حد الكمال المطلق، الذي لا يعقل أن يكون وراءه كمال آخر.

ما معنى الأسماء والصفات؟ ما معنى الاسم وما معنى الصفة؟

الاسم: كلمة اسم معناه اللفظ الموضوع للدلالة على المسمى، كل ما دل على مسمى، أو على شيء معين، يشخص اسمه اسم، فأنت إذا سميت ولدك

محمداً، أو علياً، أو إبراهيم، فهذه اللغة أسماء لها مدلول، ومدلولها هو ذلك الشخص المسمى بواحد من هذه الأسماء، حتى إذا أطلق الاسم انصرف إلى مسماه فإذا قلت: رأيت علياً، أو راقبت محمداً، فهم مباشرة من تكلمه أنك تعني بعلي ذلك الشخص الفلاني، أو بمحمد ذلك الشخص الفلاني، هذا معنى الاسم، ما دل على المسمى.

أما الصفة فهي التي تقوم بالموصوف، يعني الصفة هي معنىً قام بذاتٍ، تسمى الذات موصوفة بتلك الصفة، وتلك الصفة تعتبر معنىً قائماً بتلك الذات، فإذا تقرر هذا، فعلينا أن نبحث عن أسماء الله ﷻ وصفاته، الله تبارك وتعالى له أسماء وردت في القرآن الكريم، وفي السنة المطهرة، وجاء في الحديث «إن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة»[1]، هذه الأسماء لما جاءت على لسان الشرع، وأن الله تبارك وتعالى قد سمى نفسه بها، أو سماه بها رسوله ﷺ، فكل واحد منها اسم لله ﷻ يجوز أن نطلقه عليه.

الله تبارك وتعالى لم يعلمنا بكل أسمائه، كذلك لم يوقفنا على كل صفاته، بل عرفنا من ذلك بما أراد، وبما علم سبحانه وتعالى أنه يكفينا في معرفته سبحانه وتعالى، هذه الأسماء كلها حسنى، أسماء الله سميت حسنى، ما معنى حسنى؟ حسنى كلمة حسنى تقابلها كلمة سوء، وحسنى أنثى الأحسن، يقال: هذا أحسن، وتلك حسنى، فكلمة حسنى هي أنثى أفعل التفضيل التي هو

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، البخاري (٢٧٣٦)، مسلم (٢٦٧٧).

أحسن، فمعنى الأسماء الحسنى يعني الأسماء التي هي أحسن الأسماء، وأكملها، وأشرفها، ولا يوجد أسماء أخرى تعدلها أو تساويها في الحسن، ولا في الكمال، ولا في الشرف، بخلاف السوء، فإن معناها أقبح الأسماء، وأعيب الأسماء، فالله تبارك وتعالى له وحده الأسماء الحسنى، وأما غيره فإن وجد في أسمائه حسن، فهذا حسن نسبي ليس حسناً مطلقاً، وأما الحسن المطلق حتى في أسمائه وحده سبحانه وتعالى، لأنه حسن لا يدخله سوء، ولا يدخله نقص، ولا يعتريه عيب أبداً، ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾«الأعراف:١٨٠»، أسماء الله قال العلماء: إنها جميعاً مشتقة، ولم يقع خلاف بين العلماء إلا في اسم الجلالة الذي هو الله، هل هو اسم جامد، أم مشتق؟ فقيل: إن إمام النحويين يرى أنه اسم جامد، وأنه علم على الذات الإلهية المستجمعة لصفات كمالها، وأنه ليس مبدأ اشتقاق معروف، بل قيل: إنه اسم أعجمي وليس بعربي، ولكن الصحيح الذي جرى عليه جمهور العلماء أن اسم الجلالة أيضاً، وإن كان قد غلبت عليه العلمية، حتى تنوسي الوصف فيه فهو أيضاً، اسم مشتق من الإلهة، بمعنى العبادة، يقال: أله، يأله، إلهة، بمعنى عبد عبادة، فكان ابن عباس –رضي الله عنهما– يقرأ ﴿يذرك وإلهتك﴾ يعني وعبادتك، فالله معناه المألوه، أي المعبود بحق، وكل ما عبد من دونه، فقد عبد بالباطل ولا حق له في تلك العبادة، أما معنى الاسم المشتق، والاسم الجامد: اسم وضع من أول الأمر للدلالة على الذات، ولم يكن له مبدأ اشتقاق، إنما هو وضع ليكون علماً فقط على ذات

معينة، مثلما تقول: أسد، جبل، شمس، قمر، كل هذه أسماء جوامد ليس لها مبدأ اشتقاق، إنما الاسم المشتق يكون مأخوذاً أو متفرعاً من ثبوت صفة لمن يسمى بهذا الاسم، يعني الاسم المشتق يكون فيه صفة هي مبدأ اشتقاق لهذا الاسم، وأنا عندما أقول: الله عليم، فعليم اسم من الأسماء الحسنى، مشتق من صفة العلم الثابتة لله، فلما كان الله متصفاً بصفة العلم، اشتق له من تلك الصفة اسم هو عالم أو عليم، وكذلك إذا قلت: قادر، فهناك صفة اسمها القدرة، اشتق لله منها اسم فقيل: قادر، وهكذا ترى أن كل اسم من الأسماء الحسنى متضمن لصفة من صفات الله ﷻ، وتلك الصفة هي مبدأ اشتقاق هذا الاسم، فلولا هذه الصفة ما أطلق هذا الاسم على الله ﷻ، إنما لأنه موصوف بالصفة، جاز أن يشتق له من تلك الصفة اسم ليدل عليه، إذاً كل اسم مشتق مركب من ذات وصفة، عالم ذات مع علم، قادر ذات مع قدرة، رحيم ذات مع رحمة وهكذا، فلله ﷻ من الصفات بقدر ما له من الأسماء، لأن كل اسم من أسمائه سبحانه هو متضمن ومشتمل على صفة من صفاته، إذا تأملت كل اسم من هذه الأسماء الحسنى عرفت ما يدل عليه هذا الاسم الكريم من صفة أثبتها الله ﷻ لنفسه حين سمى نفسه بهذا الاسم، هذا هو معنى الاسم المشتق، وإذا كانت أسماء الله ﷻ كلها مشتقة كما قدمنا، إذاً فكل اسم من أسمائه كما قلنا: متضمن لصفة ثابتة له سبحانه وتعالى، هذا كلام مبدئي، يعني كلام قبل الدخول في الموضوع، أن لله أسماء وله صفات، الصفات هي مبدأ اشتقاق تلك

الأسماء، والأسماء هذه دالة على الصفات، لأن كل اسم دال على الذات الموصوفة بتلك الصفة.

لما سمى الله تبارك وتعالى نفسه في القرآن بهذه الأسماء، هل كان يريد أن يطلق على نفسه هذه الأسماء من غير دلالة على معانيها، أو من غير دلالة على الصفات التي تضمنتها هذه الأسماء؟ هنا نجد خصوماً لنا في القضية، ونجد موافقين لنا في هذا القضية، خصوماً في هذه القضية هم المعتزلة، ابن حزم، الجهمية، أما الجهمية فهم خارجون عن الدائرة، يعني هم كفار، وليسوا مسلمين، لأنهم نفوا الأسماء الحسنى، فلم يثبتوا لله أسماء، فكما نفوا الصفات، كذلك نفوا الأسماء، هؤلاء غلاة فقد كفرهم السلف -رضي الله عنهم- فلا شأن لنا بهم، إنما الكلام مع المعتزلة، ومع ابن حزم، المعتزلة ذهبوا أنه ليس هناك وراء هذه الأسماء صفات، بل ليس هناك إلا اسم مجرد، ولا معنى للاسم إلا الذات وحدها، فالله حين سمى نفسه هذه الأسماء، لم يرد إلا الدلالة على الذات المجردة، التي لا نعت لها، ولا صفة، وقال ابن حزم: (إن أسماء الله جوامد وليس لها اشتقاق، بل هي مترادفة كلها على الدلالة على الذات، ولا تتضمن شيئاً من الصفات) يعني المعتزلة أهون من ابن حزم، لأن المعتزلة اعترفوا بأن هذه الأسماء مشتقة، لكن قالوا: ليس لها مبدأ اشتقاق هو معنى زائد عن الذات، أما ابن حزم فيرى أنه ليس هناك اشتقاق إنما هي أعلام جامدة وضعت للدلالة على الذات، هؤلاء نقول لهم: كيف تثبتون الأسماء وتنفون

الصفات؟ إن هذا تناقض، كل من يثبت اسماً مشتقاً، يجب عليه أن يثبت مبدأ الاشتقاق الذي هو الصفة الذي تضمنها ذلك الاسم، وإلا كان متناقضاً، لأنه إذا كان الاسم مشتقاً وهو دال على صفة، فكيف أجرد الاسم من معناه، الذي هو مدلول الاسم ومفهومه؟! فكل من أثبت اسماً لله مشتقاً، يجب عليه أن يثبت ما وراء ذلك الاسم، أو ما تضمنه ذلك الاسم من صفة، وإلا كان متناقضاً، قالوا: ليس هناك دليل على ثبوت الصفات، نقول: بل الصفات واردة في القرآن وفي السنة، من غير الأسماء، يعني ورد في القرآن إثبات صفات لله من غير هذه الأسماء، يعني أثبت الله ﷻ الصفة مجردة عن الاسم، ليدلنا على أن هذه الأسماء متضمنة لتلك الصفات، الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾«النساء:١٦٦» فأثبت علماً، لا نقول: من عالم، لا، أثبت علماً مع عالم، ويقول الله جل وعلا: ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾«الصافات:١٨٠» فأثبت عزة، أما جل شأنه ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾«الذاريات:٥٨» فأثبت قوة، عندما يقول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾«الأعراف:١٥٦» فأثبت رحمة، هذه الصفات موجودة في القرآن بدون الأسماء، مما يدل على أن هذه الأسماء متضمنة لتلك الصفات، وأما السنة ففيها من هذه الكثير، كما في حديث الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم»[1] وكما في حديث الرقية: «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد

---

(١) رواه البخاري من حديث جابر رضي الله عنه (٢٣٨٦).

وأحاذر»[١] وحديث: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري»[٢] إلى آخر هذه الأحاديث التي تثبت لله الصفات، لم تكن مأخوذة من الأسماء، وإنما أثبتها القرآن والسنة مجردة عن الأسماء، على كل حال لا شأن لنا بهؤلاء، فهم مخالفون لسائر العقلاء، ومخالفون لكل لغات الدنيا، فكل لغات الدنيا فيها أسماء مشتقة، وهذه الأسماء المشتقة تدل على ثبوت الصفة التي اشتق منها تلك الأسماء، إذاً لله أسماء، وله صفات، أي معانٍ زائدة على الذات، ليس فيها نفس الذات، بل هي معاني زائدة عن الذات، قائمة بها.

الأسماء الحسنى كثيرة مثلما قلنا إنه يجمعها أنها جميعاً مشتقة، وأنها جميعاً حسنى، وأنها دالة على ثبوت صفات لله تبارك وتعالى، لكن ما يعنينا في الأسماء -لأن الكلام في العقيدة ليس في الأسماء، الأسماء موجودة، ومحفوظة، وكلها مثل ما عرفنا واردة في الكتاب، وواردة في السنة- أنه لا يجوز إطلاق اسم على الله لم يرد الشرع بإطلاقه، لماذا؟ ما دمنا قد قررنا أن كل اسم متضمن لصفة، فإذا أطلقنا على الله اسماً من عند أنفسنا كان متضمنا لصفة ونحن لا ندري إن كانت تلك الصفة مما يجوز أن يثبت لله، أو مما لا يجوز أن يثبت لله، إذاً سميناه

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (٣٨٩١)، والترمذي في سننه (٢٠٨٠)، والحديث صححه الشيخ الألباني رحمه الله.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود في سننه (٤٠٩٠)، والحديث صححه الشيخ الألباني رحمه الله.

باسم لم يسم به نفسه، أو لم يسمه به رسوله، إذاً التزمنا أن نثبت تلك الصفة التي دل عليها هذا الاسم، وهذه الصفة لا ندري إن كان مما يصح ثبوتها لله أو مما لا يصح، مثلما يأتي جماعة يسمون الله القديم، الجماعة الأشعرية، يقولون: الله قديم، ويفسرون القدم بمعنى عدم الأولية، لكن لفظ القديم، مفهوم قديم، هل هو يختص بذلك المعنى الصحيح، أو يحتمل معان فاسدة؟ قطعاً يوهم معنى فاسداً، لما تقولون: قديم، معناه في اللغة إنه متقدم في الوجود على غيره، هذا البيت قديم، يعني ظل سنين طويلة مبنياً، فيقول: هذا البيت أقدم من هذا البيت، يعني تقدمه في الوجود، إنما لفظ قديم لأجل يدل على الأول الذي لا شيء قبله، ونفس العرب لم يفهموا هذه المعنى أبداً، لم يكن العرب يفهمون من لفظ قديم أن الشيء لا أول له، لأنهم لا يعقلون شيئاً لا أول له، إنما كانوا يقولون: هذا الشيء قديم يريدون به تقدمه في الزمان، وإنه موجود من زمان بعيد، إنما لأجل يفهموا من قديم هذا المعنى أنه لا أول له، أو أنه قبل كل شيء، هذا بعيد على فهم العرب، إذ هم استعملوا لفظ قديم، أيضاً لما نأتي نقول مثلاً: موجود، هل هذا اسم من الأسماء الحسنى؟ لا، ولا يجوز أن يقال: موجود اسم من الأسماء الحسنى، لأن لفظ موجود يشارك الله في كل موجود من الموجدات، النملة موجودة، والذرة موجودة، والفيل موجود، كل كائن يمكن أن يطلق عليه لفظ موجود، فإذا قلنا: الله موجود فلا نريد إطلاق اسم على الله من أسمائه الحسنى، وإنما نريد أن نخبر فقط عن وجوده سبحانه وتعالى، يعني نريد بهذا

اللفظ لا إطلاق اسم على الله، وإنما نريد الإخبار عن الله، بأنه موصوف بالوجود، الذي هو ضد العدم، لأن هناك أناس يقولون: الله غير موجود، فلما تقول: الله موجود، إنما تريد إثبات صفة الوجود له سبحانه وتعالى، ولكن لا نعد الموجود، أو لفظ الموجود، اسماً من الأسماء الحسنى، فإذا إطلاق الأسماء على الله لا يكون إلا بتوقيف من الشرع، وإذن منه، فليس لأحد أن يسمي الله ﷻ باسمه من عند نفسه، يعني يأتي المتكلم الأشعري أو غيره يقول: الله مريد متكلم، هل مريد اسم من الأسماء الحسنى؟ متكلم اسم من الأسماء الحسنى؟ أبداً، يأتي واحد يسأل ويقول: يا أخي مريد أثبت الله الإرادة ويكون هذا ليس من الأسماء الحسنى؟! أثبت في الكلام ويكون هذا ليس من الأسماء الحسنى؟ نقول لك: نعم، ليس من الأسماء الحسنى، لأن معناه قد يوهم منه الحسن ومنه المحمود، فإذا أطلقته على الله ربما أوهم المعنى المذموم، لما تقول: الله متكلم، الكلام يكون كذباً ويكون صدقاً، فلما تقول: الله متكلم بإطلاق هذا ليس مدحاً، ولا ثناء، لأن من الكلام ما هو مذموم وهو الكذب والزور، والله لا يتكلم بالزور، ولا بالكذب، كذلك الإرادة تتعلق بالعدل، وتتعلق بالظلم والجور، فإذا قلت: الله مريد بإطلاق دخل المعنى المذموم في هذا، إنما لا يستعمل متكلم ولا مريد لله إلا مقيداً، الله متكلم بالصدق، مريد للعدل، وهكذا لم يستعمل متكلم ولا مريد في القرآن إلا مقيداً، لكي ينفي المعنى المذموم، ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا لَّا مُبَدِّلَ

﴿لِكَلِمَاتِهِ﴾«الأنعام:١١٥» يعني غرضي أن أقول: إن الأسماء التي يجب أن تطلق على الله ﷻ لابد أن يكون قد ورد الشرع بإطلاقها، وأذن لنا في إطلاقها، وإلا فلا يجوز لنا أن نسمي الله سبحانه باسم من عند أنفسنا، لأننا قد نطلق عليه من الأسماء ما لا يليق، مما يوهم نقصاً، أو عيباً، وإننا نعلم أن أسمائه كلها سبحانه يجب أن تكون حسنى، لا نقص فيها، ولا توهم نقصاً بأي وجه من الوجوه، هذه أول قاعدة من قواعد الأسماء والصفات: أننا لا نطلق على الله اسماً ولا نصفه بصفة إلا إذا ورد الشرع بإطلاق ذلك الاسم، وإثبات تلك الصفة لله ﷻ.

القاعدة الثانية التي تتعلق بتوحيد الأسماء والصفات: أن الله ﷻ فيما يثبته لنفسه، أو فيما يثبته له رسوله من صفات، لا يجوز أن نتوهم مماثلة بين الله وبين أحد من خلقه في شيء من صفاته، بل كل صفة أثبتها الله لنفسه، أو أثبتها له رسوله ﷺ، يجب أن يقر في الأذهان أنها غير مماثلة، ولا مشابهة، لما هو من جنسها في المخلوق، كيف؟ انتبهوا معي، هناك أسماء مشتركة بين الله وبين خلقه، يعني تطلق على الله ﷻ، وتطلق على بعض المخلوقين، يعني أنت حي، والله حي، أنت سميع، والله سميع، أنت بصير والله بصير، وأنت قادر، ، ومتكلم، بل وسمى الله ﷻ بعض الناس متكبر، وجبار قال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾«غافر:٣٥» ، سمى بعض الناس بالملك، ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾«يوسف:٥٤» ، وسمى بعض الناس بالعزيز، وجاء

لفظ العزيز في القرآن، عزيز مصر، ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾«يوسف:٥١» كذا، وجاء، و جاء، هذه الأسماء كيف تطلق على غير الله، مع أن هذا يوهم المشابهة بين الله وبين من سمي من المخلوقين بهذه الأسماء، قال لك: ليس هناك مشابهة أبداً، الاشتراك في هذه الأسماء بين الله وبين خلقه، لا يمكن أن يوهم مشابهة بين معانيها إذا أطلقت على الله، وبين معانيها إذا أطلقت على المخلوقين، لما أقول: أنا حي، فحياتي أنا صفة لي تناسبني، حياة سبقها الموت، وسيعتريها الموت، فهي حياة بين موتين، وهي حياة مهددة في كل لحظة بما يزيلها، كذلك حياة الرسل، حياة الأنبياء، حياة الملائكة، حياة الجن، حياة كل حي من هؤلاء الأحياء، له حياة تخصه وتناسب ذاته كمخلوق، وأما حياة الله تبارك وتعالى فحياة تخصه وتليق بذاته، لا تشابه أبداً بينها وبين حياة المخلوقين، فالبون شاسع، والفرق بعيد بين حياة الرب الأبدية، التي لا أول لها ولا آخر، بل هي لازمة لوجوده، غير منفكة عنه في لحظة من اللحظات، ولا تفارق ذاته، وهي أقوى حياة، وأتم حياة، وأكمل حياة، كيف يتوهم موهم حين يطلق لفظ حي على غير الله، أنه يماثل الرب في صفة الحياة؟ كلام فارغ، كذلك قل في العلم، قل في القدرة، قل في السمع، قل في البصر، قل في الكلام، قل في اليد، قل في الوجه، قل في العين، قل في كل ما أثبته الشرع لله تبارك وتعالى من صفات، حتى الفرح، حتى الضحك، حتى الغضب، فالله يفرح وقد ورد في الصحيح أنه يفرح بتوبة عبده إذا تاب، كما يفرح أحدنا بضالته إذا وجدها بعد ما ضلت

منه، وورد أنه يضحك إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، كلاهما يدخلان الجنة، وأنه ينظر إلينا أزلين قنطين، يظل يضحك، يعلم أن فرجكم قريب، وأنه سيضحك من هذا الرجل الذي سيكون آخر من يخرج من النار، حين يقول له: «اذهب إلى الجنة، فيذهب فيجد الجنة قد ملئت، فيرجع ويقول له: ما وجدت لي مكاناً في الجنة، فيقول: اذهب فادخل الجنة» وهكذا، فيراجع الرب جل شأنه، ثم يقول له: «أترضى أن يكون لك مثل ملك الدنيا في الجنة؟ فيقول له: أتهزأ بي وأنت الرب، فيضحك الله من هذا الرجل»[1]، يضحك من ابن آدم حين يعطيه العهد والميثاق على أنه لا يطلب أكثر مما طلب، ثم يعاود فيطلب وهكذا، فالضحك، والفرح، والغضب، والرضا، والمحبة، كل هذه معاني ثابتة لله بنصوص الكتاب وصريح السنة، ومع ذلك لا يخطر ببال مؤمن أبداً أن محبته كمحبتنا، ولا ضحكه كضحكنا، ولا رضاه كرضانا، ولا غضبه كغضبنا، فكل ذات لها من الصفات ما يناسبها، فكما أن ذات الرب لا تماثلها ذات من ذوات المخلوقين، فكذلك صفاته سبحانه وتعالى لا يمكن أن تماثلها صفة من صفة المخلوقين أبداً، وفي هذا الموضع دائماً يشاغبنا المعطلة ويقولوا لنا: أنتم تثبتون صفات لله موجودة في المخلوق، ومن شأن هذا أن يوهم المشابهة بين الله الخالق، وبين المخلوق، يجب علينا أن نتنبه لأن إثبات هذه المعاني لله، هو على ما يليق به سبحانه، وإثباتها في حق المخلوق هو على ما يليق بالمخلوق، فلا تماثل

---

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود، البخاري (٦٥٧١)، مسلم (١٨٦).

بين صفة الخالق وصفة المخلوق، يعني لما ربنا جل وعلا يقول لنا: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾«الشورى:١١» ألم ينف المثل عن نفسه؟ طيب كيف أثبت لنفسه سمع وبصر؟ إذا كان إثبات صفة لله موجودة في المخلوق يقتضي التمثيل والتشبيه فالآية تناقضت، لأن صدر الآية نفى المثل عن الله، يحتجون علينا، أو يشاغبوننا بمثل هذه المشاغبات الفارغة، التي تدل على جهلهم، فأنا حين أثبت لله تبارك وتعالى صفة، وأنا أعرف أن هذه الصفة موجودة في المخلوق، لا يعقل أن أتوهم بأي درجة من درجات التوهم، أن صفة الله تبارك وتعالى تماثل صفة المخلوق، ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾«النحل:٧٤» أي لا تقيسوا الله بخلقه أبداً في أي شأن من الشئون، إنما هو اسم أطلق على هذه الصفة وتلك، لكن أنا أنظر إن كان الصفة مضافة إلى الله، عرفت أنها معنى يليق بذات الله، إن كانت الصفة مضافة إلى المخلوق عرفت أنه معنىً يليق بالمخلوق، لأن اللفظ قبل الإضافة صالح لأن يراد منه هذا وهذا، مثلما تقول: يد، اليد مطلقاً صالحة لأن يراد منها يد الله، وأن يراد منها يد زيد، أو عمرو، أو كذا، أو كذا فهي صالحة، فإذا أضيفت اليد تعينت، وتخصصت، وأريد منها معنى خاص بمن أضيفت إليه، فلا يجوز أن يطلق هذا المعنى على غيره، أو يثبت لغيره، يعني لما أقول: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ يأتي المعطل يقول: لا أعرف من معنى اليد إلا هذه الجارحة، أقول له: كذبت، فإن لفظ اليد في اللغة لم تستعمل أبداً في الجارحة وحدها، بل استعملت لفظ اليد في

كل شيء يمكن به القبض، والتناول، والإعطاء، والأخذ، اليد في اللغة تطلق على هذا، على كل شيء يمكن أن تقبض به، أو تأخذ به، أو تعطي به، ويمكن أيضاً أن تطلق على الشيء الذي تقبض عليه، يعني الشنطة نسمي اليد التي تمسكها منها يد شنطة، ليست هي التي تقبض، أنت التي تقبض عليها، تسمى يد، ويد القفة [وعاء من الجلد يحمل فيه الأشياء] لأنك تقبض عليها، ويد المقشة [عصا خشبية تستخدم للكنس والنظافة] لأنك تقبض عليها، إذاً كل ما يقبض عليه اسمه يد، وكل ما به التناول، والإعطاء، والأخذ اسمه يد في اللغة، فلماذا خصصت اليد بالجارحة يا شيخ؟ من الذي قال لك، واللغة لا تساعدك على هذا؟ إذاً فلفظ اليد مطلق كلي، يتناول كل ما به الأخذ والإعطاء، فإذا أضيف إلى الله أريد منه صفة لله بها يأخذ، ويقبض، ويعطي، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾«الزمر:٦٧» قبض على الأرض، وطوى السماء باليمين، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾«المائدة:٦٤» ليست مقبوضتين، يعطي بلا حساب، «إن يمين الله ملأى» لأن الإعطاء يكون باليمين، «إن يمين الله ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار»[1] إذاً فقد أثبت الله لنفسه يداً، وأثبت أنه يأخذ بيده، ويقبض، ويعطي، وفي الحديث «أن الله يحثو بيده، أو بكفه ثلاث حثيات من النار، فيطرحهن في الجنة» بعدما تنتهي الشفاعات كلها، يقول الله ﷻ: «لم يبق إلا

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، البخاري (٧٤١٩)، مسلم (٩٩٣).

رحمة أرحم الراحمين، فيحثوا ثلاث حثيات بكفه، بكف الرحمن فيطرحها في الجنة»[١]، فالكف ثابت، واليد ثابتة، والأصابع، والأنامل، كل هذا نثبته لله تبارك وتعالى، مع أننا نعتقد تنزه يد الرب عن أن تكون مماثلة لأيدينا في شيء من الأشياء، اليد التي الكون كله فيها كخردلة، أشبه بيدي، ولا بيدك، ولا بيد جبريل، ولا بيد كذا، الكون كله من عرشه إلى فرشه في كف الرحمن كخردلة في كف أحدنا، كما جاء عن ابن عباس، فكيف يتوهم متوهم عند إطلاق اليد على الله، أنها مثل يد المخلوق، ولهذا يضطرون إلى التأويل السخيف، فيؤولون اليد بالقدرة، مع أن هذا التأويل لا يصلح، ولا يصح، ولا يستقيم، في بعض الآيات ولا ينفع، يعني لما يقول ربنا جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾«الفتح:١٠» يأتي المعطل يقول: ﴿يد الله﴾يعني قدرة الله، أقول له: أنت أسأت إلى القرآن أبلغ الإساءة، وأفسدت معنى الكلام، لأن ما معنى قدرة الله فوق أيديهم؟ قدرة الله تمسك الكون كله،

---

(١) لم أقف على هذه الرواية ولكن الرواية التي ذكرت الكف هي ما ثبت أصلها في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي عليه السلام قال: (يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا بغير حساب) البخاري (٥٨١١)، مسلم (٢١٦)، وزاد لفظ الكف ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني وهذا لفظه: (إن ربي عز وجل وعدني أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا بغير حساب ويشفع لكل ألف سبعين ألفا ثم يحثوا إلي ثلاث حثيات بكفه) الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (٥/ ٢٩٧).

ما معنى قدرة الله فوق أيديهم؟ إنما المبايعة باليد باليمين، فالله ﷻ يقول له: إن هؤلاء حين كانوا يبايعونك، إنما كانوا يبايعون الله لأن الله فوق أيديهم، تؤكد البيع، وتوثق البيع، ليست قدرة الله، لو قدرة الله أفسد المعنى، المعنى فسد، فماذا يقول المعطل في قوله تعالى لإبليس: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ «ص:٧٥» كيف يمكن تأويل اليد هنا بالقدرة؟ أولاً: اليد مثناه، ولا يجوز تأويل اليد المثناه بالقدرة لأن معناها حينئذٍ بقدرتي، كذلك يفسد المعنى، لأن الله تبارك وتعالى إنما أراد أن يبين لإبليس الخصوصية التي اختص بها آدم، وهي أن الله خلقه بيده، فلو أراد بقدرته كان يأتي إبليس ويقول: وأنا أيضاً خلقتني بقدرتك، فما فضل آدم عليَّ؟ ولماذا ميزته عليَّ؟ إذا كان اليد بمعنى القدرة فسد المعنى، ويبقى المعنى الذي أراده الله من تخصيص آدم بهذه الخصوصية وإكرامه بهذه الخصوصية والاحتجاج على إبليس بما امتاز به آدم، ومع ذلك إبليس وهو أعلم مني ومنك لم يعترض على الله لما قال له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ لأن إبليس يعلم أن تلك خصوصية اختص الله بها آدم، ليس له، ولا لغيره من المخلوقين، حتى الملائكة إنما خلقوا بكن، وكل الأشياء خلقت بكن، إلا آدم فإن الله الذي باشر خلقه بيده، بالكيفية التي يعلمها سبحانه وتعالى، هو الذي جمع تراب طينة آدم، وهو الذي أتى بالماء اللي عجن به طينة آدم، وهو الذي سوى الطينة، وهو الذي تركها حتى صلصلت وصارت كالفخار، وهو الذي أمر جبريل أن ينفخ فيها فقام آدم، يعني عملية

تولاها الله بنفسه، وباشرها بنفسه، لم يتدخل فيها أحد، ولم يخلقه بتوسط كلمة كن كما خلق سائر المخلوقات، الأجرام العظيمة كلها خلقت بكن، إلا آدم، وفي الحديث: «خلق الله ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم بيده، وخط التوراة لموسى بيده، وغرس جنة عدن بيده»[1] هذه الثلاثة تولاها الله وباشرها من أجل أهميتها عنده سبحانه وتعالى، يعني غرضي أقول: لا حجة لهم علينا، ولله الحجة البالغة، ونحن نثبت لله كل صفة أثبتها لنفسه من يد، وعين، ووجه، وقدم، ولا نعتقد في شيء من ذلك مماثلة، ولا مشابهة، بين ما هو ثابت لله، وبين ما هو ثابت للمخلوق، هذه القاعدة يجب أن نحرص عليها جيداً، ونحفظها جيداً، لأنها هي التي يشاغبوننا بها، ليس لهم حجة علينا إلا إذا قلنا: إن الله موصوف باليد فقد شبهناه بيد المخلوق، إذا قلنا: إنه يغضب فقد شبهناه بغضب المخلوق، إذا قلنا: إنه يرضى شبهناه برضى المخلوق، وهكذا كله كلام فارغ، بل لله الرضا الذي يليق به، والغضب الذي يليق به، والمحبة التي تليق به، والرحمة التي تليق به، والحكمة التي تليق به، واليد، والوجه والقدم، والرجل، وغير ذلك مما يليق به، ويتنزه ربنا في كل صفاته عن مماثلة أحد من خلقه.

---

(١) رواه ابن بطة في الإبانة من حديث جابر يرفعه، وفي صحيح مسلم: (سأل موسى ربه، ما أدنى أهل الجنة منزلة ... إلى أن قال الله تعالى: أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي) يقول سفيان الثوري: «ونحن نرى أنه جنة عدن؛ لأنه لم يخلق بيده من الجنان شيئا غيرها».

صفات الله تبارك وتعالى كلها كمال، طيب كيف أعرف صفات الله؟

أنا عرفت الأسماء الحسنى الموجودة في القرآن وفي السنة، وأثبت لله ما تضمنته من كمالات، لكن ربما خفي عليَّ بعض هذا، ولم نحفظها، لأن كثيراً منا لم يحفظ أسماء الله الحسنى فكيف نثبت لله كل الكمالات التي تضمنتها الأسماء الحسنى، إذا كنا لا نحفظ الأسماء الحسنى؟ أقول لك: انظر، يكفيك أن تؤمن إجمالاً بأن كل كمال يمكن أن يتصف الله به فهو ثابت له، يكفيك، حتى إذا عرض عليك أي اسم من الأسماء الحسنى أثبت معناه لله، إذاً يكفيك أن تؤمن إجمالاً بهذه القضية، بأن كل كمال ممكن يعني يمكن أن يتصف الله به فهو ثابت له، وأن الثابت لله من الكمال هو أكمل ما يمكن من الأكملية، بحيث لا يكون هناك كمال ممكن والله عارٍ عنه أبداً، لا يمكن أبداً أن يكون هناك كمال.

الأسماء والصفات-٣ المفروض أن يكون رقم ٤ ورقم ٤ يكون ٣

علينا أن نمسك كل اسم من الأسماء الحسنى ونفهم معناه، ونثبته لله تبارك وتعالى، تفصيلاً، يعني تفصيلاً نثبت لله كل ما تضمنته الأسماء الحسنى من الكمالات، فهذا يقتضي منا أن نفهم معنى كل اسم من الأسماء الحسنى، ثم بعد ذلك نثبتها لله تبارك وتعالى، الكمال الثابت لله لا يكون أبداً إلا صفات وجودية، يعني موجودة فعلاً، لا صفات سلبية، ولا عدمية، وهذا ما يميز أهل السنة عن غيرهم من المعطلة، فإنهم حين يريدون أن ينزهوا الله، يذكرون سلوباً وأعداماً، ينسبونها إلى الله، ويظنون بذلك أنهم ينزهون الله، وأنهم يمدحون الله، أبداً، المدح لا يكون صفة سلبية أبداً، يعني أنا أمدحك، أو أمدح ملك من الملوك أقول له: أنت لست نجاراً، أنت لست زبال، أنت ليس كذا، هذا مدح؟! يعني أنا هنا أنفي عنه هذه الأشياء التي لا تليق به، هل مدحته؟ لا ينفع، المدح لا يكون إلا بمدح وجودي، يعني صفة وجودية فعلاً، يأتي واحد يقول: طيب الله تمدح وأثنى على نفسه ببعض السلوك، فنفى عن نفسه الظلم، ونفى عن نفسه العجز، ونفى عن نفسه السفه، وهكذا، فكيف لا يكون هذا مدحاً؟ أقول لك: المدح ليس في نفس السلب، بل فيما تضمنه السلب من إثبات الكمال، يعني لما ربنا يتمدح بنفي الظلم عن نفسه، المدح إنما وقع ليس بنفي الظلم، بل بإثبات ضده وهو العدل، فإنه لما يقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ «فصلت:٤٦» فنفي الظلم نفسه ليس مدحاً، بل ما استلزمه نفي الظلم

من إثبات كمال العدل، ونفي العجز أيضاً ليس هو المدح، بل المدح فيما تضمنه، أو ما استلزمه نفي العجز، وهو إثبات كمال القدرة، وهكذا، لأن المدح في نظرنا نحن أنصار السنة، أو أهل السنة لا يكون إلا أموراً موجودة، ولهذا يأتي الإثبات في القرآن والسنة على التفصيل، لأنه مدح، ويأتي السلب إجمالاً، لأنه ليس فيه مدح، فلما تعد صفات السلوك الموجودة في القرآن أو في السنة، لا يكون واحد على مائة، ولا على ألف من صفات الإثبات، لماذا؟ لأن صفات الإثبات فيها نفي، أما صفات السلوك ليس فيها مدح، إنما فيها تنزيه، والمدح فيها إنما هو بإثبات كمال ضدها لله، فنفي العجز مستلزم لإثبات كمال ضده وهو القدرة، ونفي الجور مستلزم لكمال ضده وهو العدل وهكذا، ولهذا أقول لك: صفات التنزيه أو صفات النفي في القرآن، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾«مريم:٦٥» ، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾«الإخلاص:٤» ، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾«مريم:٦٤» ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾«فصلت:٤٦» يعني آيات معدودة محدودة، إنما انظر لصفات الإثبات، ﴿وهو اللطيف الخبير﴾، ﴿وهو السميع البصير﴾، ﴿وهو الحكيم الخبير﴾ كل آية مذيلة باسمين، ليس باسم واحد من الأسماء الحسنى، يعني لما تأتي للربع الأخير من سورة الحج، تجد كل آية من هذا الربع مذيلة باسمين، ليس باسم واحد، ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ

هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَّ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَّ لَطِيفٌ خَبِيرٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللهَّ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾«الحج:٦٤» ، يعني ذيل باسمين وليس باسم واحد، لأن هذا هو الكمال، إثبات المعاني الوجودية لله هو الكمال، لهذا كان معطلة الصفات الوجودية الكمالية، إنما يثبتون لله سلوباً وأعداماً، ليس فيها مدح ولا ثناءٌ، يقول لك: ليس بجسم، ولا بجوهر، ولا عرض، ولا شبح، ولا بصورة، ولا بذي مقدار، ولا بثقل، ولا خفة، ولا لحم، ولا دم، يعني كلام كله سلوب، ولا يوصف بحركة، ولا بسكون، ولا صعود، ولا هبوط، ولا اتصال، ولا انفصال، إلى آخره، لا ديدننا نحن، ديدن القرآن والسنة، أن نجمل في السلب، وأن نفصل في الإثبات، أن نجمل في صفات السلوب، فلا ننفي عن الله إلا ما نفاه هو عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ، لأننا لسنا بأعلم بالله من نفسه، ولا أعلم به من خير خلقه، فالله أعلم بنفسه من خلقه، ورسوله أعلم به من كل أحد، فلا نثبت إلا ما أثبته الله ورسوله، ولا ننفي إلا ما نفاه الله ورسوله، وتجد آيات القرآن فيها الإثبات، وفيها النفي، فعلينا أن نثبت كل ما أثبته القرآن والسنة، وأن ننفي كل ما نفاه القرآن، ونفته السنة، أجمع آيات الصفات، عندنا آية الكرسي مثلاً، خذها معي، نقرأها معاً، ونرى ما تضمنته من أسماء وصفات في النفي، وفي الإثبات، ﴿اللهُّ﴾علم، اسم الجلالة، وضع لتجري عليه هذه الأخبار كلها الواردة في الآية، ﴿الله﴾قلنا:

أخبر عن نفسه أولاً بأعظم خبر، وهو قضية التوحيد، ﴿لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ صفتان وجوديتان، ﴿الحي﴾ من الحياة، و ﴿القيوم﴾ من القيومية، ومثلما قلت لكم، معنى الحي في حقه سبحانه وتعالى، أنه الحي بالحياة الأبدية الكاملة التي تقتضي كمال الصفات التي تكون الحياة شرطاً فيها، فإذا كان هو حي بأكمل الحياة، كان سمعه أكمل سمع، وبصره أكمل بصر، وقدرته أعظم قدرة، وإرادته أعظم إرادة، لأن الحياة هي شرط الاتصاف بكل هذه الصفات، فإذا كملت الحياة كملت جميع الصفات التي تعتبر الحياة شرطاً فيها، ﴿الحي القيوم﴾ والقيومية معناها كمال التدبير، وأنه لا يغفل عن مملكته لحظة، ولهذا قال لكي يثبت تمام قيوميته، ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ لأن هذا ينافي تمام القيومية، لأنه لو كان ينام لم يكن قيوم، لأن القيوم هو الدائم القيام، هو المبالغ في القيام بشئون خلقه، وتدبير خلقه، فلو كان ينام لم يكن قيوم، ولهذا قال لكي يثبت تمام القيومية، ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ ثم أثبت تمام ملكه بقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ثم من تمام الملك ألا يجرؤ أحد أن يشفع عنده إلا بإذنه، فلهذا قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ثم أثبت تمام علمه، وإحاطة علمه، بكل المعلومات، بحيث لا يشذ عن علمه شيء منها، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني القادم في المستقبل، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يعني الذي مضى وذهب، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ثم قال إن علوم البشر محدودة وقليلة لأنه لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، ثم أثبت عظمته

بإثبات عظمة هذا الملك، فقال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ كرسيه فقط الذي يضع عليه رجله، كما ورد في الحديث «الكرسي موضع القدمين»[١] ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ يعني كلهن في جوف الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة، ثم قال: ﴿وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ أي لا يثقله، ولا يكرس، لا يغلبه حفظ السماوات والأرض، ولا يشق عليه، حفظ السماوات والأرض مع ذلك الاتساع العظيم، ثم أثبت لنفسه اسمين من أعظم الأسماء الحسنى، ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ العلي المطلق، ﴿العلي﴾ من العلو والمراد هنا مطلق العلو، الذي يتناول علو الذات فوق عرشه، ويتناول علو القدر والشرف، ويتناول علو القهر والغلبة، فكل معاني العلو ثابتة لله، ومن أراد أن يحدد في معنى العلو فيجعله علو شرف فقط فقد أساء، لأن الله ما حدد علوه بنوع واحد، وإنما أطلق العلو لنفهم منه أنه علو بكل معاني العلو، ثم قال: ﴿العظيم﴾ وانظر إلى التناسب بين العلي والعظيم، فإنه لا يكون عظيم إلا إذا كان علي، لما يكون عالي على جميع خلقه، فيكون عظيماً، إذاً أعظم من كل خلقه ما دام عالياً، فهنا تناسب بين ﴿العلي العظيم﴾ فلا تثبت العظمة له إلا إذا كان علياً، ولهذا جاء بالعظيم بعد العلي، فكما أثبت لنفسه العلو، أثبت لنفسه العظمة، فهذه آية، تعالى مثلاً لأوائل سورة طه، أيضاً فيها أسماء وصفات ثابتة لله تبارك وتعالى، ﴿طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ

---

(١) أثر صحيح موقوف على ابن عباس رضي الله عنه، انظر مختصر العلو للعلي العظيم (١/ ١٠٢).

الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى تَنزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾«طه:٤» فأثبت الخلق لنفسه، قال خلقنا الخلق، لأنه هو الذي خلق الأرض والسماوات العلى، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾«طه:٥» أي بعد الخلق، يعني ما استوى على العرش إلا بعد الخلق، كما صرحت بذلك الآيات، ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾«الأعراف:٥٤» فالاستواء على العرش إنما كان بعد خلق السماوات والأرض، ﴿الرحمن على العرش استوى لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾«طه:٦» إثبات تمام الملك، ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾«طه:٧» إثبات تمام العلم، لأن الذي يعلم السر، والذي هو أخفى من السر، لا شك أنه يعلم الجهر، لأن العلم بالجهر أهون من العلم بالسر، فلما أثبت لنفسه أنه يعلم السر وأخفى، كان ذلك دليلاً على أنه من باب أولى يعلم الجهر والإعلان، ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾«الرعد:١٠» وذكرتنا هذه الآيات، هذه الآيات فيها صفات كثيرة، انتبه من الآيات ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا

لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾«الرعد:١٣» هذه مجموعة عظيمة من الأسماء أيضاً والصفات أثبتها الله تبارك وتعالى لنفسه في هذه الآيات، عندنا أيضاً أول سورة الحديد، انظر ماذا يقول؟ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾«الحديد:١» قل أما للتناسب بين العزيز والحكيم، لأن العزيز فقط لا ينفع، والحكيم فقط لا ينفع، رجل عزيز ليس بحكيم فهل يكون كاملاً؟ رجل حكيم ليس بعزيز فهل يكون كاملاً؟ لا يتم الكمال إلا باقتران الحكمة بالعزة، لأن كلمة عزيز توهم الغلبة، والقوة، والانتقام، وكذا، و كذا، فربما توهم الإنسان عندما يسمع لفظ العزيز أنه ملك غشوم ظالم جبار، لكن لما تأتي الحكيم خلاص جعلت العزة في موضعها، عزيز لكنه حكيم، يضع العزة في موضعها، فلا يعاقب إلا بالذنب، ولا ينتقم إلا ممن أساء، ولا كذا خلاص ﴿هو العزيز الحكيم﴾ ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾«الحديد:٢» انظلا الآية العظيمة ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾«الحديد:٣» تأمل معي هذه الآية، بدل القديم -كلمة المتكلمين-، بدل كلمة قديم التي قالوها وضع أول، انظر لفظ أول، ماذا يفيد أول؟ لا يوهم نقص بأي حال من الأحوال، بل يفيد أنه الأول، وأن كل ما بعده آيل وراجع إليه، لأن كل الأعداد ترجع

وتؤول إلى الأول، تقول: أول، ثاني، ثالث، رابع، خامس، فكل الأعداد ترجع للأول، فالمآل الأول أثبت لنا معنيين:

أولاً: أنه قبل كل شيء.

ثانياً: أنه كل الأشياء منه وصائرة إليه وتابعة له، لأنه هو الأول الذي انبعثت منه، ووجدت من قدرته كل هذه الأشياء. ﴿والآخر﴾أي الذي لا شيء بعده فالكل يفنى وهو الآخر المنفرد بالبقاء، ثم ﴿الظاهر﴾العالي الذي لا شيء فوقه، ثم ﴿الباطن﴾الذي ينفذ علمه إلى كل باطن من خلقه، فهو قريب من كل مخلوق، أقرب إلى كل مخلوق من نفسه، هذه معنى البطون، نفوذ العلم، نفوذ القدرة إلى آخر ذرة في الخلق، فهو هناك عند مركز الأرض، الذي هو الحضيض السفلي التحتاني، الذي أبعد نقطة في الكون عن عرش الله، الله هناك باطن بعلمه هناك، باطن بقدرته هناك، عند آخر ذرة في آخر الوجود، عند أبعد ذرة في هذا الوجود عن عرش الله تبارك وتعالى، فلكي يصور لنا الإحاطة الزمانية لله، و الإحاطة المكانية لله، فقال في الإحاطة الزمانية: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾يعني محيط بالكل زماناً، هو محيط بالكل أيضاً مكاناً، لأنه الظاهر الذي هو في أعلى مكان، ﴿والباطن﴾ في أسفل مكان بعلمه وقدرته هناك ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾وانظر إلى العرش بينك وبينه كم؟ ثم قال: ﴿يَعْلَمُ﴾يعني مع كونه فوق خلقه مستوٍ على عرشه،

وبينه وبين هذه الأرض تلك المسافات البعيدة ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾«الحديد:٤» ، ثم بعد ذلك يرجع مرة أخرى ويؤكد تمام الملك، فيقول: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾«الحديد:٦» آيات تملأ القلوب من جلال الله ومن خشية الله، ولابد أن نقرأ هذه الآيات ونضع معانيها على قلوبنا، لكي تستشعر القلوب فإنه لا حياة بالقلوب إلا بهذه المعاني، لما قال الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾«فاطر:٢٨» كان يريد العلماء بالفقه والاستنجاء، والوضوء؟ العلماء بمعاني أسماء الله، لأن معرفة الله المعرفة الحقة لا تتم إلا بمعرفة الأسماء الحسنى، ومعرفة الصفات العليا، فأعرف الناس بالله هو أعرفهم بمعاني أسمائه الله وصفاته، فلا يتم لأحد معرفة إلا إذا عرف معاني أسماء الرب وصفاته، وهنا يتدارس الناس في العلم بالله، ثم يتفاوتون في الخشية من الله، لأن الخشية من الله إنما تكون على قدر العلم بالله، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «إني أتقاكم لله، وأعلمكم بالله»[1] فلما كان أعلمنا بالله، كان أتقانا لله، فلا يمكن أن تتم التقوى أو كمال التقوى لأحد إلا بالعلم، بعلمه بالله جل شأنه.

---

(١) متفق عليه من حديث جابر، البخاري (٧٣٦٧)، مسلم (١٢١٦).

وعندنا أيضاً أواخر سورة الحشر، تضمنت أيضاً جملة من الأسماء الحسنى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهَّ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾«الحشر ٢٤:٢٣».

وهناك سورة ﴿قل هو الله أحد﴾بجماع هذا كله، جمع الله كل صفات الإثبات، وكل صفات التنزيه، وكل عقيدة التوحيد، في هذه السورة، التي ورد في الصحيح أنها تعدل ثلث القرآن، وأن من قرأها في ليلة فكأنما قرأ ثلث القرآن، ﴿قل هو الله أحد﴾و ضع تحت ﴿أحد﴾إنفراد بذاته، وانفراد بصفاته، وانفراده بأفعاله، فليس لأحد ذات تشبه ذاته، ولا صفات تشبه صفاته، ولا أفعال تشبه أفعاله، بل هو المتوحد، المنفرد بكل ما له من الأسماء والصفات، وبعدين ﴿الله الصمد﴾ضع تحتها كل صفات الكمال، لأن الصمدية معناها الغنى، وكمال الغنى لا يثبت لأحد إلا إذا ثبتت له كل صفات الكمال، فضع تحت ﴿الله الصمد﴾كل صفات الكمال الوجودية الثابتة لله تبارك وتعالى، ثم نفى عن نفسه الولدية، والوالدية، والكفء، والشبيه، فقال: ﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾وفي هذه القدر في تلك الليلة كفاية لأترككم تتمتعون بكلمة من الأخ الجليل الأستاذ مناع القطان، أخونا الفاضل فليتفضل.

كلمة الأستاذ مناع القطان

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهديه، أيها الإخوة الكرام، فإذا كان لي من كلمة موجزة بعد هذا البيان الصافي، الذي استمعنا إليه من فضيلة الأستاذ الشيخ محمد خليل الهراس، فإنما هي خاطرة وتوجيه، أما الخاطرة، فإنني ما كدت أصل إلى هذا المكان، حتى عادت بي ذاكرتي إلى الأيام الماضية السالفة، ولم يكن عهدي به منذ سنوات، بل تذكرت كيف كنت أخطو خطوات غريبة منذ كنت طالباً إلى هذا المكان، تارة مع بعض إخواني وأنا أقيم هنا في القاهرة للدراسة، وتارة أخرى من بلدة شنشور، بصحبة الأستاذ الفاضل الجليل الشيخ عبد الرزاق العفيفي، وتذكرت هذا الماضي عن بعد، وقد مضى عليه أكثر من ثلاثين عاماً، ولا تزال الدار هي الدار، ولا يزال موضعها هو موضعها، ولا تزال الدعوة الصافية الصادقة هي الدعوة، التي تلتف عليها القلوب المؤمنة، فلقد كنا خلال الأعوام الماضية التي امتدت إليها يد العسف والجبروت إلى دعوة الإسلام، نرقب منطلقات الدعوة الإسلامية في كل فرقة، ونرقب مشاعر الهداية والنور، وكنا نتتبع أخبار جماعة أنصار السنة، والجماعات الإسلامية الأخرى، ونرقب كيف حاول القوم أن ينصبوا شباكهم لكل منبر من منابر الدعوة، ولكل منطلق لدعوتها، حتى يقبضوا عليها بيد من حديد، وكم كانت صدورنا بالغة، عندما تخلصت هذه الجماعة من القبضة التي كانت

تسيطر عليها مع الجماعات الأخرى، وهذا من فضل الله على الإسلام، ومن فضله علينا نحن، نذكره بالشكر لله سبحانه وتعالى، ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ «إبراهيم:٧».

إن هذا المنطلق من منطلقات الدعوة الإسلامية كما عرفت في الماضي، وكما عرفت في الحاضر، وكما شاهدت اليوم، إنما هو دليل قاطع على ما جاء في القرآن الكريم، من قوله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ «الحجر:٩» ومما جاء به رسولنا ﷺ فيما أخبر به، «لا تزلا طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله»[١] ومهما اشتدت الأعاصير في وجه الدعوة الإسلامية.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٣١١)، مسلم (١٥٦).

إلزام الأمة بالأخذ بالسنة

ممن يؤخذ الحديث؟

يؤخذ الحديث من الثقة، المعروف في زمانه، المشهور بالصدق والأمانة، عن مثله، يعني يأخذه عن مثله في الصدق والأمانة، حتى تتناهى، أي ترتفع أخبارهم إلى آخر السند، يعني إلى رسول الله ، حتى تتناهى أخبارهم، ثم يبحثون أشد البحث، حتى يعرفوا الأحفظ، فالأحفظ، يعني يرتبوا الرجال، هذا حافظ صحيح، لكن هذا أحفظ منه، فنضع هذا في الدرجة الأولى، وهذا في الدرجة الثانية، وهكذا ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ، والأضبط فالأضبط، والأقوى مجالسة لمن فوقه، ممن كان أقل مجالسة، ثم يكتبون الحديث، يعني واحد يلازم الشيخ، والثاني أقل ملازمة من الشيخ، وكل منهما روى عن شيخه أحاديث، آخذ من الأطول مجالسة من الذي يطيل الجلوس مع الشيخ أكثر من الثاني، لأنه هذا أفضل، ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ، والأضبط فالأضبط، والأطول مجالسة لمن فوقه، ممن كان أقل مجالسة، ثم يكتبون الحديث من عشرين وجهاً وأكثر، حتى يهذبوه من الغلط، والزلل، ويضبطوا حروفه، ويعدوه عداً، فهذا من أعظم نعم الله تعالى على هذه الأمة، نستودع الله شكر هذه النعمة، ونسأله التثبت والتوفيق لما يقرب إليه ويزلف لديه، ويمسكنا بطاعته إنه ولي حميد، هذا كلام هذا الرجل العظيم محمد بن حاتم فليس أحد، وهذا من كلامه، فليس أحد من أهل

الحديث يحابي في الحديث، لا أخاه، ولا ولده، وهذا علي بن عبد الله المديني، على المديني هذا أستاذ البخاري، شيخ البخاري، وكان البخاري يقول: (ما استصغرت نفسي أمام أحد إلا أمام علي بن المديني) يعني البخاري الضخم هذا العظيم في الحديث، كان لما يقعد أمام شيخه ابن المديني يستصغر نفسه، (ما استصغرت نفسي أمام أحد إلا أمام علي بن المديني) هذا علي بن المديني كان أبوه محدثاً،كان أبوه عبد الله المديني محدثاً، انظر علي بن المديني من كبار نقاد الحديث لما يروي عن أبوه حديث، يقول: حدثني أبي وكان ضعيفاً، انظر حدثني أبي وكان ضعيفاً، هل حابى أباه؟ أبداً، ما حاول أبداً أن يقوي أباه، ولم يستره، بل يصرح بحاله، يعرف الناس بحال أبيه، يقول: حدثني أبي وكان ضعيفاً، فليس أحد من أهل الحديث يحابي في الحديث أباه، ولا أخاه، ولا ولده، وهذا علي بن عبد الله المديني وهو إمام الحديث في عصره، لا يروى عنه حرف واحد في تقوية أبيه عبد الله، بل كان إذا روى عنه قال: حدثني أبي وكان ضعيفاً، قال عبد الله بن المبارك: (الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء)، ومثل الذي يطلب أمر دينه بلا إسناد، كمثل الذي يريد أن يرتقي السطح بلا سلم، الإسناد هو السلم، نعم هو السلم، هل تستطيع أن ترقى السطح بلا سلم؟ كذلك الحديث بلا إسناد ليس له قيمة، ومثل الذي يطلب أمر دينه بلا إسناد، كمثل الذي يريد أن يرتقي السطح بلا سلم، وقال سفيان الثوري رحمه الله: (الإسناد سلاح المؤمن) عندما يأتي المبتدع الضال يقول لك:

ما هذا الحديث من أين أتيت به؟ تقول له: هذا الحديث عن فلان عن فلان عن فلان، إذاً حجتك في الإسناد، سلاحك في الإسناد، الإسناد سلاح المؤمن، فإذا لم يكن معه سلاح فبأي شيء يقاتل؟ كيف تقاتل عدوك إذا لم يكن عندك إسناد؟ قال يزيد بن زريع رحمه الله: (لكل دين فرسان، وفرسان هذا الدين أصحاب الأسانيد) انظر جعلهم فرسان، كفرسان الجهاد أيضاً، والله أكثر من الجهاد، هؤلاء جاهدوا في الحديث أكثر من جهاد الناس في ميدان القتال والله، لكننا لا نرى الذي بذلوه، عصارة حياتهم، وشبابهم كلهم أفنوه في البحث عن الحديث، وطلب الحديث، وتمييز الحديث، قال يزيد بن زريع رحمه الله: (لكل دين فرسان، وفرسان هذا الدين أصحاب الأسانيد).

وفي الجملة أصحاب الحديث هم ورثة علم رسول الله ﷺ، وهم أمناء الله على دينه وحفاظ سنة نبيه، ما عملوا وعلموا)، بشرط أن يعمل ويعلم، قال: يعملوا ويعلموا، يقول أحمد رحمه الله: (ليس قوم عندي خيراً من أهل الحديث، ليس يعرفون إلا الحديث) يعني يقول لك: قال فلان، ورأى فلان، بل يقول لك: قال رسول الله ﷺ، لا يقول لك: قال فلان أبداً، ليس يعرفون إلا الحديث، يعني كلامهم كله بالحديث، قال رسول الله، قال رسول الله، ماذا ستقول له؟ وما هي حجتك عليه؟ ويقول أحمد: (إن لم يكن أصحاب الحديث هم الناس، فلا أدري من الناس) يعني كل الناس بهائم إلا أصحاب الحديث، هذه معناها بصريح العبارة، كل الناس بهائم إلا أصحاب الحديث، (إن لم يكن أصحاب

الحديث هم الناس، فلا أدري من الناس، والحق دائماً لا يكون إلا في جانب أصحاب الحديث)، يقول خليفة العباس هارون الرشيد: (طلبت أربعة فوجدتها في أربعة، طلبت الكفر في الجهمية) يعني بحثت عنه، فوجدته في الجهمية المعطلة الذين يعطلون صفات الله وأسماء الله، (وطلبت الكلام والشغب فوجدته في المعتزلة) لأنهم أهل كلام وأهل شغب، وأهل مناظرة وجدل، (وطلبت الكذب فوجدته عند الرافضة) الذين هم غلاة الشيعة، (وطلبت الحق فوجدته مع أصحاب الحديث)، وقال أحمد بن سنان رحمه الله: (كان الوليد الكرابيسي خالي) أحمد بن سنان رجل من أهل الحديث الكبار، كان له خال اسمه الوليد الكرابيسي كان من أهل الكلام، وكان من تلامذة حفص القرد[1] كان من أهل الكلام والجدل في زمن الشافعي، وكان الشافعي وجميع أئمة الإسلام يكرهون الكلام والجدل، وكان يقول: (حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في العشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، واشتغل بالكلام).

كان الوليد بن الكرابيسي خالياً، فلما حضرته الوفاة قال لبنيه: تعلمون أحداً أعلم بالكلام مني؟ قالوا: لا، قال: فتتهموني، قالوا: لا، قال: فإني أوصيكم أتقبلون؟ قالوا: نعم، قال: عليكم بما عليه أصحاب الحديث، فإني

---

(١) مبتدع، قال النسائي: صاحب كلام لا يكتب حديثه، وكفره الشافعي في مناظرته. انظر ميزان الاعتدال (١/ ٥٦٤).

رأيت الحق معهم، بعدما عاش طول عمره في الكلام والجدل، أوصى بنيه هذه الوصية العظيمة، فإني رأيت الحق معهم، وأهل الحديث قد امتازوا على الناس بفضيلة الرحلة في طلب الحديث، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ «التوبة:١٢٢» ، فهذه الآية تشمل كل من رحل في طلب العلم والفقه ثم رجع به إلى من ورائه من قومه ليعلمهم إياه، وقد ورد أن الله يرفع البلاء عن هذه الأمة برحلة أهل الحديث، وكان سفيان الثوري رحمه الله يقول: (سماع الحديث عز لمن أراد به الدنيا، ورشاد لمن أراد به الآخرة) إن كنت تريد الدنيا فالحديث يوصلك، لو كنت تريد الدنيا الحديث يوصلك للدنيا، فهو عز لمن أراد به الدنيا، يعني من أراد به الحظوة والجاه عند الملوك، وعند الأمراء، يدخل على الأمراء والملوك بدون [خوف ولا رهبة][1] وكان سفيان الثوري رحمه الله يقول: (سماع الحديث عز لمن أراد به الدنيا، ورشاد لمن أراد به الآخرة)، وبلغ من عنايتهم بالرحلة في طلب الحديث، وأن ذلك من الأعمال التي كانوا يتنافسون عليها، ويتسابقون فيها، إن أحمد بن حنبل رحمه الله، ويحيى بن معين، اتفقا على أن يرحلا إلى اليمن، ليسمعا الحديث من عبد الرزاق بن همام، محدث أهل اليمن، فجاء عبد الرزاق الموسم ليحج، فالتقى به يحيى بن معين، فقال له: أنا وأحمد بن حنبل اتفقنا أن نذهب إلى اليمن لنسمع منك،

---

(١) كلمة غير مفهومة.

وربنا جاء بك وكفانا مؤنة السفر، فما الذي حصل والرجل استعد لك يروي لهم الأحاديث في مكة قبل أن يسافر؟ الذي حصل أن أحمد بن حنبل لام أخاه يحيى بن معين، وقال له: من الذي قال لك أن تقول له: ارو الأحاديث لنا هنا وقد نوينا الرحلة في طلب الحديث؟ لن أسمع منه حديثاً ها هنا، ولا بد أن يرجع ونرحل إليه لنطلب الحديث عنده، يعني يسر الله لهم سماع الحديث في مكة، وأتى الرجل إليهم، لكن أحمد يتلذذ بالسفر والرحلة في طلب الحديث، ويذهب إلى هناك مسكيناً، وتنفذ نقوده، ولم يجد قوته، ثم يعرض عليه عبد الرزاق مالاً فلم يأخذ منه شيئاً، وإخوانه يعرضون عليه ولم يرض، ثم يعمل لهم بالأجرة لأجل أن يأكل، ويكتب للناس الذي تريد أن تنسخ فينسخ لهم بالأجرة، لأجل أن يعيش أحمد هذا العظيم.

وكان الخلفاء يجعلون في بيت المال نصيباً لأصحاب الحديث لئلا يشغلهم السعي على الرزق عن سماع الحديث وتحمله، وديننا الإسلامي ليس دين كلام ورأي، وإنما هو دين آثار، فمن ليس له معرفة بالآثار، فهو خلو من كل علم، ومن كل فضيلة.

وكان يقاس فضل الرجل وشرفه بمقدار ما يحمل من الأحاديث، وكان سفيان الثوري إذا رأى الشيخ لم يكتب الحديث، يقول له: لا جزاك الله عن الإسلام خيراً، لو يجد رجلاً عجوزاً، شيخاً كبيراً ثم يسأله هل كتبت الحديث؟

هل رويت الحديث؟ هل سمعت الحديث؟ يقول له: لا، يقول له: لا جـزاك الله عن الإسلام خيراً، أنت مثل الجرب الفارغ.

وكان السلف رحمهـم الله تعـالى يـرون الاشـتغال بالحـديث أفـضل مـن عبادات التطوع، يقول سفيان الثوري رحمه الله: (ما أعلم على وجه الأرض مـن الأعمال أفضل من طلب الحديث لمن أراد به وجه الله)، يعني مـن حـسنت نيتـه فيه، لمن حسن قصده في طلب الحديث، يكون أفضل من صلاته، وصيامه، بـل وجهاده، وكان وكيع رحمه الله يقول لأصحابه: (لولا أن الحديث أفضل عنـدي من التسبيح والصلاة مـا حـدثتكم)، معنـى كلامـه: كنـت اشـتغلت بالـصلاة والتسبيح أفضل، الذي أجلـسني معكـم، أن مـا أنـا فيـه أفـضل مـن التـسبيح والصلاة، (لولا أن الحديث أفضل عندي من التسبيح والصلاة مـا حـدثتكم)، يعني يقصد صلاة النافلة، بل كانوا يرون طلب الحديث وأدائه بمنزلة الـصلاة، فقد مر ابن عمر ﷺ على موسى بن يسار وهو يحدث، فقـال لـه ابـن عمـر: (إذا فرغت من حديثك فسلم فإنك في صلاة) وقيل لأحمد بن حنبل رحمـه الله: أيهـما أحب إليك الرجل يكتب الحديث أم يصوم ويصلي؟ فقال أحمد: (لا، بل يكتب الحديث)، ويقول أبو بكر الخطيب رحمـه الله: (طلـب الحـديث في هـذا الزمـان أفضل من سائر أنواع التطوع، لأجـل دروس الـسنن وخمولهـا، وظهـور البـدع واستعلاء أهلها)، وقد روي عن الصحابة رضي الله عنهم آثار كثيرة، في الحـث على حفظ الحديث، ونشره، ومذاكرته، قال عـلي بـن أبي طالـب ﷺ: (تـزاوروا

وتذاكروا الحديث، فإنكم إلا تفعلوا يذهب)، وقال ابن مسعود ﷺ: (تذاكروا الحديث فإن حياته المذاكرة)، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (تذاكروا هذا الحديث لا يفلت منكم، فإنه ليس بمنزلة القرآن، إن القرآن مجموع محفوظ، وإنكم إن لم تذاكروا هذا الحديث تفلت منكم، وليقولن أحدكم: حدثت أمس فلا أحدث اليوم، بل حدث أمس، وحدث اليوم، وحدث غداً) في كل وقت حدث يا أخي، وقال أبو سعيد الخدري ﷺ: (حدثوا فإن الحديث يذكر بعضه بعضاً)، ولمن يكن شيء ألذ إليهم من رواية الحديث، حتى كان بعضهم يغتم غماً شديداً إذا تأخر عليه طلابه، إذا الطلاب تأخروا يغتم، حتى كان سفيان الثوري رحمه الله يقول: (لو لم يأتون لأتيتهم في بيوتهم) يعني: إن لم يأتوا هم، أذهب لهم أنا، وكان معمر يقول: (ما من بضاعة أشد على صاحبها إذا بارت من هذا الحديث).

وأما الطاعنون في السنة، الماكرون بها، فإني أحب قبل الدخول معهم في مناقشة حول ما أثاروه من شبهات ومطاعن، أن أوجه إليهم التساؤلات الآتية ليجيبوا عليها:

أولاً: لمصلحة من تقفون هذا الموقف من سنة نبيكم؟ لمصلحة من أريد أن أعرف؟ المصلحة في هذا الموقف لمن؟ ستعود على من؟ طبعاً لا هي عائدة على الإسلام، ولا على أمة الإسلام، وإنما المصلحة لأعداء المسلمين، من المبشرين، والصهاينة، والمستشرقين، هؤلاء عملاء عند هؤلاء، عملاء عندهم،

لمصلحة من تقفون هذا الموقف من سنة نبيكم؟ أهي الغيرة على الحديث كما تزعمون؟ فالغيرة لا توجب الإنكار والجحود، أنتم تحطمون الحديث غيرة؟! هل الغيرة على الشيء أنك تحطمه؟ أم تنقية وتهذبه، فالغيرة لا توجب الإنكار والجحود، ولكنها توجب تنقية الأحاديث مما دخلها من الزيف والتحريف، وهذا ما قام به السلف رحمهم الله، فإنهم كما قلنا: لم يتركوا حديثاً منها إلا عرفوا طرقه كلها، ورجال إسناده، وحالهم من حيث العدالة، أو الجرح، ووضعوه بعد ذلك، يعني وضعوا الحديث بعد ذلك في موضعه اللائق، من صحة، أو حسن، أو ضعف، أم هي الغيرة على القرآن، بسبب مزاحمة الحديث له؟ نعم يقولون: تترك الأحاديث تطغى على القرآن، وهي مخالفة ومعارضة للقرآن؟ فهذه غيرة لا معنى لها، لأن القرآن عند المسلمين جميعاً في المكان الذي لا يزاحم، ولا ينافس، لا أحد قال أبداً: أن السنة منافسة ومزاحمة للقرآن، لأن ما في أحد من المسلمين يجعل السنة في منزلة القرآن أبداً، لأن القرآن عند المسلمين جميعاً في المكان الذي لا يزاحم، ولا ينافس، والحديث الذي يطلب من أجل معرفة معاني القرآن، وبيان أحكام القرآن، فكيف ينافس الحديث القرآن؟ أم هي الرغبة في إصلاح الدين؟ يمكن يقولون: لا، نريد إصلاح الدين، نريد نزيل هذا الفساد على الدين ونصلح الدين، فهل يعتقد هؤلاء أنهم أحسن ديناً، وأقوم ديناً من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم من أئمة الهدى والصلاح، الذين زخرت بهم وبأعمالهم الكتب والتراجم، والذي بنوا لنا الصرح المشيد

من العلم والمعرفة؟ يعني يريدون يصلحوا هذا الدين، فهل الدين كان فاسداً في أيام أبا بكر، وعمر، وأيام الصحابة، والتابعين والأئمة الكبار؟ أكان الدين فاسداً وأنتم تريدون أن تصلحوه الآن؟ هذا هو المعنى، تريدون أن نصلح الدين، رحمك الله يا أبا بكر أن كنت ساعة فساد الدين، لماذا لم تصلحه؟ وأنت يا عمر أين كنت، أشد الناس في دين الله كيف تركت دين الله خسران؟ أظن بل أعتقد أن من يفكر مثل هذا التفكير لا بد أن يكون مدخولاً في عقله، فإن حرص السلف على نقاء الدين وسلامته من كل دخيل، وذبهم عن بيضته وحماه، أمر قد أدهش أعداء الإسلام أنفسهم، واستولى على إعجابهم، وهو أمر لا يمكن أبداً لأحد بعدهم أن يعقب عليه بزيادة، أو بنقص، أو استدراك بوهم، أو تخطئة، فهم قد كفونا المئونة في هذا السبيل، والحمد لله رب العالمين.

ثانياً: السؤال الثاني: لماذا تختارون بالذات كبار المحدثين هدفاً لحملاتكم المسعورة، وموضعاً لطعناتكم ومطاعنكم؟ فهاهو هو أحدهم قديما يكتب عن أبي هريرة ، صاحب "ظلمات حول السنة" اسمه أبو رية، لماذا؟ لأنه يعلم شهرته في رواية الحديث، وآخر يختص البخاري بنقده وتهجمه، لأنه يعلم أنه أمير المؤمنين في الحديث، فهل تظنون أيها البلهاء الحمقى، أنكم إذا استطعتم أن تنالوا من هذه الرؤوس الكبيرة أن يتم لكم ما أردتم من طمس معالم السنة، وإطفاء نورها، فبئس ما تظنون، وقبح ما تتخيلون، إن السنة لا يمكن أن تنال

منها، مثل هذه المؤامرات الدنيئة، ولا يضيرها تشغيبكم على الكبار من حملتها، والله ﷻ فقد برأهم مما تهمونهم به، كأبي هريرة.

ولنأخذ أبا هريرة نموذجاً، أبو هريرة الذي اتهمه أبو رية، ثبت في الإحصاء الدقيق أن أبا هريرة روى ثلاثة آلاف حديث، الصحيح من أحاديث أبي هريرة، معظمه قد وجد مروياً من طرق أخرى غير أبي هريرة، رواه غيره من الصحابة، وكل الذي انفرد به أبو هريرة من الصحيح ثلاثمائة حديث، ثم نجد تشنيعاً على أبي هريرة، واتهام أبي هريرة، وكل الذي رواه أبي هريرة وانفرد به من الأحاديث الصحيحة عن غيره من الصحابة ثلاثمائة حديث، وأيضاً لما تفتش ستجد أيضاً أن هذه الأحاديث ربما لها طرق أخرى من غير طريق أبي هريرة، فأبو هريرة ؓ ثبت في الإحصاء الدقيق أن معظم ما رواه من الأحاديث الصحيحة قد وافقه عليها كثير من الصحابة، أما الأحاديث الضعيفة فلا شأن لنا بها، ولم ينفرد فلا شأن لنا بها، ولم ينفرد أبو هريرة عن غيره من الصحابة إلا بثلاثمائة حديث فقط، وهو عدد يسير لا يقتضي التشنيع والتشييع، وأما البخاري رحمه الله فهو الصخرة التي لا يستطيع نطحها أحد، وإلا تكسرت قرونه.

كناطح صخرة اليوم ليوهنها		فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

فقد عقد له لواء الإمارة على الحديث وأهله، بجدارة واستحقاق، بعد امتحانات قاسية، واختبارات عنيفة، يعني لم يأخذ الإمارة في الحديث بسهولة، بل أخذها بالعلم الصحيح، والتمحيص الدقيق، البخاري ارتحل إلى بغداد ليسمع من شيوخها، فاسم البخاري دوى في آفاق الأرض، كل الناس عرفوا أن هناك شيخاً اسمه البخاري، وبعدين أهل بغداد كلهم يخرجون للقاء البخاري، ويمشي البخاري في موكب أعز وأرفع من موكب الملوك والقواد الفاتحين، حتى يدخل المسجد، وبعدين علماء بغداد يريدون أن يمتحنوا البخاري، ويريدون أن يذل البخاري أو يسقط، لكي تزول هذه العظمة التي أحاطت بالبخاري، راحوا اختاروا عشرة أحاديث، وكل واحد منهم، هم كانوا عشرة، كل واحد منهم أخذ حديث وقلب إسناده، غَيَّر إسناده، وراحوا للبخاري فالأول قال له: ما رأيك في الحديث الذي رواه فلان عن فلان عن فلان؟ وذكر متن الحديث فقال: لا أعرفه، والثاني: ما رأيك في الحديث الذي رواه فلان عن فلان عن فلان؟ قال: لا أعرفه، حتى انتهى العشرة، وبعدما انتهوا، نظر للأول قال له: الحديث الذي ذكرته: الصحيح أنه عن فلان، عن فلان، عن فلان، ونظر للثاني: الحديث الذي ذكرته الصحيح أنه عن فلان، عن فلان، عن فلان، إلى أن انتهى من العشرة، فقاموا يقبلون يديه، ورجليه، ويعرفون له فضله وشهرته في حديث رسول الله ﷺ.

انظر الآن يأتي تافه في آخر الزمان ينازع البخاري ويستدرك على البخاري، ومن العجيب أن هؤلاء الطاعنين يظهرون بمظهر مجل للسنة، المشفق عليها، من أن تنالها يد التحريف، والتبديل، ويظهرون بمظهر المشفق على القرآن، أن تطغى عليه السنة المبدلة، الذي تعارض في زعمهم مفهومه ومعناه، كل ذلك ليخدعوا أصحاب العقول الضعيفة عن هدفهم الأصيل، وهو القضاء على السنة، فيدخل عليهم بعد ذلك القضاء على الإسلام كله، الهدف الإسلام وليس الهدف السنة، السنة هدف أول، حتى إذا قضي على السنة فماذا بقي في الإسلام؟

انظر ماذا صنع اليهود لما أرادوا القضاء على المسيحية؟ عمدوا إلى المبادئ والأصول التي تمسك بها المسيحيون، أو اجتمعوا عليها، وأخذوا يشككونهم فيها واحدة بعد واحدة، إلى أن سقطت المبادئ، وأصبح المسيحيون بلا مسيحية، فهذا هدف اليهود الآن، أن يسقطوا عنا المبادئ، والأصول التي نرجع لها في ديننا، القرآن لم يقدروا عليه.

لو استطاعوا أن يصرفونا عن السنة، لو استطاعوا أن يجعلونا نكفر بالسنة، سيأتي يوم نكفر بالقرآن، سيأتي يوم نقرأ القرآن ونقول: ما معنى هذا الكلام؟ لأني أرجع إلى السنة في فهم معاني القرآن، وإذا لم يكن هناك سنة من أين أعرف معاني القرآن؟ فهذه خطوات يسير فيها أعداء الإسلام خطوة بعد خطوة لكي ينزعونا من الإسلام، أو ينزعوا الإسلام عنا، هذا هو الهدف كله،

الهدف ليس السنة فقط، الهدف الإسلام، الهدف الكيد للإسلام، ومن الغريب أن هؤلاء الذين يتعرضون لسادة الأمة، بالطعن والتجريح، لا يعرفون في اللغة العربية أبسط المبادئ، فربما نصبوا الفاعل، أو رفعوا المفعول، أو رفعوا المنصوب، أو نصبوا المرفوع، أنظر إلى أحدهم يقول في أول صفحة من كتابه: "حتى يعلمون ما فيه من دين وتدين"، حتى يعلمون؟! وحتى ماذا تصنع؟! حتى تستطيع أن تأكل أنفك، أفلا تأكل النون؟! هذه تأكل أنفك يا جاهل، أنا أقول لك: عفواً، ويعف عن كثير، حتى يعلمون ما فيه من دين وتدين، وفي موضع آخر بعد ذلك، هناك أثبت النون مع وجوب الحذف، لأنه منصوب بـ"حتى" هنا أثبت النون أيضاً مع وجوب النصب، يقول: "ويتعين عليهم أن يعودون إلى القرآن الكريم....[1] متواترة ومؤيدة بنصوص القرآن ومعانيه" وفي هذه العبارة من التمويه والمغالطة ما لا يخفى، فإن مثل هذه السنة العملية المتواترة التي يذكرها هنا لا تحتاج إلى دفاع أمثالك، ما دامت عملية، وما دامت متواترة، إذاً لماذا تدافع عنها، لماذا تدافع عن عمل متواتر؟ ما هو ثابت ثبوت الطود، ثبوت الجبل، يعني انظر التمويه والمغالطة، والمطلوب الدفاع عن هذه السنة التي هي العملية المتواترة، الموافقة للقرآن، لا تحتاج هذه للدفاع، فإن مثل هذه السنة العملية المتواترة لا تحتاج لدفاع أمثالك، ولكنه يريد أن يقول: إن مثل هذه السنة هي التي يجب أن تكون محل العناية والاهتمام، وأما السنة

---

(١) قطع في الصوت.

القولية فلا اعتداد بها، ولا وزن لها، هذا هو المقصود، المقصود أن يقول لك: ليس هناك سنة قولية، كل "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" يريدون أن نضرب به عرض الحائط، إنما ندور على السنن العملية التي ورثناها عملاً عن رسول الله ككيفية الصلاة أو غير هذا، هذا قصده وهدفه القضاء على السنة القولية، وبعدين يقول: المتواتر يعني غرضه يطعن أحاديث الآحاد، طيب أحاديث الآحاد، إذا صح سنده لماذا نطعن فيه؟ لماذا ننكره ما دام صح السند؟ ثم يقول: "وأهم ما يطلب من المؤمنين –ممن هم على شاكلته– وأهم ما يطلب من المؤمنين هو رد الأحاديث التي تخالف القرآن الكريم في نصه، أو في معانيه"، قال: أنا لا أقبل حديثاً يخالف القرآن أبداً، لكن الحمد لله ليس هناك حديث صحيح خالف القرآن أبداً، وهذا سيتأتي أيضاً، وسنتكلم عن الأحاديث ونأتي بها وننظر أي شيء منها خالف القرآن.

وليس هناك في السنة الصحيحة بحمد الله ما يخالف القرآن في نصه أو معناه، لا يوجد حديث صحيح يخالف أبداً القرآن، إنما قد تأتي السنة بأحكام زائدة على القرآن، وهل هذا اسمه مخالفة؟! يعني لما يأتي القرآن ويقول: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾«المائدة:٣» فيذكر هذه المحرمات ثم يأتي النبي عليه الصلاة والسلام يحرم لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر، أو يحرم كل ذي ناب من السباع، أو مخلب من الطير، فهل هذا فيه تعارض؟! فيه مخالفة؟! أبداً، هذه زيادة من السنة على ما حرمه القرآن،

وللرسول ﷺ أن يحرم، لأن الرسول يحرم بالوحي، ولا يحرم من عنده، ولهذا كان ينادي في خيبر لما وجد لحوم الحمر الأهلية في القدور، تغلي بها القدور: «فإن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية فإنها رجس»[1]، إن الله ورسوله، لأنه يبلغ عن الله، من الذي بلغنا القرآن؟ الجواب: النبي عليه السلام، ومن الذي يحرم؟ الجواب: النبي عليه السلام، ولماذا أخذنا منه القرآن، ولا نأخذ منه التحريم والتحليل؟! وأما نهيه ﷺ عن كتابة غير القرآن، وهذه قطعة يأتون بها، النبي نهى عن كتابة غير القرآن، صحيح النبي نهى، فما الحكمة في نهيه؟ خشية أن يلتبس القرآن بغيره، وأما نهيه ﷺ عن كتابة غير القرآن فذلك كان أولاً خشية الالتباس بالقرآن، وقد ذكرنا أنه رخص لعبد الله بن عمرو في كتابة الحديث، ثم اسمع إليه –أي الطاعن في السنة– في جهله بأسماء الصحابة، حيث يقول في صفحة سبعة عشر عن أبي سعيد الخضري، مرفوعاً: «لا تكتبوا عني غير القرآن» ثم يقول في صفحة ثمان عشر: "الأئمة الثلاثة يخالفوا" لماذا هنا نصبت؟ لماذا هنا حذفت النون مع أنه لا يوجد لا ناصب ولا جازم؟ لا، هناك يثبت النون مع وجود الناصب والجازم، هنا حذف النون ولا ناصب ولا جازم، يقول: "الأئمة الثلاثة يخالفوا كثيراً من النصوص"، ولست أدري ما الذي نصب يخالفوا هنا، ولم يتقدمها لا ناصب ولا جازم؟ ولكن نصبها الجهل الوقح، وأما أن النبي ﷺ لم يدون السنة كما دون القرآن، فإن القرآن هو سجل

---

(١) متفق عليه من حديث أنس، البخاري (٢٩٩١)، مسلم (١٩٤٠).

هذا الدين، فلا تجوز الزيادة عليه ولا النقص منه، ولا التغيير، ولا التبديل فيه، وأما السنة فقد وكلها إلى حوافظ أصحابه الواعية، وأفهامهم الثاقبة، ولكي لا تلتبس بالقرآن، كما جاء في الحديث فلما أمن اللبس، ورأى بعض الخلفاء الراشدين أن الخير في التدوين، في تدون السنة أمروا بتدوينها، ماذا فيها أيضاً؟ وأما ترك بعض الصحابة التحديث خوفاً من التزييف على رسول الله ﷺ فهذا من شدة ورعهم وتحريهم، لأنه خشوا أن يدخلوا في وعيد قوله عليه الصلاة والسلام: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[1] وأما ابن عباس يقول: ابن عباس لما نأتي نقيس ما روي عنه، نجد أشياء كثيرة جداً، الموجود في الكتب عن ابن عباس كثير جداً، مع إن ابن عباس، النبي مات وابن عباس صغير، لم يأخذ عن النبي إلا قليل من الأحاديث، ثم نجده روي عنه أحاديث كثيرة كيف نفسر هذا، بين ما حفظه ابن عباس بالفعل وبين ما روي عنه؟ أقول للجاهل مثلما قلت لكم: إن ابن عباس بعد وفاة رسول الله حاول أن يجمع علم الصحابة إلى علمه، فكان يذهب إلى دورهم، فيجلس على باب دورهم، لكي يأخذ ما عندهم من علم، لأنه سيعرف أن سيحتاج إليه بعد ذلك، هذا هو السبب في كثرة رواية ابن عباس، أنه أخذ من الصحابة رضي الله عنهم، فبعضه أخذه من رسول الله، وبعضه أخذه من الصحابة، وأما ابن عباس فقد قلنا: أنه أخذ ما عند غيره من الصحابة في الحديث فضمه إلى ما حفظه هو من رسول الله

---

(١) متفق عليه من حديث أنس، البخاري (١٠٨)، مسلم (٢).

ﷺ، ثم يقول: إن الفتنة بين علي ومعاوية كانت هي الفرصة بدس الأحاديث، نعم الفتنة كانت أحد أسباب وضع الأحاديث، ولكن علماء الحديث لم يخف عليهم ذلك، ولهذا لم يرووا شيئاً عن المبتدعة، الدعاة إلى بدعتهم، خشية أن يكونوا قد وضعوا ذلك ترويجاً لهم، المحدثون لم يرووا عن مبتدع أبداً يكون داعية إلى بدعته، أولاً: أحاديث علي نفسها لا يأخذونها من أتباع علي، إنما يأخذونها من أتباع ابن مسعود، لأن أتباع علي شيعة، والشيعة كذابون، فأهل الحديث لا يأخذون أحاديث علي من شيعة علي، وإنما يأخذونها من تلاميذ ابن مسعود، لأن شيعة علي يكذبون على علي، لكن تلاميذ ابن مسعود لا يروون عن علي إلا ما سمعوه منه، ولكن علماء الحديث لم يخف عليهم ذلك، و لهذا لم يرووا شيئاً عن المبتدعة، الدعاة إلى بدعتهم خشية أن يكونوا قد وضعوا ذلك ترويجاً لهم، بل السنة تأتي، ثم قال: اختلاف الرأي في أيهما أفضل؟ الرواية بالنص، اسمحوا لي لأن هذا صنعته في يوم واحد، فقد يكون وقع فيه بعض الوهم، ولكن هناك شيء محذوف قد نجده الآن، فالسنة تأتي مبينة للقرآن لا مخالفة للقرآن، وأما ما يتوهمه هؤلاء الطاعنون من تعارض بين القرآن والسنة، فلا وجود له إلا في عقولهم المريضة، ثم يتحدث عن مكان القرآن من السنة، فيورد الآية الكريمة ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ «النحل:٤٤» ثم يقول: ومن هنا تصبح السنة راجعة إلى القرآن الكريم، وتكون هي التفصيل لمجمله، والبيان المبسط لمختصره، وهذا عين ما قلناه، إننا

قلنا: إن السنة تأتي لتفصيل ما أجمل من القرآن، لبيان ما أبهم من القرآن، لتقييد ما أطلق القرآن، لكن ليس هذا فقط، فقد تأتي السنة كما قلنا: بأحكام متممة ومكملة للقرآن، وهذا عين ما قلناه، ولكن ليست كل السنة كذلك، بل منها ما يثبت به أحكام زائدة على ما جاء به القرآن الكريم، وما دام كل منهما وحياً من عند الله فسواء ثبت الحكم بالقرآن أو بالسنة، مثل بعضها، ثم يورد كلام بعض الأئمة مما يفهم منه رجوع السنة إلى الكتاب، ثم يقول: والعمدة في الدين كتاب الله تعالى في المرتبة الأولى، والسنة العملية المتفق عليها في المرتبة الثانية، انتهبوا إلى هذا الدس ، ليس الدس في الحديث، الدس في كلامه هو، ما العمدة في الدين؟ كتاب الله؟ صحيح، ثم في المرتبة الثانية السنة العملية المتفق عليها، لماذا قيدت السنة كونها عملية، وكونها متفق عليها، انظر الدس، لماذا يقول هذا؟ لكي يرفض كل السنة القولية، فعلى كلامك، اذهب وامسح البخاري ومسلم، لأنهما مليئان بالسنن القولية، يقول: إننا نريد سنن عملية فقط، أما أن العمدة في الدين كتاب الله تعالى في المرتبة الأولى فهذا مما لا شك فيه، لا أحد يشك في ذلك، وأما تخصيص السنة العملية -المتفق عليها- في المرتبة الثانية، فهذا تخصيص لا موجب له، ولا دليل عليه، بل السنة كلها سواء كانت قولية أو متواترة أو آحاد، فهي في المرتبة الثانية، بعد القرآن متى كانت صحيحة من حيث الإسناد.

ثم يذكر دليلاً على وجود الدس في الحديث فيقول: النبي ﷺ كان يأمر أصحابه باللجوء إلى الطبيب، وفي إثبات ذلك تكذيب لحديث الحبة السوداء، «الحبة السوداء شفاء من كل داء، إلا السام»[١] حديث صحيح ثم يقول: إن أمر النبي أصحابه بالتطبب، واللجوء إلى الأطباء، يثبت كذب حديث الحبة السوداء، لماذا؟ أي تعارض إذاً بين قوله: «الحبة السوداء» وبين أمره بالتطبب؟ هل هناك تعارض؟ وأين هذا التعارض بين هذا وهذا؟ النبي يخبر أن الحبة السوداء فيها شفاء، ثم يأمر رجلاً أصحابه ممن ألم به المرض يقول له: عليك بالطبيب مثلاً، ليس يأمره أو يجبره، إرشاد فقط، حتى اختلف العلماء، هل يجوز للمريض أن يعرض نفسه على طبيب أو لا يجوز؟ فبعضهم قال: الأولى أن يعرض، لأن النبي عليه الصلاة والسلام أمر بالتداوي وقال: «يا عباد الله تداووا، فإن الله ما خلق داء، إلا خلق له دواء»[٢]، فأي تعارض ومنافاة بين إخباره عن الحبة السوداء بأنها ، وبين حثه على التطبب؟ على أنه عليه الصلاة والسلام لا يعني أن الحبة السوداء شفاء من جميع الأدواء، لم يرد في الحديث هذا أبداً، بل من الأدواء التي تصلح للحبة السوداء أن تكون شفاء لها، كأمراض المعدة مثلاً، إنما لما أذنك تؤلمك فالحبة تشفيك؟ لا، ما يقصد الرسول ذلك أبداً،

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، البخاري (٥٦٨٨)، مسلم (٢٢١٥).

(٢) رواه أبو داود في سننه (٣٨٥٥)، الترمذي (٢٠٣٨). والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٢٩٣٠).

إنما يقصد الرسول أن الحبة السوداء شفاء من أمراض المعدة مثلاً، أو أمراض الأمعاء، وكقوله تعالى مثلاً: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾«الأحقاف:٢٥» ، فهل الريح دمرت كل شيء إذاً؟ لا، تدمر كل شيء صالح للتدمير، ولذلك قال: ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾إذاً المساكن لم تدمرها الريح، مع قوله: ﴿تدمر كل شيء﴾فكل بحسب، كل تستعمل في كل شيء بحسبه، يعني لما قال: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾«الأنعام:١٠٢» هو شيء، الله شيء، فهل خلق نفسه؟ صفاته شيء، فهل خلق نفسه؟ خلق كل شيء يصلح للخلق، يصلح أن يخلق من الممكنات، إنما هو واجد الوجود، ولا يحتاج إلى خلق.

ثم قال انظر الجهل: اختلاف الرأي في أيهما أفضل: الرواية بالنص، أو الرواية بالمعنى؟ انظر الدس إذاً، يريد أن يقول لك: إن هذه الأحاديث كلها مروية بالمعنى، النبي لم يقل ذلك الكلام، لكي يشكك فيها، ومادام النبي لم يقلها،إذاً يقل احترامها عندنا، كيف أحترم كلام ليس كلام الرسول؟ هذا قصده، هذا هدفه، أن يشككنا في السنة، وينزل بالسنة عن قداستها في قلوب المؤمنين بها، وهذا كلام يدل على جهل قائله، فإنه لا خلاف بين العلماء من أن الرواية بالنص متعينة، ولا تجوز الرواية بالمعنى إلا بشروط ذكرها المحدثون في كتبهم، مصطلح الحديث، بل إن بعض الصحابة لما كانوا يروون الحديث، يقولون: أو كما قال رسول الله، يخشى أن يكون قد غير لفظاً من ألفاظ الحديث، فيأتي في آخر يقول: أو كما قال رسول الله ﷺ، وأما اختلاف البخاري ومسلم في

رواية حديث بني قريظة الذي هو: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»[1] فهو يقول: إن البخاري روى العصر، في كل رواياته العصر، ومسلم روى الظهر، فما هو الصواب؟ رجح العلماء رواية البخاري، وما المشكلة؟ ما يحملنا على هدم السنة، الاثنين اختلفوا في رواية لفظة، هذا قال: العصر، وهذا قال: الظهر، طيب ننظر أي الروايتين أرجح؟ وقد رجح الجمهور رواية البخاري الذي هو العصر، «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة» وهو أرجح من رواية مسلم، فقد وهم مسلم، أو وهم الراوي، وهم من روى عنه مسلم، فهل نهدم السنة بسبب وهم بعض الرواه؟ وأما اختلاف البخاري ومسلم في رواية بني قريظة هو اختلاف لا يضر، وقد رجح الجمهور رواية البخاري، ورواية الظهر وهم من أحد الرواة، وأما قصة تأبير النخل فاختلاف الرواية فيها هو اختلاف تحبير فقط، وأما المعنى فهو واحد في سائر الروايات، وأما اختلاف روايات البخاري في الموضوع الواحد فهو راجع إلى تعدد الطرق، البخاري يأتي مثلاً في حديث يرويه في عدة أبواب، وفي كل باب يرويه بألفاظ تختلف عن ألفاظ الحديث في الباب الآخر، لماذا؟ الجواب: هذا بحسب اختلاف الطرق، لأن البخاري في هذا الباب رواه عن فلان، عن فلان، ثم في الباب الثاني رواه من طريق ثانية عن فلان، عن فلان، غير الطريق الأولى، فحصل اختلاف في الطرق، فاختلاف الألفاظ راجع لاختلاف الطرق، لأن الطرق تعددت، يعني

---

[1] البخاري (٩٤٦)، ومسلم بلفظ الظهر (١٧٧٠).

الرواة هنا غير الرواة هناك، هذا هو السبب في اختلاف الألفاظ في الحديث، رأينا طبعاً الرواية هذه طريقة، روت الحديث بألفاظ، ورجع البخاري أتى بالحديث من طريق ثانية بألفاظ أخرى، فاختلفت الألفاظ بسبب اختلاف الطرق التي روى منها البخاري الحديث، هذا اختلاف الطرق، وهذا لا شيء فيه، يعني المعنى واحد، وأما اختلاف البخاري في الموضوع الواحد، هو راجع إلى تعدد طرقه، ففي كل طريق يروى بألفاظ غير ما يروى به في الطرق الأخرى، ولكن الاختلاف بينهما هين، ويسير، ولا ضرر فيه، وأما الخلاف بين أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما في بعض الأحاديث كحديث «إن يكن شؤم ففي ثلاث: في الدار والمرأة والفرس»[1] أم المؤمنين قالت: النبي لم يرويه كذلك، قالت: «كان أهل الجاهلية يقولون: إن يكن شؤم ففي ثلاث» والحقيقة أن الخطأ عند أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ورواية أبي هريرة هي الصحيحة، أبو هريرة لم يرو إلا ما سمع من رسول الله، وعائشة لم تسمع هذا الحديث، لكن عائشة استعظمت أن يقول النبي هذا الكلام، فحطت من الحديث [وزعمت أن] النبي يقول: «كان أهل الجاهلية يقولون ...» والصواب أن النبي عليه السلام لم يقل هذا، بل قال: «إن يكن شؤم ففي ثلاث» والحديث صحيح، وأبو هريرة رواه كما سمعه من رسول الله ﷺ، فإن الحق فيها مع أبو هريرة، فإنه روى ما سمعه من رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٧٢).

وقد خالفت عائشة عمر في حديث القليب، وهي لم تر، ولم تسمع، أما عمر فقد سمع النبي يقول لأهل القليب، أو لأصحاب القليب: «يا فلان، يا فلان، إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل ما وعد ربكم حقاً» فقال له عمر: (يا رسول الله أتخاطب قوماً قد جيفوا؟) قال: «ما أنتم بأسمع منهم لما أقول، ولكن لا يجيبون»[1] وقد شكت عائشة في الحديث أيضاً، وأنكرته، مع أن عمر ﷺ وهو من هو روى الحديث وسمع الحديث، يعني كون عائشة تنكر الحديث فليس معنى هذا أن الحديث غير صحيح، لأن من حفظ حجة على من لم يحفظ، والمثبت مقدم على النافي، هذه قاعدة عند أهل الحديث، أن من حفظ حجة على من لم يحفظ، وأن الثابت مقدم على النافي، وقد خالفت عائشة عمر في حديث القليب وكان الحق مع عمر رضي الله عنهما.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

[1] رواه مسلم (٢٨٧٤).

إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً

قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ «الإنسان:٣»، وقال أيضاً: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ «الكهف:٢٩» لأن الله تعالى أراد أن يعبده الإنسان بمحض رغبته، وإرادته، واختياره، ولم يرد منه أن يعبده جبراً وقصراً، كما تعبده ملائكته مثلاً، فالملائكة مجبولون على العبادة والطاعة، ﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ «التحريم:٦» ، ولكن الإنسان حر مختار، يملك أن يطيع، ويملك أن يعصي، ويملك أن يسير في طريق الهدى والاستقامة، ويمكن أن يتنكب هذا الصراط، وأن يسير في طريق الشقوة والضلال، ومن أجل هذا استخلفه الله في هذه الأرض، ليبلوه وليختبره، ولتكون أعماله وطاعاته صادرة عن رغبة منه، وطواعية، واختيار، لأن الله يحب أن يعبده عبده حراً، مختاراً، لا مجبوراً، ولا مكرها على عبادته، وطاعته، ومن أجل هذا كان الإنسان هو موضع العناية الإلهية، وكان هو الصلة بين العالمين: عالم المادة، وعالم الروح، عالم الغيب، وعالم الشهادة، وجعل الله في الإنسان كما قلنا في الدروس السابقة هذين الجندين، المتقاتلين، المتناحرين، جند العقل يؤيده عون الله، وتوفيقه، وتسديده، وشرعه، وهداه، وجند الشهوة والهوى، يزين له الشيطان، ويمد له في حبل غروره، ويدعوه إلى الشر، وإلى الفواحش، فهذان الجندان في الإنسان في حرب سجال، لا تهدأ، ولا تفتر، حتى يغلب أحد الفريقين، ويهلك الفريق الآخر،

والإنسان هو إما ضحية هذه الحرب، إما أن تطحنه هذه الحرب، وتهلكه، وتبعده عن الله ﷻ، وإما أن يكون له فيها الغلبة والانتصار، فيفوز برحمة من الله ورضوان، فإذا غلب جند العقل، وحكم الإنسان عقله في كل ما يعرض له، يستشير عقله، ولست أريد بالعقل هنا ذلك العقل الذي يستقل بنفسه، والذي يعول على قوته في الحكم على الأشياء والتمييز، بين ضرها ونفعها، فإن العقل وحده جند ضعيف، جند مهزوم أمام الشهوات الجارفة، وأمام الهوى الغالب، والشيطان المزين، ولكن يجب أن يستمد العقل القوة، وأن يأخذ له سلاحاً من الشرع يهديه وينير له الطريق، ويزيح عنه العقبات التي تعترضه في طريقه، فإذا أخذ العقل هذا المصباح القوي مصباح الشرع، مصباح الهداية الإلهية، وسار به تبينت له كل العقبات التي تريد أن تبعده، وأن تزحزحه عن صراط الله ﷻ، وتبينت له دخائل نفسه الأمارة بالسوء، وتبين له مكر الشيطان، وكيده، وتزيينه، ووسوسته، فيصير هذا الإنسان على نور من الله و بصيرة، فيستطيع العقل في هذه الحالة أن يرجو الفوز، والغلبة على عدوه الماكر، ولكن العقل إذا عول على نفسه واستقل ولم يستضئ بنور الله الذي أنزله، ولم يتبع هدى الله، الذي أرسل به رسله عليهم الصلاة والسلام، فإن هذا العقل لا بد أن يضل، ولا بد أن يغوى، ولا بد أن يهلك، ولا بد أن تصيبه المعاطب، لأنه ليس معه نور يهديه، والطريق مليء بالعقبات، ومليء بالمصاعب، ومليء بالأشواك، فإذا لم يتخذ العقل من نور الله وشرعه مصباحاً يضيء له الطريق، فلا بد أن يتيه

ويضل، ولا بد أن ينقطع دون الغاية، ولا بد أن يغلبه عدوه، وأن يقهره، وأن يستولي عليه، وأن يجعله خادماً مطيعاً له، بعد أن كان هو سيداً عليه، هكذا أراد الله ﷻ للإنسان، هكذا أراد أن يضعه في بوتقة الامتحان، وأراد أن يتركه على هذه الأرض يسعى لنفسه، ويختار لها، والله ﷻ يسجل عليه، يعني البوتقة هي المخبار التي يوضع فيه الشيء لتسخينه، لصهره، البوتقة هي الشيء الذي تصهر فيه المعادن، وشيء من هذا، فنحن نريد بالبوتقة هنا يعني هذه الشهوات المستعرة، التي يعيش الإنسان في بوتقتها، هذه الشهوات المستعرة بين جنبيك، والتي تريد منك أن تكون عبداً خادماً لها، والتي تريد منك أن تطيعها، وأن تنفذها، وأن تقضي لها وترها، وتريد منك ألا تفكر إلا فيها، وألا تعمل إلا لها، هذه هي بوتقة الامتحان التي وضعك الله ﷻ فيها، ولكن الله لم يسلمك إلى هذه الشهوات لتعبث بك، وتستبد بك، ولكنه أوجد لك جنداً من عنده، تستطيع أن تصهر بها هذه الشهوة، وأن تخضعها، وأن تقهرها، وأن تكفها، وأن تلزمها الحدود إذا هي تمردت عليك، وإذا هي تمادت في طغيانها، فهذه الحالة التي وجد الإنسان عليها من أول الأمر، هي الحالة التي أهلته للخلافة على الأرض، لأن شيئاً ما من مخلوقات الله ﷻ ليس له مثل ما لهذا الإنسان، وليس في نفسه من الجند، ولا من الحرب، مثل ما يجد الإنسان في نفسه من جند، ولا ما يجد في نفسه من حرب مستعرة، وهذه الحرب هي التي تؤهل الإنسان إما للسمو والقرب من خالقه، وإما للتجثي والبعد، وتضرب بينه وبين ربه حجاباً

غليظاً من الشهوات والهوى، الواجب إذاً على العبد كما قلنا أن يتذكر أنه إنسان، وأن فيه من جند الله، ومن جند الشيطان، وأنه يجب عليه أن يعين جند الله على عدوه الشيطان، فإن المؤمن يجب أن يكون مع ربه على عدوه، وأما الكافر فهو كما يقول الله ﷻ: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾«الفرقان:٥٥» يعني أن الكافر يعين عدو الله على ربه، فيكون واحداً من جند هذا العدو يطيعه وينقاد له، ويعصي الله في طاعة هذا العدو، فهذا يعينه على ربه، وأما المؤمن فيعين ربه على هواه، وعلى نفسه، وعلى شهوته، وعلى شيطانه، فالمؤمن واحد من جند الله، لسنا نريد من هذا أن الله ﷻ في حاجة إلى عون من العبد في هذه الحرب، ولكنك إذا علمت العداوة التي بين الله والشيطان، أو بينك وبين الشيطان، وأن كل واحد منهما يريد لنفسه جنداً يطيعه ويتبعه، فيكون عوناً له على عدوه، فالشيطان بما له من مكر وحيلة، يحاول أن يستحوذ على عباد الله جميعاً، وأن يصرفه عن طاعة الله ﷻ، وهذا الذي يفعله الشيطان، إنما يريد به صرف عباد الله عن عبادة الله، ويريد به أن يحمل هذا الإنسان الذي إنما خلق لطاعة الله ولعبادة الله، يريد أن يحمله على معصية الله، وعلى الكفر بالله، فإذا أطاع الإنسان شيطانه، وانقاد له، وترك طاعة الله ﷻ وعبادته، كان كأنه يعين هذا الشيطان على ربه، كما قلت لك، يا أخي لسنا نريد من هذا أن الله في حاجة إلى عون العبد، ولكن الله ﷻ يريد من العبد شيئاً، ويريد منه الشيطان شيئاً، فإذا هو أطاع الشيطان فيما يريد، وترك طاعة الله التي

يحبها الله ويرضاها، ترك طاعة الله التي يحبها منه ويرضاها، وانضم إلى عدوه الشيطان، كان في هذه الحالة كأنه يعين عدو الله على الله، كما يقول سبحانه: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾، يعني يظاهر عدو الله، ويعاون عدو الله على معصية الله، من الشرك بالله، والإفساد في الأرض، وعلى فعل الأشياء التي يكرهها الله، ويمقتها، ولا يحبها، ولا يرضاها، وليست المسألة مسألة عون مادي، بأن يكون الله ﷻ في حرب مادية مع الشيطان، فهو يريد من الإنسان أن يكون معه في هذه الحرب المادية، لا إنما المسألة مسألة معنوية قرباً، لأني إذا كان الله ﷻ قد خلقني لعبادته، وطاعته، وحذرني من عداوة الشيطان وكيده، فضربت أنا بإرشاد الله وهدايته عرض الحائط، واتبعت عدوه الشيطان وانقدت له، وانضممت إلى حزبه، وإلى جنده، أفلا يكون هذا عوناً للشيطان على ربه؟ نعم، فالواجب في هذه ، أن يعرف الإنسان، أن في هذه الحرب المستعرة، بين جند العقل وجند الشهوة، وأنه يجب عليه أن يكون مع العقل دائماً، وألا يغفل لحظة واحدة في هذا الحرب، فإن العدو يتربص به، ويحاول أن يجد منه غرة وغفلة، ينتهزها فيثب عليه وثبة واحدة، فيضله ويهلكه، ومن الحكم أيضاً التي جعل الله ﷻ آدم من أجلها خليفة عنه في أرضه، أن آدم هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يعبد الله ﷻ بكل نوع من أنواع العبادة، فكما أن عبادته تقع منه عن حرية واختيار، بلا جبر ولا إكراه، وهذا ما يحبه الله ﷻ من الإنسان، أن يعبده طوعاً واختياراً، كما تقع عبادته منه هكذا طواعية

واختياراً على ما يحبه الله ويرضاه، كذلك له أنواع من العبادة ليست لغيره من المخلوقات، فالمخلوقات إما كائنات عاقلة، ولكنها لم تركب فيها شهوات، وليست مستعدة لأن تعصي الله ﷻ كالملائكة، وإما مخلوقات ركبت فيها شهوة، ولم يركب فيها عقل، ولا اختيار، فهي تجري مسترسلة مع شهواتها، لا تعرف إلا ما تأكل، وما تشرب، وما تنكح، ونحو ذلك من سائر شهوات الجسد ومنافعه، وإما جمادات مسخرة للإنسان في السماء وفي الأرض، وهي تلك الأجرام التي نشاهدها، من شمس، وقمر، ونجوم، وتلك العوالم الأرضية، التي نلمسها، ونحسها، من جبال، وأنهار، وأشجار، وهواء، إلى غير ذلك، فهذه أصناف المخلوقات التي خلقها الله ﷻ، فالإنسان يمتاز عنها جميعاً، بأنه المخلوق الذي له من أنواع العبادة لله ﷻ ما لم يتوفر لواحد من هذه المخلوقات.

ولنبدأ مثلاً بالملائكة، فالملائكة هم سكان السماوات، وهم خدم الله ﷻ، الذين وكلهم بشئون خلقه، فمنهم من وكله بالوحي، الذي ينزله على رسله وعلى أنبيائه، وجعله معلماً وسفيراً بينه وبين رسله، ومنهم من وكلهم الله ﷻ بالأرزاق والأمطار، فهو ينزلها بإذن الله وإرادته، ويستعملها فيما أذن الله له فيه، ومنهم الموكل بأرواح بني آدم، فهو يقبضها عند الموت، ومنهم من وكل بنفخ الروح في الإنسان، وفي كل ذي روح وحياة، ومنهم الموكل بالنباتات، ومنهم الموكل بالأنهار، وفي السحاب، إلى غير ذلك من أنواع التوكيل، ومنهم الحفظة

الكرام الكاتبون، الذين وكلهم الله ﷻ بخلقه من بني آدم، يحصون عليهم أقوالهم وأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾«الانفطار١٢:١١» فهؤلاء الملائكة الموكلون بهذه الأعمال، والتي لا يعصون الله ﷻ فيها أبداً، بل يمتثلون ما أمرهم به، ومع ذلك فأمر واحد يمتثله الإنسان لربه، ويقوم فيه لله ﷻ بحقه، أحب إلى الله مما يفعل هؤلاء الملائكة، لأن الملائكة جبلت على أن تنفذ أوامر الله، وجبلت على ألا تعصي الله، وجبلت على أن تسير في الطريق الذي رسمه الله لها، ولكنك تنازعك الشهوات، وينازعك الهوى، وتطرأ عليك الغفلة، ويعرض لك النسيان، وتزاحمك هذه الشهوات على نفسك، ويزين لك الشيطان ما بين يديك، وما خلفك، ومع ذلك إذا أنت قمت لله فقهرت هذه الأشياء كلها، ولم تستطع أن تعوقك عن خدمة مولاك وسيدك، وصرفت عن نفسك كل هذه الصوارف والشواغل، فلم تفتنك، ولم تصرفك عن عبادة الله ﷻ، بل قمت لله ﷻ بما أوجبه عليك من خدمة وطاعة، كانت هذه الطاعة أحب إلى الله ﷻ مما يفعله الملائكة بإذنه وأمره، فهؤلاء الملائكة لم تركب فيهم شهوات تنازعهم، وتغالبهم على أمر الله ﷻ، أو تصرفهم على طاعة الله سبحانه، ولكنك أنت، أنت الإنسان الذي تستعر فيك هذه الشهوات، وتضطرم فيه نيران الهوى، والميل إلى أغراض هذه الدنيا ومادتها، فعينك تطمع، وأذناك تسمع، ولسانك يتكلم، ويداك تبطش، ورجلاك تمشيان، ومع ذلك هذه القوى كلها فيك، تريد

أن تعمل في طلاقة، وبلا قيود، وبلا حدود، فإذا أنت استطعت أن تلزمها حدود الله ﷻ، وأن تقيمها على أمر الله سبحانه وتعالى، وأن ترسم لها الطريق الذي تسعى فيه وتعمل، وتحجبها عن معاصي الله سبحانه وتعالى، وتلزمها طاعته، كنت بذلك خليقاً بخلافة الله، وكنت أنت المخلوق المقرب إلى الله، لأنك جاهدت فيه، ولأنك أشقيت نفسك وأتعبتها من أجله، ولأنك كنت حارساً على حواسك، ومشاعرك، وعلى القوى التي تعتمل وتضطرم فيك، كنت حارساً عليها، وجاهدتها، وغالبتها، حتى استقامت لك على أمر الله ﷻ، فأين منك هذا الملك، الذي يعمل ما يعمل ولا يحس بشيء ينازعه، أو يغالبه، أو يريد أن يصرفه عن غايته وعن طريقه؟ هذا أيها الإخوة المعنى الذي لا يتوفر في الملائكة، معنى الجهاد، جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الشهوات، هذا الجهاد الذي خلق له الإنسان، والذي رسم للإنسان طريقه من أول يوم خلق الله ﷻ فيه هذا الإنسان، هذا الجهاد هو الذي تميز به الإنسان عن ملائكة الرحمن، وكذلك يمتاز الإنسان عن جميع المخلوقات التي تعايشه وتساكنه على هذه الأرض، لأن هذه المخلوقات على كثرة أصنافها، وتعدد أنواعها، لم تخلق إلا لهذا الإنسان، لم يركب فيها الله ﷻ، ولم يودع فيها هذا النور الذي أودعه في الإنسان، وهو نور العقل، المميز، المفكر، الذي يفهم، ويعقلن ويتلقى عن الله ﷻ أمره، ونهيهن وحكمه، فالإنسان إذاً هو المخلوق الذي يحب الله عبادته، ويحب خدمته، ويحب طاعته، ويجعله إذا هو قام بهذه الخدمة، ووفى لها بحقها،

أقرب، وأكرم مخلوق على الأرض، الله ﷻ هو الخالق لكل شيءن والمدبر لكل أمر، ولا تتحرك ذرة في السماء، ولا في الأرض، إلا بإذنه، ومشيئته، ولكنه سبحانه وتعالى جعل له جنداً، وخدماً، سماهم الملائكة، وكلهم بهذه الأعمال التي يعملونها بإذنه وأمره، فالملك لا يتصرف من عند نفسه، ولا يفعل إلا ما أمره الله ﷻ به، الملك يفعل ولكن الله هو الذي أذن، وهو الذي شاء، وهو الذي دبر بحكمته، وهو الذي أمر الملك أن يفعل، وقوة الملك التي بها يفعل، إنما هي من عند الله ﷻ، فلا حول للملك، ولا قوة، وإنما الحول والقوة لله ﷻ وحده، ولكن هيبة الملك، وعظمة السلطان، تقتضي أن يكون للسلطان حاشية، أن يكون له أعوان وخدم، يسارعون إلى تنفيذ ما يأمرهم به، ويريده منهم نعم، الخدم لا أقصد أعوان، ولكن أضرب المثل، ولله المثل الأعلى، يعني أن السلطان لا يتم له ملكه، ولا تظهر عظمة سلطانه، إلا إذا كان من حوله جند من خدم وحشم، يأمرهم وينهاهم، ويتصرفون بإذنه، وأمره، فيما يريد، فمن أجل هذا اتخذ الله ﷻ الملائكة ولو شاء الله ﷻ لفعل بقدرته كل ما يريد، ولا يعجزه شيء، لا في السماوات، ولا في الأرض، لا يعجزه شيء، ولا يخفى عليه شيء، ولو شاء لخلق الأشياء ودبرها بلا واسطة، لا ملك، ولا غير ملك، ولكنه أراد أن يصرف أمور خلقه سبحانه وتعالى بواسطة جند من خلقه، وهم الملائكة، فالإنسان يستطيع بما له من قول، وما ركب فيه من حياة، ومشاعر، وشهوات، يستطيع أن يعبد الله ﷻ بأنواع من العبادة، لا يستطيعها، ولا يقدر عليها أحد

من خلق الله، فالإنسان مثلاً لأنه إنسان يحتاج إلى مادة هذه الأرض، ليأكل، وليشرب، وليلبس، وليسكن، ولينتفع بمواد هذه الأرض التي سخرها الله ﷻ له، يرى نفسه في حاجة إليها، ويرى نفسه مائلة إلى هذه الأشياء، التي تلائم طبعه، وتناسب حياته الدنيا، فهو لذلك يستطيع أن يعبد الله بالشكر، وأن يعبده بالصبر، فعبادة الشكر، وعبادة الصبر، من العبادات التي اختص الله بها هذا الإنسان، لأنه إذا وجد هذه النعم التي يحس بالحاجة والفقر إليها، وعلم أن الله ﷻ هو موليها، وواهبها، ومالكها، وأنها من فضله ورحمته سبحانه وتعالى، وأنه هو وحده الذي أنعم بها عليه، استطاع الإنسان أن يقابل هذه النعم بما تستحقه من الشكر، فيعرف لله ﷻ حقه فيها، يعرف هذه النعمة أولاً، و يعترف بها لخالقها وواهبها، ويثني عليه سبحانه وتعالى بما هو أهله، على ما أنعم به عليه، ثم يصرف هذه النعم، ويستعملها في محبوبات الله ﷻ ومراضيه، ولا يستعملها في معصيته، ولا فيما يمقته ربنا ويسخطه، فهذه هي عبادة الشكر، التي تكون عند النعمة، فعلى قدر إحساس الإنسان بحاجته إلى هذه النعم، وضرورته، وافتقاره إليها، تكون معرفته بها، ويكون اعترافه بالله ﷻ، ويكون حمده وثناؤه على الله من أجلها، ويكون قيامه بالشكر عليها، وتصريفها في طاعة الله، وفيما يحبه ربنا ويرضاه، فالملائكة مثلاً هل يستطيعون أن يعرفوا قدر هذه النعم، كما يعرف الإنسان؟ لأنهم لم يحتاجوا إليها، ولم يشعروا بضرورة، ولا فقر نحو هذه النعم، لأنهم لم يركبوا تركيب الإنسان، ولم يخلقوا من مادة الأرض كما

خلق الإنسان، فهم ليسوا بحاجة إلى هذه النعم التي يحتاجها الإنسان، وإذا كانوا لا حاجة لهم بهذه النعم، إذاً فهم لا يستطيعون أن يعرفوا قدرها، لأن من يعرف قدر هذه النعم هو الذي أحس بضرورتها، وحاجته إليها، ثم هو الذي يستطيع أن يعرف حق المنعم فيها، وأن يقوم له بشكرها، وأن يوفي لها حقها من شكر المنعم ﷻ وطاعته، كذلك عبادة الصبر، مثلاً فالإنسان بما ركب فيه من شهوات، ولأنه جسد مركب من أعضاء، وهذه الأعضاء عرضة للتلف، وعرضة للخلل، وعرضة لأن تعتريها الأمراض، والمهلكات، يستطيع بهذا أن يعبد الله بعبادة الصبر، لأنه قد يبتلى بالحرمان والفقر، ولا يجد ما يحتاجه من مادة هذه الحياة، مع شدة فقره وحاجته إليها، فيتلقى هذا الحرمان، وهذا الفقد، بالصبر والضراعة إلى الله ﷻ، يصبر على فقد هذه الأمور التي يحس بضرورتها، ويحس بحاجته إليها، ثم هو مع صبره على هذا الفقد، وهذا الحرمان، يرى غيره متمتعاً ومنتفعاً بها، ومع ذلك لا يحسده، ولا يحقد عليه، بل يرضى بما قسمه الله ﷻ له، ويستسلم لأمره، ويذعن لحكمه، ويرضى بقسمة سيده، ولا يعترض عليه، ولا يقول له: لما فعلت بي كذا وكذا، فهذه عبادة الرضا، وعبادة الاستسلام لحكم الله، وأمر الله، وقضائه، وهذه عبادة الصبر على ما يبتلى به الإنسان من فقر وحاجة، وعلى ما يبتلى به من مرض وضعف، وعلى ما يبتلى به من شهوات، كتب عليه أن يجالدها، وأن يجاهدها حتى لا تطغى وحتى لا

تستولي عليه، والإنسان أيضاً بما ركب فيه من هذه الشهوات، أصبح عرضة للوقوع في المعاصي، وأصبح عرضة لارتكاب الذنوب والخطايا.

وهنا تجيء عبادة أخرى من أحب العبادات إلى الله، وهي عبادة التوبة، عبودية التوبة، والضراعة، والذل، والانكسار بين يدي الله ﷻ عند الوقوع في الخطيئة، هذه العبودية لم تكن إلا للإنسان، الذي يستطيع أن يخطئ، ويستطيع أن يذنب، وهذه العبودية، عبودية التوبة، من أحب أنواع العبادة إلى الله ﷻ، وما قدر الله ﷻ على العبد الذنوب، إلا لأنه يحب من عبده أن يتوب عليه، يحب من عبده أن يتوب إليه، وأن يرجع إليه، وأن يستغفره مما وقع منه، وأن يندم على معاصيه، وأن يذل وأن ينكسر بين يدي الله ﷻ، إذا وقع في خطيئة من هذه الخطايا «ولو لم تذنبوا وتستغفروا، لجاء الله بقوم يذنبون ويستغفرون»[1] فالله ﷻ قدر الذنب على العبد إظهاراً لعزة ربوبيته، لأن وقوع الخطيئة من العبد إنما هو مظهر من مظاهر عزة الرب جل شأنه، وأن حكمه وقضاؤه نافذ في عبده شاء أم أبى، لا يغير عقله، ولكن العبد أحياناً تعتريه غفلة، وتهجم عليه الشهوة، فتنسيه عقله، وتنسيه إيمانه، وتبعده عن الذكر، الذي يستطيع به أن يصد هذه الشهوات، وأن يغلبها، فإذا ما وجدت هذه الغفلة وثب الشيطان، ووقع الإنسان في الخطيئة، فكل خطيئة وقعت من المؤمن، لم تقع منه لأنه عمد إليها، ولا أنه أحب أن يخالف الله، وأن يعصيه، ولا أنه يحب أن ينتهك حرمات الله،

---

(١) رواه مسلم (٢٨٤٨).

أو يجترئ على حدود الله، ولكنه الغفلة، ولكنه الهوى الذي يغلبه، والذي إذا وثب على العبد في غفلته فإنه يوقعه في معصيته، دون أن يعمد إليها أو يفطن، والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾«النساء:١٧» ما الجهالة؟ الجهالة أن تنسى ذكر الله ﷻ وأن تغفل، فتطغى الشهوة وتقوى، فتقع في الذنب بجهالة، أو غير عامد، ولا قاصد إلى وقوع الذنب، ولكن الشهوة غلبت عليك، فأنستك نفسك، وأنستك ذكر الله ﷻ، وخلى الله ﷻ بينك وبين نفسك حتى وقعت في الخطيئة عقوبة لك على ما نسيت من ذكر الله ﷻ، لأن هذه الخطيئة لم تقع منك إلا لأنك كنت مع نفسك، ولم تكن مع الله، كنت مع نفسك حال الخطيئة، ولم تكن مع الله ﷻ، إنما لما مالت نفسك إلى الشيء لم تحجزها، ولم تذكر الله ﷻ عند هذا الميل، فانتهزت نفسك، وانتهز شيطانك هذه الغفلة منك، فأوقعك في المعصية، فنسي آدم، نسي آدم ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾«طه:١١٥» نسي آدم أمر الله، ونسي تحذير الله الذي حذره من عداوة الشيطان وكيده، لن هواه وشهوته غلبت عليه في تلك الحالة، فغطت على ما قلبه من ذكر الله ﷻ، وأما ما دام القلب ذاكراً لله، وما دام القلب مع الله، وما دام القلب يستمد العون والمدد من الله، فلا يستطيع أبداً أن يجد الشيطان إليه سبيلاً، وما وقع من وقع في شيء من معصية الله ﷻ إلا عن جهل، وغفلة، وغلبة هوى، ومن استطاع أن يفلت من قبضة عدوه، وأن يقهر شهوته إلا من

ذكر الله ﷻ عند الشهوة، واستمد منه العون والمدد على كبح جماح شهوته وصرفها عما طلب، ذكر الله ﷻ أن تذكر أن هذه الشهوة التي تميل بك نفسك إليها، و يسولها لك الشيطان، مبعدة لك عن الله ﷻ، وأنها مما نهى الله ﷻ عنه، وأنك عبد له ولا ينبغي من العبد مخالفة سيده والوقوع في معاصيه، فإذا ذكرت هذا، إذا ذكرت عبوديتك لله، وإذا ذكرت نهي الله ﷻ عن هذه الشهوة، وإذا ذكرت أنك لا حول لك ولا قوة، إلا بفضل الله وتوفيقه، وعونه وتسديده، فاستمددت العون منه سبحانه وتعالى، وبرئت من حولك وقوتك، إلى حول الله وقوته، وعلمت أنه لو خلى بينك وبين نفسك لا بد أن تقع، ولا بد أن تذل، ولكن عنايته سبحانه وتعالى هي التي تنقذك من مخالب عدوك، وهي التي ترد إليك صحتك وعافيتك، وهي التي تصرف عنك ظلام الشهوة، وتصرف عنك المعصية، فالواجب على العبد أن يكون مع الله ﷻ دائماً، وألا يغفل عن ذكر الله لحظة واحدة، فإن الغفلة هي أكبر عون للشيطان على العبد، والشيطان واقف لك بالمرصاد، يتربص بك غفلة من الغفلات، فيثب عليك منها، يثب عليك، ولا يثب عليك الشيطان أبداً إلا حين الغفلة، وأما ما دمت في حالة ذكر لله ﷻ فلا يستطيع أن يثب عليك الشيطان، ولا أن يدخل إلى قلبك، فهذه العبودية عبودية التوبة، هي التي امتاز بها الإنسان عن غيره من المخلوقات، فالملائكة لم يذنبوا، حتى يتوبوا، ويستغفروا، ولكن الإنسان هو الذي يذنب فيتوب ويسترجع، وتوبة الإنسان واستغفاره وندمه وضراعته إلى الله، وذله وانكساره

عند وقوعه في الخطيئة، وعلمه أن هذه الخطيئة تبعده عن الله ﷻ، وطلبه من الله أن يصرفها عنهن وأن يمحوها، حتى لا يعاقبه عليها، هذه الذلة، وهذه الضراعة، وهذا الانكسار بين يدي الله، من أحب العبادات إلى الله، وهذا هو الذي امتاز به الإنسان، لما قدر الله ﷻ على آدم الخطيئة، قالت الملائكة، وظنت الملائكة أن آدم سوف لا يعود إلى مكان القرب من الله ﷻ ما دام قد وقع في المعصية، ظنوا أن آدم قد هلك هلاكاً لا نجاة بعده، ولكن لما جاءه توقيع التوبة من الله ﷻ وعلمه الله هذه الكلمات ليقولها ليتوب الله ﷻ عليه ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ «الأعراف:٢٣» فتاب الله ﷻ عليه، واجتباه، وهداه، ومحا عنه أثر تلك الخطيئة، لأنها تاب، وأناب، ورجع، وعلمت الملائكة أن لله في هذا الإنسان سراً لم يكونوا قد عرفوه، ظنوا أن المعصية ليس لها دواء، ولكن الذي قدر داء الذنب قدر له دواء التوبة، فالتوبة من الذنب كالدواء للعليل، ورب علة كانت سبب الصحة، هذا الذنب الذي أنت تخاف منه، وتخاف أن تقع فيه، ويحق لك أن تخاف ذنبك، وتخشى أن تقع فيه، ولكنه مع ذلك قد يكون من الحكمة، والرحمة، والمصلحة، ما لا تعلمه أنت، ولكن يعلمه الله الذي قدره عليك، ألا تعرفوا أن هذا الذنب ربما أزال عنك حالة من العجب والغرور، كانت ستكون سبب هلاكك وبعدك عن الله ﷻ، فجاء هذا الذنب دواءً لهذا الغرور نعم، قد يجيء الذنب دواءً لغرور الإنسان، لأن الله لو سلط العجب على ابن آدم أهلكه، وما هلك أحد بمثل

العجب، فالعجب أشد إهلاكاً للعبد من معصيته، ورب معصية تذل بها لربك، وتخضع له بها، وتنكسر بين يديه بها، وتظل تذكرها، وتسكب عليه دموع الندم المحرقة، هذه تكون من أحب الله من طاعة تذل بها على مولاك، وتعجب بها وتغتر بها، رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً، ألم تر كيف أهلك الغرور إبليس؟ ولكن الذنب والتوبة منه أنجا آدم، آدم لما أذنب وتاب نجته توبته، وأراد الله بهذا الذنب أن يستأصل العجب من آدم، لأن آدم وجد نفسه كبيراً، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾«البقرة:٣٤» لما أبى إبليس طرده من رحمته، من أجل كرامة آدم عليه، واسكن أنت وزوجك الجنة، لا الموضوع كثير جداً، نحن نتكلم عن الملائكة، لم نتكلم عن إبليس، ما قال أحد: إن إبليساً كان ملكاً، إنما قال الله ﷻ: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾«الكهف:٥٠» ، كان من الجن، ليس المقصود بالجن يعني الخلق الخفي، إنما المراد من الجن نوعه، من الأنواع التي خلقها اللهﷻ وكان يمكن أن تقع منه المعصية، فإبليس كان من ذلك الصنف الذي يسمى بالجن، ولكنه كما تقول الروايات: التحق بالملائكة، وعبد الله ﷻ معهم، عبادة كثيرة، حتى سمي طاووس الملائكة، يعني دخل في خدمة الله مع الملائكة، إبليس عليه اللعنة، لمن يكن من الملائكة الذين وصفهم الله بأنهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ لأنه لو كان من الملائكة، ما تأخر أبداً عن السجود لآدم، ولكن إبليس من صنف آخر، يسمون الجن، وتوجه

إليه الأمر بالسجود مع الملائكة لأن الأمر توجه إلى الملائكة وهو فيهم، وهو من جملتهم، فلما توجه إليه الأمر، لا ليس منهم بالخلقة، لكن من المأمورين بالسجود، نعم ليس بالخلقة، وإنما هو منهم بحكم أنه التحق بهم في عبادة الله ﷻ، وحشر نفسه في زمرتهم، فكان ما يرد على الملائكة من أمر يتوجه إليه أيضاً، فلما توجه الأمر بالسجود إلى الملائكة وكان فيهم إبليس أبى واعترض على هذا الأمر، ورأى أنه أمر جائر ظالم، ونسب ربه إلى الظلم، بل نسب ربه إلى السفه والعبث وقال له: كيف تأمرني أنا بالسجود لآدم، وأنا خير منه، خلقتني من نار، وخلقته من طين؟ هذه الجملة منه لعنه الله، فيها اعتراض على الله وفيها نسبة الله إلى السفه، وإلى الظلم، وإلى الجور، الغرض أن الله ﷻ وجه الخطاب إلى الملائكة، فإذا لم يكن إبليس من الملائكة، كان يمكن أن يعتذر عن عدم السجود بأن الأمر لم يتوجه إليه، يعني كان يمكن لإبليس حين يقول الله ﷻ ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾«ص:٧٥» كان من الممكن أن يعتذر إبليس عن هذا التأخر عن السجود، بأنه لم يكن من الملائكة الذين وجه الله إليهم الخطاب وأمرهم بالسجود، لكن إبليس لم يفعل هذا، ولم يكن أبداً، لكن إبليس علم أن الأمر متوجه إليه مع الملائكة، وأنه عصى عامداً، وقاصداً إلى المعصية، وأنه اعترض بما اعترض به، من أنه خلق من النار، وأن آدم خلق من الطين، وإن النار أشرف من الطين، إلى غير ذلك مما قاله إبليس، على كل حال الآيات تفيد أن إبليس كان مأموراً بالسجود، وأنه امتنع عن السجود، وأنه

عوقب بما عوقب به من الطرد من رحمة الله ﷻ، كان قدراً من الله ﷻ، لأن الله خلق إبليس حين خلقه، وهو يعلم ما انطوت عليه نفسه الخبيثة الشريرة، وإنما كانت عبادته هذه مع الملائكة إذا صحت هذه الروايات التي تقول: إنه كان يعبد الله معهم، كانت هذه العبادات ظاهرية فقط، حتى جاء الوقت الذي امتحن فيه، لتظهر خبايا نفسه، ولتظهر دخائل نفسه الشريرة الخبيثة، فظهر على حقيقته، ظهر على حقيقته من الخبث، ومن الشر، ومن الفساد، فإبليس هو أصل الشر والبلاء، وهو أول مخلوق عصى الله ﷻ، وعصاه بما أخبر الله ﷻ به، من أنه امتنع عن امتثال أمر الله بالسجود إلى آدم، وأنه حسد آدم على ما أولاه الله من شرف وهدي، وأنه اعترض على ربه في هذا الأمر الذي أمره به من السجود لآدم، فكل هذه معاصي وقعت من إبليس عليه اللعنة، واستحق بها الطرد والإبعاد من رحمة الله، والله الذي خلق الإنسان، قدر أن يوجد إبليس عدواً لهذا الإنسان حتى يظهر فضل الإنسان في الامتحان، وهو لولا إبليس من أين يكون هناك جنة ونار؟ من أين يكون فيه معاصي وتوبة من المعاصي؟ قال: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾«الأعراف١٧:١٦» في واقع إبليس لا ينكر عليهم نسبة الإغواء إلى الله ﷻ، فإبليس كان أعرف بالله، وبفعل الله، وأنه علم أن الله هو الذي أغواه، وأضله، وصرفه عن السجود لآدم، وعن امتثال الأمر، والإغواء

والإضلال فعلان لله ﷻ في عباده، وهو الذي يضل ويغوي ومن يشاء، وهو الذي يهدي ويعصم من يشاء، ألم تسمع إلى قول نوح؟ ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾«هود:٣٤» ، ولكن إغواء الله وإضلاله لمن يشاء من خلقه، إما أن يكون هذا الإغواء والإضلال بسبب ذنب، يعني عقوبة على ذنب وقع العبد فيه، فيجعل الله ﷻ هذه الإغواء والإضلال عقوبة للعبد على هذا الذنب، نعم أنت السبب، لأن الله لا يظلم أحداً من الناس شيئاً، والله ﷻ لا يغوي ولا يضل إلا من علمه أهلاً للغواية والضلال، انتبه ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾«الصف:٥» ، ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾«الأعراف:١٤٦» لما فعلوا هذا من الاستكبار، ومن الانصراف عن آيات الله، ومن سلوك طريق الغي والهوى، صرفهم الله ﷻ عن آياته، ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾«فصلت:١٧» فما يفعل الله ﷻ بعبده من إغواء، أو إضلال، أو عقوبة، إنما هو على ذنب ارتكبه، وإنما هو بسبب ما علمه الله ﷻ من العبد، أنه أهل لما يخلقه فيه، من هذا الإغواء، والإضلال، كما أن من علم الله منه الاستعداد للهداية والاستجابة لأمر الله ﷻ والانقياد ، يفتح قلبه على نور الحق ويشرح صدره للإسلام جزاء له على

طاعته، واستجابته، واتباعه لأمر الله تبارك وتعالى، وحبه للحق وللخير، فالله ﷻ هو أعلم بقلوب خلقه، وبما هم عليه، وبما انطوت عليهم سرائرهم، فيخلق في كل منهم ما هو أهل له، يخلق في كل واحد من عباده ما هو أهل له، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ «الكهف:٤٩».

تفسير سورة التكوير

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق الدنيا وجعلها داراً للأعمال، وجعل لها وقتاً معلوماً تنقضي بعده وتصير إلى خراب وزوال، فسبحانه هو مقسم الأرزاق والآجال، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، الذي جاءنا بالآيات البينات، والمواعظ الصادقات، فأحيا بها القلوب الميتة، وأنار بها النفوس المظلمة، وقوم بها ما اعوج من أخلاق الناس، وما فسد من أعمالهم صلى الله وسلم بارك على عبد الله ورسوله محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيقول الله: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ «التكوير: ١٤» هذه سورة التكوير، وهي سورة مكية، أنزلت بمكة، ومن دأب السور المكية ومن خصائصها، أن تذكر الناس بالبعث والمعاد، وأن تقص عليهم مشاهد يوم القيامة، لأن القلوب كانت متحجرة قاسية، فلا بد لها

من قوارع تزلزلها، ولا بد لها من أهوال ترققها، فجاءت عامة السور المكية تذكرنا بمشاهد يوم القيامة، وبصور الأهوال التي ستكون في هذا اليوم الشديد، وهذه السورة من جملة السور التي عد الله لنا فيها عدداً عظيماً من مشاهد يوم القيامة، ذكرنا الله ﷻ هنا باثني عشر مشهداً، من تلك المشاهد الهائلة المروعة، التي تخلع القلوب، وتهز النفوس، اثنا عشر مشهداً، ذكرها الله ﷻ في أول هذه السورة منها، ستة مشاهد ستكون مبادي للساعة، ستكون قريبة من قيام القيامة، ولكنها ستكون قبل قيامها، وستة أخرى ستكون بعد قيام الساعة، وبعد النفخ في الصور، فلنبدأ بتلك المشاهد الأولى، التي تضمنتها هذه السورة العظيمة، لعلنا أن ننتفع بمواعظها، لعلنا نتذكر أن هذه الدنيا ستخرب، وأنها ستزول، وأن لها أجلاً عند الله، إذا جاء لم تبق الدنيا هي الدنيا، ولكن يحدث ما قصه الله علينا في تلك السورة وفي غيرها، يقول الله ﷻ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾هذه الشمس التي تطلع علينا كل يوم، تمدنا بالضوء وبالحرارة اللازمة لحياة الحيوان والنبات، هذه الشمس الدءوب التي سخرها الله لنا منذ آلاف السنين، لم يعتورها نقص، ولا تغير، بل تمر السنين والآجال وهي باقية على حالها، لا تزال تتوهج، ولا تزال ترسل إلينا أشعتها المحرقة، التي لا نقدر على احتمالها، والتي نهرب منها إلى الأفياء والظلال، لأننا لا نطيق أشعة الشمس حين تكون في الظهيرة، أو حين تكون في موسم الصيف، هذه الشمس التي بقيت هذه الآماد الطويلة تطلع على الناس، بتلك الأشعة التي

تحمل لهم الضوء والحرارة، ماذا سيكون من أمرها؟ إنها ستكور كما تكور العمامة سيقبضها الله، وسيجمع بعضها إلى بعض، وسيفنى ضوءها الساطع، وستنقص حرارتها الملتهبة، لأن الله أذن أن تتغير الشمس، وأن ينقص ما لها من ضوء وحرارة، فتكور وتجمع، ولم تعد ترسل إلينا تلك الأشعة الحارقة، بل ننظر إليها فنراها كما نراها عند الطلوع، وعند الغروب قرص أحمر، أو أصفر، لا يصل إلينا منه شعاع، هكذا ستكون الشمس قرب قيام الساعة، لا ضوء لها ولا حرارة، بل ينقص ضوءها، وتنقص حرارتها، وهذا اللف والجمع والتكوير سيكون بعد طلوع الشمس من مغربها، تلك الآية العظيمة التي إذا وقعت لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، هذا هو حال الشمس أيها الإخوة، فما حال النجوم الساطعة؟ فما حال النجوم المتلألئة الثاقبة التي تلمع في الفضاء كأنها عقد من اللؤلؤ؟ ماذا سيكون حالها في هذا اليوم الشديد؟ إنها ستتساقط، إنها ستتهاوى، إنها ستنكدر، سينمحي ضوءها، وينطمس نورها، لأن الله خلقها لتؤدي وظائف لأهل الدنيا، فإذا انقضت تلك الوظائف لم يعد لبقائها معنى، فيأذن الله لها أن تزول، وأن تتناثر، وتتهاوى، خلقت النجوم لتكون زينة للسماء الدنيا، ولتكون علامات يهتدي بها الساري في ظلمات البر والبحر، ولتكون رجوماً للشياطين الذين يحاولون استراق السمع من السماء، فإذا قرب قيام الساعة لم يعد لبقائها حاجة، فليس الناس في حاجة إليها ليهتدوا بها، ولا هي في حاجة إليها للحيلولة دون الشياطين، ودون

استراق الوحي من السماء، حينئذ يأذن لها ربها بأن تنقض وتتهاوى، وينطمس نورها، فلا تبقى هذه النجوم المتلألئة في جو السماء، بل ترى السماء مظلمة بالليل، ليس فيها نجم يضيء ولا نجم يتلألأ، ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ هاتان آيتان سماويتان علويتان، هذان مشهدان من المشاهد العلوية، من المشاهد السماوية، فانظر بعد ذلك إلى المشاهد الأرضية، انظر هذه الجبال التي بقيت آلاف السنين مستقرة في أماكنها، لا يستطيع إنس ولا جان أن يزحزحها عن مقارها، ولا أن يأخذ منها شيئاً، لأنها حجارة صماء، هذه الجبال، هذه الأطواد الشم، هذه الجبال الشماء، ستسير كما يسير السحاب، تتزلزل الأرض زلزالها، فينسف الله الجبال نسفاً، فتصير كثيباً مهيلاً، يعني رملاً ناعماً، ثم يسيرها الله في جو السماء فتصير هباءً منبثاً، وتكون في سيرها كالعهن المنفوش، أي كالصوف المصبوغ، لأن الجبال منها جدد بيض، وحمر، وغرابيب سود، فإذا طيرها الله في الهواء اختلط أبيضها بأحمرها بأسودها، فصارت كالعهن المنفوش، أي كالصوف المصبوغ ألواناً، قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾«الواقعة:٦»، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾«النمل:٨٨»، وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾«طه١٠٦:١٠٥» يعني يذر الأرض قاعاً صفصفاً ﴿لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا

وَلَا أَمْتًا﴾«طه:١٠٧»، ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾«التكوير:٤»، ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ العشار هي النوق أنثى الجمل، هي النوق التي أتى على حملها عشرة أشهر، وكانت من أنفس الأموال عند العرب، ومن أعزها عندهم، هذه العشار إذا وقعت هذه الأهوال يهملها أهلها، فيتركونها بلا رعي ولا ماء، وقد كانوا حريصين عليها يرسلونها إلى المرعى، ويوردونها الماء، لأنها من أحب أموالهم إليهم، فما الذي جعلهم يهملونها؟ ما الذي جعلهم يعطلونها؟ إنها تلك الأهوال الشديدة التي تشغلهم لا عن العشار وحدها، بل تشغلهم عن الأموال والأولاد جميعاً، أليست هذه الأهوال هي التي يقول الله ﷻ فيها: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ سكارى من غير خمر، سكارى من الأهوال والشدائد ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾«الحج:٢» ، هذه العشار تعطل، و تهمل، وتترك بلا رعي ولا ماء، لأنه قد وقع بالناس ما أذهلهم عنها، وما شغلهم عنها، ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ الوحوش، الأسود، والنمور، والذئاب، وغير ذلك من هذه الوحوش التي تعيش منفردة بعضها عن بعض، وتأوي إلى جحورها في الجبال، أو في المفاوز والصحارى، هذه الوحوش ما الذي دهاها؟ ما الذي وقع بها، حتى اجتمع بعضها إلى بعض، وانضم بعضها إلى بعض من الرعب والخوف؟

من عادة هذه الوحوش أنها إذا وقع بها رعب، تترك حياة العزلة، وحياة الانفراد، وتأوي وتلوذ بأمثالها، كأنها تريد أن تتسلى بهم، أو تريد أن تتعاون معهم على دفع الخطر، فتحشر وتجمع الوحوش بعضها إلى بعض، وتجتمع الوحوش من هنا وهناك، ولم يعد خوف على الناس منها، لأنه وقع بها ما أذهلها، فلم تعد تفترس الفرائس، ولم تعد تأكل اللحوم لأنه قد وقع بها من الخوف والفزع ما أذهلها عن بطونها، ما أذهلها عن حاجتها إلى الطعام والشراب، ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾البحار الواسعة، تلك المحيطات الهائلة الممتلئة بالماء، الماء الرطب البارد الحلو، الذي نأخذ منه حاجتنا فنغتسل ونغسل ثيابنا ونتوضأ، ماذا سيحصل في هذا اليوم لتلك البحار الواسعة؟ إنها ستسجر، ما معنى تسجر؟ تملى ينفجر بعضها إلى بعض، حتى تصير كأنها بحر واحد، ثم بعد ذلك هذا الماء، ماء المحيطات يسجر، ويصير ناراً ملتهبة، كما تسجر التنور، أرأيت لو وضعت الحطب في التنور، في الفرن، وأوقدت عليه فاشتعل الحطب في التنور، هكذا البحار ستكون تنوراً، تسجر فيه المياه، أي يحمى عليها حتى تصير ناراً ملتهبة، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾أهوال وأهوال، نسأل الله ألا نراها، ونسأل الله إذا رأيناه أن يثبتنا، وألا نتزلزل، ولكن أبشركم بان القيامة لا تقوم على مؤمن، لأن الله لا يريد لمؤمن أن يرى هذه الأهوال، بل تأتي ريح فتقبض نفس كل مؤمن ومؤمنة، ولا تقوم الساعة إلا على لكع ابن لكع، أي على لئيم ابن لئيم، كافر ابن كافر،

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ سنبدأ في المشاهد التي ستقع بعد قيام الساعة، بعد أن بينا المشاهد التي ستقع قرب قيام الساعة، انظر إلى تلك المشاهد الأخرى، مشاهد يوم القيامة التي ستكون بعد النفخ في الصور، وبعد القيام من القبور، وبعد السوق إلى الله ﷻ، بعد أن نحشر إلى ربنا.

فيأتي عيسى ويسأله الله، وليس المقصود بالسؤال عيسى نفسه بل المقصود قومه، تبكيتاً لمن عبدوه من دون الله، فيقول الله له: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ «المائدة:١١٦» كيف أطلب منهم أن يعبدون وأنا عبد، كيف يطلب العبد من العبد أن يعبده من دون الله؟ ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ «المائدة:١١٧» ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ الصحف التي سجل الله ﷻ فيها كل صغيرة وكبيرة من أعمالنا، الصحف، أنت لك صحيفة، وأنا لي صحيفة، وكل إنسان بالغ عاقل مكلف له صحيفة، تدون فيها أعماله وأقواله، حسناته وسيئاته، ثم بعد الموت يطوي الملك الصحيفة، ويصعد بها إلى الله ﷻ، وتوضع الصحف عند الله، إلى أن نذهب إليه، تطوى الصحف وتصعد بها الملائكة إلى

ربها، وتبقى مطوية عند الله، لا يعرف ما فيها حتى نحشر إلى الله، وحتى نقوم بين يديه لفصل القضاء بيننا، فالمؤمن يدنيه الله، ويضع كنفه عليه، ويستره، ويقرره بذنوبه، فيما بينه وبينه، بحيث لا يسمع أحد، ألم تفعل كذا يوم كذا؟ بلى يا رب، ألم تفعل كذا يوم كذا؟ بلى يا رب، ألم تفعل كذا يوم كذا؟ بلى يا رب، فإذا قرره بذنوبه، وأيقن أنه، لكثرة الذنوب التي نسيها وأحصاها الله، يقول له: «سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[١] خذ كتابك، فينشر له كتابه بعد أن كان مطوياً، فيأخذ الكتاب ويقرأ، فإذا رأى ما فيه سر وفرح، وذهب إلى أهله مسروراً، وقال: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾«الحاقة٢٣:٢٢» يعطى كتاب حسناته بيمينه، فيقرأه فيستبشر ويفرح كما يفرح التلميذ لما تأتي له شهادة النجاح تمام، بل أشد وأشد، أين نجاح الدنيا من نجاح الآخرة؟ أين النجاح الهزيل المؤقت من نجاح دائم، وفوز دائم، وسرور دائم؟ ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾، وأما الكافر فيعطي كتابه بشماله من وراء ظهره ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾«الانشقاق١٢:١١» ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾«الانشقاق:١٤» فكتاب الكافر يحوي خطايا وآثاما، فيعطاه بشماله من وراء ظهره، فإذا نظر فيه عبس وبسر، إذا نظر فيه تكدر،

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، البخاري (٢٤٤١)، مسلم (٢٧٦٨).

وحزن حزناً شديداً وقال: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾«الكهف:٤٩» ، ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ أنت رأيت الجزار وهو يقشط الجلد عن الخروف، الله يقشط السماء ويزيلها، كما يزال الجلد عن الذبيحة، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾«الأنبياء:١٠٤» يطويها طياً حتى تفتح أبوابها، وتقف الملائكة على أرجائها ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾«الحاقة١٨:١٧» ، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾هل هي مسعرة؟ الجواب: لا، بل يشتد تسعيرها، وإيقادها، استعداداً لدخول الكفار فيها، هي الآن نار ومسعرة، يأكل بعضها بعضاً كما ورد في الحديث «تقول: رب أكل بعضي بعضاً» النار تشتكي إلى ربها، تقول له: «يا رب أكل بعضي بعضاً» لم تجد ما تأكله، فتأكل نفسها، والنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله، «فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير»[1]، هذه الحطمة، هذه النار الموقدة، يزداد إيقادها وتلهبها استعداداً لتلقي أهلها من الكفار، والعصاة، ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ زيد في لهبها وفي إيقادها، ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾أي

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، البخاري (٣٢٦٠)، مسلم (٦١٧).

قربت للمؤمنين، قربت، بعيدة، وبيننا وبينها صراط طويل، لا، سنكون على الصراط، ونحن نشم رائحتها، قربت الجنة، وهيأت، وأعدت للمتقين، فأيضاً الجنة لما يقرب أهلها ليدخلوها، الملائكة تعد الفرش وتهيئ لهم كذا، والحور العين تتأهب، وتستعد لتلقي الأزواج الكرام، من أهل الجنة وكذا، والأنهار تتفجر بسرعة، وتدب الحياة في الجنة، بعد ما كانت في حالة نوم، لأن أهلها لم يأتوا بعد، فهي في حالة نوم، لكن عند قيام الساعة يبدأ الاستعداد والتأهب، تتأهب الجحيم للقاء أهلها، وتتأهب الجنة للقاء أهلها، اللهم أعذنا من جحيمك، اللهم أعذنا من جحيمك، واجعلنا من الفائزين بدار رحمتك.

ستشهد عليك الأيدي، والأرجل، والألسنة، ستشهد عليك بما عملت، لما تنكر ستشهد عليك أعضائك، ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾«النور٢٥:٢٤» ، نعم كل ما سجله الله عليك وأحصاه عليك في كتابك، ستجده عند الله حاضر، ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾«آل عمران:٣٠» أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، ولسائر المسلمين.

بعد أن قص الله علينا هذه المشاهد، وتلك الأهوال المنتظرة المرتقبة، أقسم بالخنس ﴿الْجَوَارِ الْكُنَّسِ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾إن هذه القرآن ليس بقول شيطان، ولا هو سحر، ولا هو شعر، ولا هو كهانة، كما يدعي المكذبون المجرمون، بل هو تنزيل من رب العالمين، وهو قول رسول كريم، يعني جبريل ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ذو مكانة وجاه ومنزلة عند الله، ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾أي في السماء ﴿أَمِينٍ﴾على وحي الله، ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾كما تدعون، بل هو أعقل العقلاء، صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ﴾أي رأى محمد جبريل ﴿بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾يعني في مطلع الشمس، في جو السماء، وهو جالس على كرسي بين السماء والأرض قد سد الأفق، فرآه النبي ﷺ على صورته الملكية، فرعب منه، ووقع مغشياً، وذهب إلى أهله، وقال: «زملوني، زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فلم يقم من نومه، ولا من ركاده، حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾«المدثر:١» أنت نائم، ومتلفف بالغطاء، وخائف، لا، لا قم، هناك أعباء ثقيلة ستنتظرك، هناك رسالة كبيرة ستؤديها إلى البشرية كلها، قم يا نائم قم، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾«المدثر:٢» خوف الناس، وأعلم الناس، بجلال الله، وعظمة الله، وعذاب الله، لعلهم يتذكرون، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾«المدثر٦:٧» ﴿قم فأنذر﴾بها

صار نبينا رسولاً إلى الدنيا كلها، ﴿قم فأنذر﴾ لم يقل له: أنذر العرب فقط، ولا أنذر قريش فقط، وإنما قال له: ﴿قم فأنذر﴾، يعني أنذر الدنيا كلها، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ أبداً، ولا تستطيع الشياطين أن تقول هذا أبداً، أنت تقول القرآن أبداً، الشيطان لا يقدر يتلو كلمة من القرآن كاملة أبداً، يعني لا يقدر أن يتلو كلمة كاملة من القرآن أبداً ولا آية أبداً، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ يعني كلامكم كله فارغ، لأن هذا الكلام لا قائم على ميزان، ولا قائم على عقل صحيح، فإن كنتم صادقين بأن محمداً افتراه، أو اختلقه، أو إنه من وحي الشياطين إليه فقولوا مثله، لأن لكم شياطين كثير، فاجعلوهم يأتوا لكم بقرآن مثل هذا القرآن ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ للدنيا كلها.

تفسير سورة الفتح[1]

وعقيدتهم ونبيهم بالمهج والأرواح، بيعة دلت على ما يحمل هؤلاء في قلوبهم من الإيمان الصادق، والإخلاص الوثيق لله ولرسوله، الآن هم ألف وأربعمائة في وسط قريش، في بلد قريش، قريش تستطيع أن تجمع من الجيش ما يساويهم عشر مرات، وتقتلهم فلا يرجعون، فبيعتهم هذه دليل على أنهم لا يخافون في الله لومة لائم، وأن الدنيا لو اجتمعت كلها عليهم، فسيحاربون، وسيقاتلون في سبيل الله، لا ينكصون، ولا يجبنون، فهذه البيعة دلت على عظم ما يحمله هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم، من الإخلاص لله، ومن التفاني في سبيل الله، ولهذا يقول صلوات الله وسلامه عليه: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»[2] فأي نار يدخلها بعد هذه البيعة؟ لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة» وبعد ذلك قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ وليست بيعة بالأيدي وبالألسنة، بل بيعة بالقلوب ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص، واليقين، والعزم، والحماس، ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ

---

(١) ليس هناك شريط بعنوان تفسير سورة الفتح، ولكن هذا التفسير كان مدمجاً في شريط تفسير سورة التكوير، فجعلنا له عنواناً منفرداً، لتتم الفائدة بتصنيف تراث الشيخ رحمه الله.

(٢) رواه أبو داود في سننه (٤٦٥٣)، والترمذي في سننه (٣٨٦٠)، والحديث صححه الشيخ الألباني.

عَلَيْهِمْ﴾ والله لو التقوا بقريش في هذه المرة لأبادوها عن آخرها، والواحد منهم كان بعد هذه البيعة، وبعدما نزلت السكينة من الله على هؤلاء المؤمنين، كان الواحد يخيل إليه إنه أمة واحدة، وأن قريش لو جاءت أمامه يقتلها بسيفه، ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾«الفتح:١٨» جازاهم على هذه فتحاً قريباً، لأن فتح مكة بينه وبين الحديبية سنتين اثنين، لأن النبي ﷺ جاء في العام القادم فأدى العمرة، قضى عمرته هو وأصحابه، وبعدها بعام كان فتح مكة، فجاء فتح مكة قريب جداً من غزوة الحديبية، ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ والمقصود بالفتح هنا هو فتح خيبر، ثم قال تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني أعطاكم هذه غنيمة مستعجلة، ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِىَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ هذه من آيات الله، إن الله ﷻ يلقي الرعب في قلوب قريش، فلا تقاتل المسلمين، طيب ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ ولذلك قال: ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ نعم كفوا قريش يدها عن المسلمين في هذه الغزوة وجبنها عن القتال آية من آيات الله لكل مؤمن ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ وفقط، لا في كثير وكثير ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ

قَدِيرًا﴾«الفتح:٢١» ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ هذا فتح بعيد كسرى، وقيصر، «هلك كسرى، ثم لا يكون كسرى بعده، وقيصر ليهلكن، ثم لا يكون قيصر بعده، ولتقسمن كنوزها في سبيل الله»[1] ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ لم تفكروا فيها، فأحاط الله بها وعلمها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ طيب يعني لو كنا حاربنا كنا كسبنا الحرب مع قريش، ولا كنا قتلنا هناك كما قال المنافقون، قال: لا، ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ طيب لما كفروا وصدونا عن المسجد الحرام، وصدوا الهدي أن يبلغ محله، لماذا يا رب لم تأذن لنا في قتالهم؟ لماذا لم يأذن ربنا للمسلمين في القتال في تلك الغزوة؟ قال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ كان في مكة مسلمين من الرجال، ومؤمنات من النساء، لم يكن يعلمهم المسلمون، فلو قاتلوا الكفار في تلك الغزوة ربما قتلوا المؤمنين والمؤمنات من غير أن يعلموا، فنهاهم الله ولم يأذن لهم بالقتال في تلك الغزوة من أجل هذا، ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ

---

[1] رواه البخاري (٣٠٢٧).

مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ يعني لو تميز المؤمنون والمؤمنات عن المشركين، لأذنا لكم في قتالكم، ولعذبناهم عذاباً أليماً ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾«الفتح:٢٦» ما هذه السورة؟ وما هذا الخير النازل من غير حساب؟ وهل صحيح سنرجع السنة القادمة؟ وممكن تنقض قريش المعاهدة، ولن يسمحوا لنا في السنة القادمة لكي نؤدي العمرة، ما يدرينا أن قريشاً ستفي بالعهد أو أنها تلتزم بشروط الاتفاقية؟ قال: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾«الفتح:٢٧» ستأتون في العام القادم تؤدون العمرة، وتؤدون المناسك، وترجعون للمدينة، تطوفون بالبيت آمنين، محلقين رؤوسكم، ومقصرين، لا تخافون، ثم بعد ذلك بعد سنة واحدة تأتون لتفتحوا مكة كلها، ولا أحد يستطيع أن يمنعكم بعد ذلك، ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾«التوبة:٣٣» من رسوله؟ ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ

اللَّهِ﴾ ومن أصحابه؟ ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ يا سلام، انظر المدح لأصحاب رسول الله ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ الله أكبر! التوراة التي أنزلت على موسى قبل أن يأتي محمد بألفي عام، تتحدث عن أصحاب محمد بأنهم سيماهم في أثر السجود، وأنهم يصلون لله، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً؟ نعم، تحدثت عنهم التوراة، والإنجيل أيضاً ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ عود صغير، طلع شطأه يعني المقدمة التي تمشي، ثم بعد ذلك ﴿فَآزَرَهُ﴾ يعني قواه، ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ يمشي ويطول ويضخم، لما أصبح شجرة عظيمة، شجرة الإسلام الكبيرة التي أظلت الدنيا كلها ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ﴾ زرع صغير ضعيف، لأنهم بدءوا في مكة نفراً قليلاً غرباء، كانوا غرباء في مكة يلقون الأذى من قريش، ولا يستطيعون أن يردوا عليهم، لا يقدرون أن يقاوموا الأذى فأمروا بالصفح والصبر حتى أذن الله لهم في الخروج من مكة، هذا الزرع ظل ينمو ويستفحل، ينمو ويستفحل ﴿فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ الكفار كلما رأوا المسلمين يزدادون كل يوم قوة فيغتاظون، ويمتلئون غيظاً على الإسلام، وعلى المسلمين، ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني كلهم، هم كلهم، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فسورة الفتح، تساوي ما طلعت عليه الشمس، بل تساوي أكثر من ذلك.

لا أرضاً قطع، ولا ظهر أبقى، المنبت يعني المتعجل، المسرع، لا أرضاً قطع، لم يقطع المسافة الذي يريد أن يقطعها من الأرض سيراً، وصولاً إلى غايته، ولا أبقى ظهر الدابة التي يركبها....[1]

الأعضاء التي تسجد بها لله ليس أنت الذي خلقتها، العقل الذي تتدبر به في ملكوت الله، رب العالمين هو الذي أعطاك إياه، وأعطى لفلان عقل، وأعطى لفلان صحة، وأعطى لفلان لسان، وأعطى لفلان نشاط، ووزعها، قسمها بحكمة رائعة، ومن آياته أنه يظهر لك أنه وحده هو المعطي، تجد ابن الفقير غني محضاً، والعكس يقع، ابن العالم جاهل، وابن الجاهل عالم، إذا ورث الجهال أبناؤهم غنى ومالاً فما أشقى بني العلماء، الذكاء قالوا: بأنه يتوارث، قول فيه شك، وحتى قوانين الوراثة لما تأتي تضبطها لن تجد لها ضابط، طيب أنتم تقولون بالوراثة؟ فلماذا فلان الفلاني عبقري وابنه غبي؟ يقول لك: لا، أصل الوراثة عجيبة جداً، يمكن ذكاؤه يظهر في حفيد، حفيد حفيده، لا تكذب الوراثة، الوراثة لها قوانين عجيبة.

---

(١) قطع في الصوت.

تفسير سورة الذاريات[1]

إن الحمد لله نحمد ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ليس مع إله غيره، خلق كل شيء فقدره تقديراً، وخلق الإنسان وعلمه البيان، وجعله موضع عنايته ومناط رحمته، بأنه خلقه لعبادته، كما قال تعالى:﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾«الذاريات:٥٦» أحمده سبحانه على أن أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، وأمرنا بالتفكر في آياته، والتذكر لآلائه، حتى نعلم قدرها، فنقوم بشكرها، فسبحانه من رب كريم ومنعم عظيم، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالمنهج الواضح، والشريعة العادلة الكاملة، والحق البين الذي لا عوج فيه، ولا غموض، ولا التواء، ثم أمره أن يبلغ البلاغ المبين، وأن يبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون، صلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن الله يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا إِنَّمَا

---

(١) خطبة مشتركة بين الشيخ العلامة خليل هراس وخطيب لم أعرفه، وقد ابتدأ الخطيب المحاضرة وتكلم قرابة عشرين دقيقة، ثم استأنف الشيخ خليل هراس رحمه الله، وقد أشرنا إلى ذلك في موضعه.

تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِى كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ «الذاريات:١٤» هذه آيات كريمة، من أول سورة الذاريات، وهي سورة مكية، والسورة المكية كلها تحمل دائماً طابع الدعوة إلى الإيمان بالله، وتوحيده إلهية، وربوبية، إلى الإيمان بالقرآن العظيم، وأنه كلام الله المنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ، لينذر به الناس، وليخرجهم به من الظلمات إلى النور، والإيمان بمحمد ﷺ، وبأنه الرسول المبعوث من عند الله، هداية للناس، ورحمة للعالمين، والإيمان بالبعث، والمعاد، واليوم الآخر، وما فيه من حشر، وصراط، وميزان، وفصل بالقضاء بين يدي أحكم الحاكمين، وصحف تتطاير على الناس، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله من وراء ظهره، ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾ «الانشقاق:١٢» ، والإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره من الله ﷻ، هذه هي أركان الإيمان التي تدعوا إليها سور القرآن المكية، التي نزلت في العهد المكي، كلها تحمل طابع الدعوة إلى العقائد الإيمانية، وأن الإيمان هو الأساس، الذي لا قيمة للسلوك، ولا للعمل بدونه، فإنه الأساس الأول، والأصل المتين الذي لا بد منه، لكي تكون الأعمال صالحة مقبولة عند الله ﷻ، لأن أعمال الكفار لا وزن لها، ولا قيمة لها، بل

سيرونها يوم القيامة هباءً منثوراً، ويرونها ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾«النور:٣٩» ، يقسم الله ﷻ في أول هذه السورة بأربعة أشياء، من مظاهر الخلق، ومن صور الوجود، وصور الوجود كثيرة، وألوانه متعددة، ولكن بعضها أكبر من بعض، ولكن بعضها أكثر نفعاً من بعض، فلهذا يقسم الله ﷻ بما يشاء من خلقه، ليعلم عباده ما في هذه الأشياء من نفع عظيم، وما فيها من دلالة واضحة على عظيم قدرته، وبالغ حكمته، وجسيم نعمته، يقسم هنا ربنا ﷻ بـ﴿الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ هذه أربعة أقسام، يقسم الله ﷻ بهن، ولله سبحانه أن يقسم بما يشاء من خلقه، لأنه هو رب الخلق، يخلق ما يشاء ويختار، فهو يقسم بـ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾«الشمس٢:١»، ويقسم بـ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾«الليل٢:١»، ويقسم بالقيامة، ويقسم بـ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾«الطارق:١»، ويقسم بـ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾«الضحى٢:١»، ويقسم بما تبصرون ومالا تبصرون، ويقسم بمواقع النجوم، يقسم بذلك كله لأنه هو رب ذلك كله، فله أن يقسم بما يشاء من تلك المخلوقات لما فيها من عظم شأنها، وكثير فوائدها، وعظيم مصالحها، ولكن ليس بمخلوق أن يقسم بمخلوق، ليس لك أيها المخلوق أن تقسم بمخلوق مثلك، مهما كان شأنه، ومهما علا قدره، فالقسم لا يكون إلا بالله ﷻ، باسم من

أسمائه الحسنى، أو بصفة من صفاته العليا، وأما المخلوق فلا يجوز له أن يقسم بمخلوق، لا بالكعبة، ولا بالنبي، ولا بالعرش، ولا بالذمة، ولا بالأمانة، ولا بالعهد، ولا بتربة الوالد، ولا الولد، ولا بالأب، ولا بالأم، فإن من حلف بغير الله فقد كفر وأشرك، «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليذر»[١]، ليس لك أن تقسم بمخلوق، ولا أن تقسم على الله بمخلوق، ولا أن تقول لله بحق فلان، أو بجاه فلان، أو بمنزلة فلان، فإنه إذا كان ذا جاه ومنزلة فليست لك أنت إنما هي له هو، يثيبه الله، ويكرمه الله، بما له من منزلة وجاه، ولكن ما دخلك أنت بمنزلة فلان، أو بجاه فلان، وليس لأحد حق على الله، فلا يجوز أن تقول: بحق فلان، فإنه لا حق لمخلوق على الخالق، يقسم ربنا ﷻ بـ ﴿الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ وقد أجمع المفسرون تقريباً على أن المراد بالذرايات هنا هي الريح، لأنه تذروا الأشياء، من أتربة، أو ورق، أو رماد، فتفرقها وتبدلها، لأن معنى الذرو التفريق، فالرياح هي الذاريات ذرواً، لأنها تفرق الأشياء، وتثيرها، وتحملها إلى مكان بعيد، فلماذا يقسم ربنا بالرياح؟ إن الرياح التي قد لا نفكر فيها، وقد لا نشعر بها، أو تخطر لنا على بال، هي من أعظم مخلوقات الله، وهي من أكبر جند الله، هذه الرياح التي لا غنى عنا لأي حي على الأرض، لأنك إذا انقطع عنك النفس ثلاث دقائق خرجت روحك، وصرت في عداد الموتى، فالرياح لا يستغنى عنها حي على وجه الأرض، ولا

---

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود، البخاري (٢٦٧٩)، مسلم (١٦٤٦).

في لجة البحر، بل الأسماك في بحورها تتنفس، وكل مخلوق من الحيوانات على ظهر الأرض يتنفس، بل إن النبات يتنفس، فكل ما على الأرض من حيوان ونبات هو محتاج إلى الهواء الذي يتنفسه، والريح هي التي يرسلها الله فتحمل السحاب، وتؤلف بينه، ثم يجعله الله ركاماً، بعضه فوق بعضه ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾«النور:٤٣» والودق يعني الموت، والله الذي يثير الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء، فيجعلها كسفاً، فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به...

تكملة العلامة محمد خليل هراس

-رحمه الله-

... تقلع الأشجار، وتقلع سقوف المنازل، وتهيج البحر فتدخل مياهه في الشوارع، وتسبب الفيضانات الغارقة، التي تغرق مئات القرى، وآلاف المزارع، وتسبب ضحاياً كثيرة، هذه هي الرياح التي لا نأبه لها، يرسلها الله أحياناً عقاباً ونذيراً لعباده، كي يخافوه ويتقوه، ويرسلها أحياناً بالنصر ،ينصر بها من يشاء من عباده، لقد نصر نبيكم ﷺ في غزوة الأحزاب بالريح، التي أرسلها الله على خيام المشركين، فاقتلعتها، وكفأت قدورهم، وكان لها صفير مرعب، حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، فجلوا من ليلتهم عن المدينة راجعين بالخيبة إلى مكة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرًا﴾«الأحزاب:٩»، الريح هي التي سخرها الله لسليمان بن داود عليهما السلام ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾«سبأ:١٢» ولسليمان سخر الله له الريح ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾«ص:٣٦» كانت الريح من جنود سليمان التي سخرها الله له، فالريح جند من جنود الله، يرسلها بالرحمة مرة، وبالعذاب مرة، ولهذا كان النبي ﷺ إذا هبت الريح قال: «اللهم إنا نسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، ونعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به»[1] بل كان صلوات الله وسلامه عليه، إذا هبت الريح تغير لونه، انفقع لونه، فيسأل لماذا يا رسول الله تسأله عائشة رضي الله عنها (ما لي أراك يا رسول الله كذا إذا هبت الريح؟) فيقول لها: «يا عائشة، وما يؤمنني، لعلها كريح قوم عاد، لقد كانت عاد لما رأوا عارضاً في السماء» أي سحاباً قالوا: ﴿هذا عارض ممطرنا﴾ وكانوا في حاجة إلى المطر، فقد قحطت أرضهم، واقشعرت مزارعهم، وهلكت مواشيهم، فاستبشروا حين رأوا ذلك العارض في السماء، فقيل لهم: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ «الأحقاف:٢٥»، فمن منكم إذا هبت الريح ذكر الله، وأحدثت في قلبه خوف من الله؟ وأحدثت في قلبه الخوف والوجل، لأننا لا

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٢٢٥٢)، وابن ماجة (٣٧٢٧)، والحديث صححه الشيخ الألباني، صحيح الجامع (٢/ ١٢٢٣).

نأمن أبداً أن تكون ريح عذاب، الريح هي التي تلقح النبات، تحمل بويضات الذكر إلى الأنثى، لأن النبات هو أيضاً مركب من ذكر وأنثى، لأن الله خلق الأشياء كلها من مزدوجة، من ذكر وأنثى، فتحمل الريح بأمر الله خلايا الذكورة، ويلقح بها خلايا الأنوثة، فتخصب بإذن الله، فما أعظم الريح، والريح هي أيضاً التي كانت تسير الفلك في البحر، قبل أن يخترع الإنسان البخار، والطاقة البخارية، أو الطاقة الكهربائية، أو كذا، كانت الريح هي التي يسخرها الله فتجري السفن في البحار بأمر الله، بواسطة الريح، بواسطة الريح وحدها كانت تجري السفن في البحار، هذا هو شأن الريح، ومنافع الريح، ومصالح الريح، فهل يستغرب بعد هذا أن يقسم الله بالريح؟ لا، ولا عجب أن يقسم الله بالرياح، لأنها من أعظم بل هي أعظم ما خلق الله من منافع، ومصالح سخرها لعباده، ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ ثم يقسم ربنا بعد ذلك بـ ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ هي سفن التي تجري في البحار، تحمل البضائع، والأمتعة، والحاجات، فتنقلها من شاطئ إلى شاطئ، هذه السفن التي هي من أكبر نعم الله ﷻ، يحملها البحر كما تحملنا اليابسة، فتجري على صفحة الماء بريح طيبة سخرها الله لها، ثم إذا شاء أرسل عليها قاصفاً من الريح فأغرقها، أو جعل الأمواج تلعب بها، كل ذلك ليذكر الناس، وينبه الناس إلى أن بيده ملكوت كل شيء، وأن شيئاً مالا يخرج عن إرادته وأمره، ﴿هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ

وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾«يونس٢٣:٢٢»، ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾«الأنعام٦٤:٦٣»، هذه الحاملات وقراً، السفن تحمل البضائع، وتحمل الناس، وتنقل البضائع، والصادرات، من بلد إلى بلد، ومن أراد أن يعرف قدر هذه النعمة، من أراد أن يعرف عظمة هذه النعمة، نعمة الفلك التي تنخر في البحر، فليقف على ميناء من تلك الموانى، ويرقب البواخر قادمة إلى الميناء، ثم لينظر ماذا حملت تلك البواخر من منافع ومصالح، وقد علم أن هناك بحاراً تفصل بين الأمم والشعوب، وأنه لا بد لهذه الأمم من أن تتبادل المنافع والمصالح، فترسل كل أمة ما تخرجه أرضها إلى الأمة الأخرى، ثم تأخذ منها كذلك ما تخرجه أرضها، فلا بد للناس من التبادل، ولهذا امتن الله علينا بالسفن، امتن علينا﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾«الرحمن:٢٤»، ﴿وله﴾ له وحده لأنه هو الذي علمنا صنعة الفلك، حين علم أبانا نوحاً عليه السلام أن يصنع الفلك، فتعلم أبناؤه منه صنعة الفلك، فالله هو رب الفلك، وخالق الفلك، ومعلمنا كيف نصنع الفلك، فلهذا كانت الفلك نعمة من نعم الله تبارك وتعالى، ولهذا يجعله الله آية

من آياته، فيقول: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾«البقرة:١٦٤» ، ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾«النحل:١٤» نعم جميلة عظيمة، لكن الناس لا يقدرون قدرها، ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾«سبأ:١٣» ثم القسم الثالث بـ ﴿الْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ هي النجوم والكواكب تجري في هذا الفضاء الواسع بأمر الله ﷻ، لكل نجم مداره، لكل نجم فلكه الذي لا يتزحزح عنه قيد أنملة، ومن يتأمل هذه النجوم في مجاريها، وفي أفلاكها، وكيف تسبح بحمد ربها؟ وكيف تجري مسخرة بأمره؟ لها مدار، ولها مشرق، ولها مغرب، ولكل نجم مدار خاص، وله سرعته الخاصة، وله شكله الخاص، وله حجمه الخاص، تجري جرياً سهلاً، لا صعوبة فيه، لأنها تجري بأمر الله، تجري منقادة مذعنة، لأن الله هو الذي سخرها، وأجراها من فوقنا، إذا اطلعت على كتاب من كتب الفلك، وقرأت ما يحتويه من أوصاف لتلك النجوم، والأبعاد التي بيننا وبينها، والأبعاد التي بين بعضها وبعض، واختلاف الحدود، والأشكال، والأبواب، تقضي من ذلك العجب وتهتف قائلة: سبحانك يا رب، ولهذا يقسم الله بمواقع النجوم ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾«الواقعة٧٦:٧٥» ، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾«الأنعام:٩٧»، ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ

الثَّاقِبُ﴾«الطارق٣:٢»، ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾«الصافات١٠:٩» هذه الشهب، والنجوم التي جعلها الله زينة للسماء الدنيا، كأنها جواهر مرصعة على صفحة ماء، ثم جعلها هدى وعلامات يهتدي بها الساري في ظلمات الليل البهيم، سواء كان في بر، أو في بحر، ثم جعلها رجوماً للشياطين، إذا هي أرادت أن تسترق الوحي من السماء، أرسلت عليها الشهب، ثم ثقبتها وخرقتها، ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ هي الملائكة تقسم الأمور وتوزعها بإذن ربها، فهم جند الله الذي وكلهم بتدبير أمور خلقه، وجعل لكل شيء ملكاً يقوم عليه، يقوم على توجيهه، وعلى حراسته، وعلى تنظيمه، فللريح ملك، وللسحاب ملك، وللمطر ملك، وللجبال ملك، وللبحار ملك، ولكل شيء مما خلق الله ملائكة، يفعلون ما يأمرهم به الله من تدبيرات مختلفة، فهن المقسمات أمراً، وهن المدبرات أمراً، التدبير لله وحده، التدبير كله لله، ولكن أبهة الملك، وعظمة الملك تريد جنوده، فهم جنود الله الذين يفعلون بأمره، وليس لله بهم حاجة، بل هو قادر أن يدبر من غير واسطة، لكن أبهة الملك، وعظمة الملك، اقتضت أن يكون هناك جند للملك يرسلهم فيما يشاء، يرسلهم لما يريد من تدبيرات، وأوامر يفعلونها بإذنه، ﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾«التحريم:٦» ، ﴿فالمقسمات أمراً﴾ ملائكة

الله، رسل الله الذين لا يحصون عداً، والذين لا نعرفهم منهم ولا من شئونهم أكثر مما عرفنا الله، فقد وصفهم الله في كتابه بأنهم ﴿ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾«الأنبياء:٢٩» ، والموت له ملك ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾«السجدة:١١» ، والنطف في الأرحام لها ملك، يتولاها، ويرعاها بأمر الله، يقول صلوات الله وسلامه عليه: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يأمر الله الملك فينفخ فيه الروح، ثم يؤمر بأربع كلمات، فيكتب رزقه، وأجله، وشقي هو أو سعيد»[١] يقول الملك بعد أن ينفخ الروح في الجنين: (يا رب ما الأجل، يا رب ما العمل، يا رب ما كذا وما كذا) فيملي الله، ويكتب الملك، يكتب كل ذلك على جبينه، فكل ما قدر عليك فهو مكتوب بين عينيك، فلن يخطئك قدرك أبداً، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، طويت الصحف، وجف القلم، ﴿فالمقسمات أمرا﴾ علاما يقسم ربنا بهذه الأقسام الأربعة؟ علاما يقسم ربنا بالذاريات، والحاملات، والجاريات، والمقسمات؟ يقسم على أن ما وعد به عباده من بعثهم، وإخراجهم

---

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، البخاري (٣٢٠٨)، مسلم (٢٦٤٣).

من القبور أحياء، وسوقهم، وحشرهم إلى ساحة القضاء، ونصب الموازين لهم، وإعطائهم كتبهم التي أحصت ما عملوه، وما قدموه، قد أعد لهم بعد ذلك صراط يمرون عليه، ثم ما أعده لهم من نعيم مقيم، أو من عذاب أليم، كل ذلك حق لا ريب فيه، ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ إن كل ما وعدكم به كتابنا، أو وعدكم به رسولنا، من القيام من القبور، من الحشر والنشور، من الصراط والحساب والميزان، كل ذلك حق لا ريب فيه، ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا﴾«الحج:٧» ، وإن وعد الله حق، لا يمكن أن يخلف الله وعده، فوعد الله لا بد آت ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾«الأنعام:١٣٤»، ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾«الذاريات:٢٣»، إن الساعة حق، وإن الجنة حق، وإن النار حق، وإن الله يبعث من في القبور، ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ يقسم ربنا على أن وعده الذي وعد به عباده لا بد من وقوعه لا بد من حصوله، فهو الحق الذي لا ريب فيه، وأن الدين والجزاء واقع، لا بد أن تدان بها عملته، لا بد أن تلقى جزاء عملك، حتى الذرة، لن يضيع الله من عملك مثقال ذرة، ولن يظلمك مثقال ذرة، ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾«الزلزلة:٨»، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾«النساء:٤٠»،

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾«الأنبياء:٤٧»، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾«الكهف:٤٩» هل عملت لهذا اليوم؟ هل قدمت لهذا اليوم؟ هل عملت بما يرجح ميزانك يوم القيامة؟ هل عملت بما يضمن أن تكون حسناتك أغلب من سيئاتك؟ ألم تسمع قول الله؟ ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾«المؤمنون:١٠٣» ما لك لاهٍ، ولاعب، وأعمالك تحصى عليك؟ لماذا تجعل الشر أغلب على عملك؟ لماذا تسرف في الشر، وتنقص من الخير؟ لماذا تقوم إلى الخير كسلان، وتقوم إلى الشر نشيطاً عجلان؟ لماذا؟ لأنك لم تحاسب نفسك، لو حاسبت نفسك قبل أن تحاسب، لسارعت إلى الخير، وتضمن النجاة، وتضمن النجاة يوم القيامة، يوم تطيش الموازين، وتخف الموازين، وتقول: يا ليت لي مثقال ذرة توضع في حسناتي لكي تثقل، ستحتاج يوم القيامة إلى مثقال ذرة، وضعت السيئات والحسنات، قد استوت الحسنات والسيئات، أيضاً أنت في خطر، تريد مثقال ذرة لكي تثقل الحسنات، فأنت محتاج لمثقال ذرة لكي تثقل ميزان الحسنات، وأنت كم ضيعت مثاقيل، كم ضيعت على نفسك يا مسكين مثاقيل، أخف شيء لسانك وأنت تستعمله في الشر طول النهار، في

الغيبة، والنميمة، وشتم الناس، والسخرية من الناس، وبعد ذلك تأتي تذكر الله تجد لسانك ثقيل، والعياذ بالله، يثقل الشيطان الذكر على لسانك، مع أنك كلمة لو ذكرت الله بها مخلصاً ربما نفعتك هناك، ربما أثقلت ميزانك هناك، يقول صلوات الله وسلامه عليه: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»[1] هاتان كلمتان خفاف جداً على اللسان، ولكن الشيطان صائدنا يثقل ألسنتنا عن الذكر، ويملأ قلوبنا بالغفلة، انتبه دائماً يا عبد الله، فإنك مسئول، لم تخلق عبثاً، ولم تترك سدىً، بل أنت مسئول أمام الله، عن كل ما قدمت يداك، ولن ينفعك حين ذاك لا ولد، ولا والد، ولا زوجتك، ولا أماً، ولا أخٌ، بل سـ ﴿يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾«عبس:٣٧» ، ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾«فاطر:١٨» ، يأتي الرجل لزوجته، وهو محتاج لشيء يسير لكي يثقل ميزانه، يقول لها: أي زوج كنت لك، تقول له: يا سلام نعم الزوج، فيقول له: اليوم أنا محتاج منك مثقال ذرة فقط، تقول له: من أين؟ أنا لو أعطيتها لك ممكن يخف ميزاني أيضاً، فلا تعطه شيئاً، حتى مثقال الذرة سيشح عليك أبوك به، سيشح عليك ولدك به، ستشح عليك زوجتك وأمك به، لأنها تخشى أن يخف ميزانها لو أعطتها لك، فعليك نفسك ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، البخاري (٦٤٠٦)، مسلم (٢٦٩٤).

وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ «لقمان:٣٣»

عليكم يا عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله، فإن التقوى هي سفينة النجاة، هي سفينة الخلاص، وتقوى الله في السر والعلانية، ليس أمام الناس تتقي الله، فإذا خلوت فجرت وارتكبت ما لا يليق، بل يجب أن تستحي من الله، فإنك مهما خلوت فعليك رقيب، لا تظن أنك إذا خلوت لن يراك أحد، بل عين الله ناظرة إليك، فاستحي منه أن يراك حيث نهاك، وأن يفقدك حيث أمرك، واستحي من الله فالله أحق أن يستحيا منه، وانظر فيما أمرك به سيدك ومولاك، فكن عبداً حق العبد، ولا تكن عبد سوء، يخالف وتعصي، وتفجر، فإنك لاقٍ سيدك، وهو محاسبك، إنك تتمرغ في نعم الله، فلا تتمرغ في معاصي الله، إن نعم الله عليك لا تحصى، فلا تكدرها بالمعصية وقيدها بالشكر، وقد وعد الله المزيد من الشاكرين، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ «إبراهيم:٧».

عليكم بكتاب الله، بسطوره وحيه، تنزيله، أمره، نوره، هداه، عليكم به، أحلوا حلاله، حرموا حرامه، مثلوا أمره، اجتنبوا نهيه، اتعظوا بأخباره، ووعده، ووعيده، اقرءوا قراءة متدبر، لا قراءة الغافل اللاهي، ضعوه على أمراض قلوبكم، فإنه البلسم، وإنه الشفاء، ولا تجدوا الشفاء أبداً إلا في كتاب الله، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا

خَسَارًا﴾«الإسراء:٨٢» وعليكم بالسنن سنن رسول الله، آثار رسول الله، أقيموا السنن وأحيوها، واعملوا فيما بينكم بها، فإن السنة هي الضوء الكاشف، الذي يكشف لنا معاني كلام الله، وإن السنة هي الهدي الواضح، الذي لا غنى لمسلم عنه، وإلا ترك السنة عمىً وضلالة، والعمل بالسنة حياة ونور، فأحيوا قلوبكم بالسنن، وتدارسوها فيما بينكم، فالسنن هي التي تحمل إليكم عمل نبيكم، وأقوال نبيكم، وسلوك نبيكم، وأخلاق نبيكم، والله أمركم أن تقتدوا به، في قوله، وفي عمله، وفي شأنه كله، وقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، فأحيوا السنن يا عباد الله، تحيا قلوبكم يوم تموت القلوب، السنة هي التي يحشر أهلها بيض الوجوه يوم القيامة، والكفار بالسنن هم الذين يحشرون سود الوجوه يوم القيامة، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾«آل عمران١٠٧:١٠٦» ولن تردوا الحوض على رسول الله إلا إذا أحييتم سنته، إلا إذا أقمتم شريعته، إلا إذا تمسكتم بهديه، فخير الهدي هديه، وخير الطريق طريقه، اللهم اغفر للمؤمنين وللمؤمنات، اللهم لا تدع لنا ذنباً إلا غفرته، ولا عيباً إلا سترته، ولا هماً إلا فرجته، ولا ديناً إلا قضيته، ولا مريضاً إلا عافيته، ولا بعيداً إلا قربته، ولا مقطوعاً إلا وصلته، اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، اللهم ارحمنا ولا تعذبنا، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين يا أرحم الراحمين، اللهم

إنا نعوذ برضاك من سخطك، وفي عفوك من عقوبتك، ونعوذ بك منك سبحانك لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، اللهم رضنا وارض عنا، اللهم اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين، اللهم وفق ولاة الأمر منا إلى ما فيه الخير والعباد، وألهمهم السداد والرشاد يا أرحم الراحمين ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ «النحل: ٩٠».

تفسير سورة الملك

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ليس معه إله غيره، انفرد بالخلق والتدبير، فلا خالق غيره، ولا مدبر سواه، أحمده سبحانه وتعالى حمداً يكافئ نعمه، ويستوجب مزيده، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الذي بعثه بالحق، بين يدي الساعة، بشيراً، ونذيراً، فبلغ الأمانة، ونصح للأمة، وأرسله الله ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيقول الله ﷻ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِيًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾«الملك:٤» هذه آية كريمة من سورة الملك، التي يقول في شأنها رسول

الله ﷺ: «سورة من القرآن ثلاثون آية، شفعت لصاحبها»[1] أي لقارئها، أي لمن واظب وداوم على قراءتها، وتسمى المنجية، لأنها تنجي قارئها من عذاب القبر، يبدأها الله تبارك مادحاً نفسه الكريمة، ومثنياً على نفسه بما هو أهله، فيخبر عن نفسه أنه تبارك، أي تعاظم وتناهى عظمة وجلالاً، فلا حد لجلاله، ولا نهاية لعظمته، ولا كمال وراء كماله، بل له الكمال كله، وله الحمد كله، وله المجد كله، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، فهو سبحانه تبارك في نفسه، وهو يبارك غيره، يضع بركته فيمن يشاء من الأشخاص، وفيما يشاء من الأمكنة، والأزمنة، يقول الله تبارك وتعالى خبراً عن خليله إبراهيم، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾«الصافات:١١٣» ويقول على لسان المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾«مريم:٣١» ، ويقول عن بيت إبراهيم: ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾«هود:٧٣» ويقول عن بيته الحرام الذي بمكة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾«آل عمران:٩٦» ، ويقول عن ليلة القدر، التي أنزل فيها القرآن:

---

[1] رواه أبو داود في سننه (١٤٠٠)، والترمذي (٢٨٩١)، والحديث حسنه الشيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾«الدخان:٦» فالبركة كلها من الله ﷻ، وهو الذي ينزل من السماء ماءً مباركاً، ويخرج من الأرض بركاتها التي أودعها فيها، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾«فصلت:١٠» ويقول صلوات الله وسلامه عليه، لما وضع يده في القدح، وفار الماء من بين أصابعه، يقول لأصحابه: «حي على الطهور المبارك، والبركة من الله»[١] فلا ينبغي أن تلتمس البركة إلا من رب البركة، فهو الذي يبارك إن شاء، فيمن يشاء، وفيما يشاء، والبركة كلها منه سبحانه وتعالى، لا يجوز أن تلتمس من غيره، والبركة هي دوام الخير وكثرته، وهي إما بركة حسية، أو معنوية، فالبركة الحسية، هي البركة في المال، من زرع، أو تجارة، والبركة في الجسم، بإزالة الأمراض، ووضع الصحة فيه، والبركة في الأولاد، وفي الأزواج، وفي كل ما يملكه الإنسان من عرض هذه الحياة، هو الذي يبارك فيه سبحانه وتعالى، فيضع البركة فيما يشاء، من مال العبد، وأولاد العبد، وجميع عرض هذه الدنيا مما يملكه الناس، أما البركة المعنوية، فهي فيما يفتحه الله ﷻ على العبد، من العلوم النافعة، والدعوات المستجابة، والتيسير لأعمال الخير، والتوفيق للطاعات، كل هذه بركات من الله تبارك وتعالى، فسلوه وحده البركة، ولا

---

(١) رواه البخاري (٣٥٧٩).

تسألوا غيره البركة، فإن البركة كلها عند الله ﴿تبارك﴾ هو تبارك في نفسه، وهو رب البركة يضعها فيما يشاء، وهو بيده الملك، ﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ الملك كله من عرشه إلى فرشه بيد الرحمن، هو الذي يمسكه، وهو الذي يحفظه، وهو الذي يكلؤه ويرعاه، وهو الذي يقلب الليل والنهار، وهو الذي يسخر المسخرات، وهو الذي يجري الجاريات، فهي مملكته وحده، لا شريك له، ولا منازع له فيها، بل له الملك وحده، يتصرف فيه كيف يشاء، بلا شريك، ولا منازع، فأمور الخلق كلها بيده، وكلها جارية بقدره، وكلها تابعة لمشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلو أراد الخلق كلهم شيئاً، وأراد الله خلافه، فلم يكن إلا ما أراده الله ﷻ، ولو أراد هو شيئاً، وأراد الخلق كلهم خلافه، لم يكن إلا ما أراده الله ﷻ، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا مكره له، على خلاف ما يريد سبحانه وتعالى، الملك كله بيده، يتصرف فيه كيف يشاء، فبيده وحده الإشقاء والإسعاد، وبيده وحده الإذلال والإعزاز، وبيده وحده الإعطاء والمنع، وبيده وحده الضر والنفع، وبيده وحده القبض والبسط، وبيده وحده الصحة والمرض، كل ذلك لا يكون إلا بأمره، إلا بإذنه، ﴿بيده الملك﴾ الملك كله من عرشه إلى فرشه بيد الرحمن، كخردلة في كفك أيها الإنسان، لا يعجزه شيء في مملكته الواسعة المتباعدة الأنحاء، ولا تخفى عليه خافية، في الأرض ولا في السماء، بل مهما تكن من حبة خردل في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير، فعليك إذاً، ألا تتوجه بحاجتك،

ولا بدعائك، إلا إلى من بيده الملك، إلا إلى من بيده خزائن السماوات والأرض، إلا إلى من يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا تطلب الخير إلا من الله، ولا تستدفع الشر إلا بالله، فإنه ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾«الأنعام١٨:١٧» ، ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾«فاطر:٢» ، ومصداق ذلك من السنة الصحيحة، قول رسول الله ﷺ لابن عمه، عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظ، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت الله فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك بشيء قد كتبه الله عليك، جفت الأقلام، وطويت الصحف»[1] فالكل جارٍ بقضاء الله، والكل واقع تحت حكم الله، والكل مقدور بمشيئة الله، لأنه هو وحده الذي بيده الملك، وهو عل كل شيء قدير، كل شيء يشاؤه، ويريده، لا يمتنع عليه، ولا يعجزه، بل مهما أراد شيئاً، فإنما يقول له: كن فيكون، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾«فاطر:٤٤» فهو قادر أتم القدرة،

---

[1] رواه الترمذي في سننه (٢٥١٦) والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (١٣١٧/٢).

وأعظم القدرة وأكمل القدرة، لا تكل قدرته، ولا تعجز قوته، مهما خلق، ومهما رزق، فلن يغيض ما في يده، بل يمينه ملآ، سحاء الليل والنهار، يتتابع خيره على عباده، ويرزقهم، ويعافيهم، مع ما يرتكبونه من معاصيه، ومخالفاته، لأن رحمته سبقت غضبه، لأنه لما قضى الخلق، وفرغ من الخلق، كتب في كتابٍ فهو عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي، فرحمته وسعت كل شيء، في هذه الدنيا لم ينس من رحمته شيئاً، ولكن غضبه مخصوص بأعدائه، من الكفار، والمنافقين، والمجرمين، ومع ذلك رحمهم في الدنيا، ولم ينسهم من رحمتهم، ولكنه سينساهم يوم القيامة، لأنه نسوا أنفسهم، فنسيهم الله ﷻ من رحمته، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ بيان لحكمة الله في خلقه، لماذا خلقنا الله؟ لماذا أوجدنا الله على ظهر هذه الأرض، وسخر لنا كل شيء، في السماوات، وفي الأرض؟ لماذا جعلنا أحياءً ندب على الأرض؟ ليبلونا أينا أحسن عملاً، هذه هي الحكمة التي من أجلها خلق الله هذا الإنسان، وسخر له جميع الأكوان ليمتحنه، ويختبره، ليبلون أينا أصدق، وأحسن عملاً من غيره، وما أحسن العمل، الذي ابتلانا الله من أجله؟ أحسن العمل يقول بعض السلف رضي الله عنهم: (أحسن العمل أصوبه وأخلصه) ما معنى أصوبه وأخلصه؟ أصوبه أي أكثره موافقة واتباعاً لسنة رسول الله ﷺ، هذا أصوب العمل، فما وافق السنة فهو الصواب، وما خالفها فهو البدعة والضلال، وأما أخلصه، يعني أبعده عن الرياء، وأبعده

عن الشرك، والعمل إذا كان صواباً خالصاً قبل، وإلا رد على صاحبه، فإذا كان صواباً أي موافقاً للسنة، ولكن لم يكن خالصاً، بل شابته شوائب الرياء، والشرك، رده الله على صاحبه، وكذلك إذا كان خالصاً، ولم يكن موافقاً للسنة، رده الله على صاحبه، يقول صلوات الله وسلامه عليه فيما روته عنه أم المؤمنين رضي الله عنها: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[1] أي مردود على صاحبه لا يقبله الله ﷻ، ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾أي موافقاً للسنة ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾«الكهف:١١٠» فالعمل إذا كان صواباً خالصاً، فهو العمل الذي يرجى له القبول عند الله ﷻ، وأما كل عمل فقد واحداً من هذين الشرطين، فلن ينظر الله إليه، بل يضرب به وجه صاحبه، ويرده عليه، لأن أغنى الأغنياء عن الشركة، فمن عمل أشرك فيه مع الله غيره تركه وشركه، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾الناس يسعون في هذه الحياة، فمنهم من يحسن، ومنهم من يسيء، منهم من يمشي مكباً على وجهه، ومنهم من يمشي سوياً على صراط مستقيم، منهم من عرف الغاية التي من أجلها خلقه الله، فحقق الغاية من وجوده، فعبد الله وحده، ولم يشرك به شيئاً، وقام لكل ذي حقه بحقه، فهذا هو البر المحسن، ومن الناس من اتخذ الحياة لعباً ولهواً، لم يعرف الغاية من وجوده ،ولا حققها، بل يعيش كما تعيش الأنعام، لا هم له إلا يملأ بطنه، لا هم له إلا هذه

---

(١) تقدم تخريجه.

الشهوات التي تتمتع بها الأنعام، لم يعمل لآخرته، ولم يتزود لمعاده، ولم يقم لأحد بحقه، فلا هو قام بحق الله عليه في العبادة والطاعة، ولا هو قام للناس بحقوقهم، هذا هو المسيء، المذنب، الخطاء، المجرم، الناس فريقان إذاً: بر محسنٍ، ومجرم آثم كفور، فهو سبحانه وتعالى العزيز الغالب لكل من خالفه وعصاه، الغفور لكل من تاب إليه وأناب، ﴿وهو العزيز﴾ ذو العزة، والغلبة، والقهر لأعدائه، وذو المغفرة والرحمة لأوليائه، ﴿وهو العزيز الغفور﴾ ثم تلتفت بنا الآيات الكريمة إلى العالم العلوي، عالم السماوات، الذي نراه على بعد، نرى السماء في زرقتها، تبهج النظر، وتسر الخاطر، ﴿الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ يا لها من قدرة هائلة عظيمة، خلق فوقنا هذه السبع طباق، هذه السماوات السبع خلقها الله طباقاً بعضها فوق بعض، بعضها يعلو بعضاً، وكل سماء منها في جوف السماء التي فوقها، فالأرض في جوف السماء الأولى كحلقة ملقاة في فلاة، والسماء الأولى في الثانية كحلقة ملقاة في فلاة، والثانية في الثالثة إلى السابعة، والسموات السبع والأرض كلهن في جوف الكرسي، كحلقة ملقاة في فلاة ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾«البقرة:٢٥٥» ﴿الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾يقول علماء الفلك، أو علماء الجغرافيا: إننا لنرى السماء، وهذه الزرقة التي نراها إنما هي انعكاسات وأضواء، لا ورب العزة، إنها هي السماء، التي أمرنا الله أن ننظر فيها، ونتأملها، ونكرر النظر إليها، هل نرى فطوراً؟ هل نرى فيها خللا؟ هل

نرى فيها شقوقاً؟ كلا ورب العزة، ما نرى إلا سماءً، سواها ربها وبناها، ورفعها سمكها فسواها، وأغطش ليلها، وأخرج ضحاها، هي السماء في علوها وارتفاعها، وبهائها، وحسنها، والتئامها، هي السماء الذي أمرنا ربنا أن ننظر إليها لأنها آية من آياته، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾«ق:٦»، ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾«الأنبياء:٣٢»، ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ليس السماء فقط، أي شيء خلقه الله ما ترى فيه خللاً أبداً، ولا فطوراً أبداً، ولا تنافراً أبداً، بل تجد التسوية المحكمة، البناء المتقن، الصنعة الباهرة، التي تبهر عقلك، وتدهش حسك، انظر إلى أصغر مخلوقات الله، انظر إلى النملة التي تدب، انظر إلى النملة السوداء الصغيرة، تأمل جسمها الصغير، كيف أودعه الله؟ ما أودع فيه؟ فيها عينين، ولسان، وشفتين، وحماليق، وأرجل، وشرايين، وأمعاء، وتراها تدب على رزقها وتراها تعيش في مملكتها، وتعرف وظيفتها التي أعدها الله لها، فسبحان من خلق وسوى، وقدر فهدى، تظهر حكمته في أصغر مخلوقاته، كما تظهر عظمته في أكبر مخلوقاته، ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ أبداً، لا خلل أبداً في الخلق، ولا تنافر في الخلق، بل فيه كل العجب، فيه كل ما يدهشك، ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾رد البصر إلى السماء، وانظر فيها مرة، بعد مرة ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾يعني كرر نظرك إلى السماء ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾هل ترى فيها من شقوق؟ أبداً ملساء محكمة،

مستوية لأن بانيها هو الله ﷻ، الباني للسماء هو الله، فأحكم البناء وسواه، فلا خلل ولا فتور، فيما خلق الله، ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ مدحوراً، صغيراً، مهيناً ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي كليل من كثرة النظر، ومداومة النظر، ينظر ثم ينظر، فلا يجد إلا الحسن والبهاء، لا يجد أبداً خللاً، ولا يجد أبداً ضعفاً ولا وهناً، وبعدين زينها رب العزة، فهو جميل، ورب كل جميل، ويحب الجمال، أودع هذه السماء الدنيا جملها وزينها بكواكب مضيئة، مشتعلة تظهر في الليل كأنها در منثور على صدر حسناء، هو الذي وضع هذه الكواكب زينة للسماء، هو الذي جعلها زينةً لهذه السماء الدنيا ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ أي قريبة من الدنيا ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ وجعلنا هذه المصابيح كما هي زينة للسماء، رجوماً للشياطين، كلما أرادوا أن يسترقوا السمع، رموا بهذه الشهب فثقبتهم، وخرقتهم كما قال ربنا: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ «الصافات:١٠» فالشهب يرمى بها على الشياطين التي تحاول استراق السمع، وإذاً فلا كهانة ولا عرافة، ليس هناك كهانة، ولا عرافين يعرفون ماذا سيحدث بعد لحظة، ولا بعد دقيقة، هذه الشياطين كانت تسترق السمع زمان، فيأتي الشيطان بالكلمة فيقرقرها في أذن أخيه من الإنس، فيخبر بها، فتقول الناس: الكهان يعرفون الأخبار، لكن لم يعد هناك شياطين تسترق السمع من

السماء فمن أين يجيء علم الغيب؟ الجواب: انتهى ذلك ببعثة رسول الله ﷺ، فحيل بين الشياطين وبين خبر السماء، فلم يعد هناك كهانة، ولا عرافة، ولم يعد أحد يستطيع أن يخبر ماذا سيحدث بعد لحظة ولا بعد دقيقة، إذاً لا تذهب لكاهن، ولا لعراف، ولا لساحر، فلا يستطيع أبداً جنه، شيطانه، لا يستطيع أن يخبره بشيء من خبر الغيب المستقبل أبداً، لا أحد يعرفه أبداً، مفاتيح الغيب كلها عند الله، لا يعلمها غيره ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾«لقمان:٣٤» زين الله ﷻ السماء الدنيا بمصابيح، وجعلها رجوماً للشياطين، ليس العذاب في الدنيا فقط، بل ينتظرهم عذاب أشد وآلم من هذا العذاب الدنيوي، قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾الحريق في جهنم والعياذ بالله، وهل هذا للشياطين فقط؟ لا، بل كل كافر، كل كافر فهو في النار مع شيطانه الذي خذله وأغراه، ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾«الملك٦:٧» الشهيق صوت إدخال النفس، صوت الحمار حين يأخذ نفسه، والزفير إخراج النفس، فلها شهيق وزفير، النار لها شهيق وزفير، كشهيق الحمار وزفيره، وتشهق وتزفر ثم ﴿تكاد تميز من الغيظ﴾تكاد تتقطع قطعاً من غيظها على أهلها، تقول كل سنة لربها: يا رب أكل بعضي بعضاً، أين أذهب حرارتي؟ فأذن الله لها بنفسين: نفس في الصيف، ونفس في الشتاء، أشد ما

تجدون من الحر، هذا نفس جهنم، أشد ما تجدون من الزمهرير في البرد، هذا نفس جهنم، والعياذ بالله، فاستعيذوا بالله من نار جهنم، من حرها وزفيرها، وسعيرها، وضربها، وزمهريرها، وسلوا الله ألا يجعلكم من أهلها، ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾«آل عمران:١٨٥».

بعدما بين الله ﷻ المآل والمصير، الذي أعده للشياطين، رسل الشر في هذا العالم، والذين وكلوا بالإغواء، والإضلال لبني آدم، وبعدما بين المآل والمصير الذي ينتظر كل كافر بالله ﷻ، بين ما ينتظر الأبرار الطيبين، الذين عرفوا ربهم، فقدروه حق قدره، وقاموا له بعظيم حقه، وخشوه حق خشيته، فيقول جل من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾«الملك:١٢» يخشونه وهم لم يروه، يخشون ربهم وهو غائب عن أعينهم، هذه خشية بالغيب، ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾أي يخشونه غائبين عن أعين الناس، لأن فيه ناس أمام الناس يتظاهر بالخشية، ويتظاهر بالصلاح والتقوى، فإذا انفرد كان إبليساً من الأبالسة والعياذ بالله، لكن هؤلاء حتى في الخلوة، حتى في البعد عن الناس يخشون ربهم، ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ماذا لهم عند الله؟ ﴿لَهُمْ﴾عند الله ﴿مَغْفِرَةٌ﴾لذنوبهم وستر لها، فلا يعاقبهم الله عليها، ولا يؤاخذهم بها، ولهم بعد المغفرة ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾لا أحد يعرف قدر هذا الأجر، لا أحد يعرف الله قال: ﴿أجر كبير﴾لكن لا يعلمه مقداره إلا الله ﷻ، فهو الذي يعلم مقدار

ما أعد لعباده الصالحين من الأجر والثواب، من حسن المثوبة والكرامة، وتالله لو لم يكن لهم عند الله إلا رضاه، وإلا رؤية وجهه، لكفى بذلك أجراً كبيراً، اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، اللهم لا تدع لنا ذنباً إلا غفرته، ولا عيباً إلا سترته، ولا هماً إلا فرجته، ولا ديناً إلا قضيته، ولا مريضاً إلا عافيته، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة لك فيها رضاً ولنا فيها صلاح إلا قضيتها يا أرحم الراحمين، اللهم إنا نعوذ برضاك بسخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، ونعوذ بك منك سبحانك لا نحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، اللهم أعطنا ولا تحرمنا، اللهم زدنا ولا تنقصنا، اللهم أكرمنا ولا تهنا، اللهم رضنا وارض عنا، اللهم آثرنا ولا تؤثر علينا يا أرحم الراحمين، اللهم وفق ولاة المسلمين إلى ما فيه خير الإسلام وعز المسلمين يا أرحم الراحمين، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رءوف رحيم.

تفسير قول الله تعالى: {الله نور السماوات}

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله الله، ليس معه إله غيره، أنزل القرآن العظيم وضرب لنا فيه من كل مثل، لعلنا نتذكر أو نعتبر، وجعله تبياناً لكل شيء، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، وجعلها كتاباً قيماً لا عوج فيه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، ووعده أن يظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون، فصدع بأمر ربه، وبلغ رسالته كاملة، ونصح للأمة، وأبان لها طريق الحق واضحاً جلياً، وحذرها من سبل الضلال، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾«الأنعام:١٥٣» صلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه، الذين اهتدوا بهداه وساروا على نهجه، فكانوا خير أمة أخرجت للناس، أما بعد:

فيقول الله ﷻ في سورة النور﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ

وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾«النور:٣٥» كل من في الوجود يطلب النور، الإنسان يأنس إلى النور، ويستوحش من الظلمة، والوحوش والطيور ترجع إلى أوكارها إذا أقبل عليها الليل بظلامه، كأنها تفر من عدو يتربص بها، فإذا بزغ الفجر، وظهر الضياء، خرجت الطيور من أعشاشها، وخرجت الوحوش من أكنتها تطلب رزق الله، وتسعى لحياتها، حتى النبات يتفتح للنور، وينقبض للظلام، كل شيء في هذا الوجود يحب النور، ويكره الظلام، هذا الفراش الذي يتهافت حول المصباح إنه يقتل نفسه من أجل أن يعيش في النور، والنور اسم من أسماء الله ﷻ، وصفة من صفاته، فهو النور، وهو ذو النور، وهو المنور للسماوات والأرض بنوره، ووجهه نور، اسمع إلى قوله ﷺ في دعائه المشهور، حين آذاه أهل الطائف يقول: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل بي سخطك، أو أن ينزل عليَّ غضبك، و لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[١] وحجابه النور، الحجاب الذي احتجب به عن خلقه، والذي رآه نبينا ﷺ ليلة أسري به، حين قال لما سئل هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه»[٢] أو قال: «رأيت نوراً» فذلك

---

[١] ضعيف: رواه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٣/ ٧٣/ ١٨١)، انظر السلسلة الضعيفة (٦/ ٤٨٦).

[٢] رواه مسلم (١٧٨).

النور، هو نور الحجاب الأعظم، الذي احتجب به الرب جل شأنه، وهو الذي ورد في قوله ﷺ في حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات، فقال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي لا أن ينام، يرفع القسط ويخفضه، يرفع إليه عمل النهار قبل الليل، وعمل الليل قبل النهار» ثم قال: «حجابه النور» أو قال: «النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[١]، وعرشه نور، يقول ابن مسعود ﷺ: (إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه، فالعرش هو أنور المخلوقات، وأظهرها، وأعلاها، وأشرفها، لأنه هو الذي استوى ربنا عليه، فليس بين العرش وبين الله مخلوق سواه)، والجنة نور، هي نور تظهر، بيضاء مشرقة، لا ظلام فيها، بل هي نور، وكل ما فيها نور، والذي يدخلها نور، فلن تدخل الجنة وفيك ظلمة، ولن تدخلها إلا وأنت نور، قد صفيت ونقيت من كل ظلمة، ومن كل دنس، لأنها دار الطيبين، لا يدخلها إلا طيب، وتقول الملائكة لأهلها: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾«الزمر:٧٣» ، وكتاب الله نور، ذلك القرآن العظيم الذي أنزله الله ﷻ نوراً يهدينا إلى الرشد، ويبصرنا من العمى، ويعرفنا الطريق الأقوم، ويهدينا للتي هي أحسن، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾«المائدة١٦:١٥»،

---

[١] رواه مسلم (١٧٩).

ووحي الله نور ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾«الشورى:٥٢» ، ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾«الأنعام:١٢٢» ، وإيمان المؤمن في قلبه نور، ذلك النور الذي يفرق للمؤمن بين الحق المنزل، وبين الباطل المفتعل، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾«الأنفال:٢٩» في قلوبكم، وهو ذلك النور الذي يجعله الله في قلب المؤمن، ليكون فرقاناً له، يفرق به بين حق الله وباطل الناس، وهذا النور هو الذي يسعى بين يدي المؤمن وأمامه يوم القيامة، وهو الذي يهديه الصراط، وهو الذي يمشي في ضوءه المؤمن، حتى يدخل دار الرحمة ودار السلامة، يقول الله تعالى:﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾«الحديد:١٢» ، وكلام المؤمن نور، لأنه لا يقول إلا طيباً، ولا يتكلم إلا بحق، فكلامه إما ذكراً لله، وإما نصح لعباد الله، وإما تسبيح وتحميد لله، وإما قراءة لكلام الله، فكلامه وقوله نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره يوم القيامة إلى نور،﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ هو سبحانه الخالق المدبر لكل هذه الأنوار، ما كان منها حسياً يرى بالأبصار، وما كان منها

معنوياً يرى بالبصيرة، فالله الخالق لكل نور، خلق لنا الشمس سراجاً تضيء لنا بالنهار، فإذا غربت عنا وأقبل الظلام تلاها القمر، فأضاء لنا في غسق الليل، ثم هذه النجوم التي تتلألأ من فوقنا، كل ذلك بأمر ربنا، فهو المنعم علينا بتلك الأنوار، نور الشمس، ونور القمر، ونور النجوم والكواكب، ونور الكهرباء، تلك المصابيح التي نوقدها في الليل فتضيء لنا، وما عليك إلا أن تمس ذراً من الأزرار فتنير لك هذه المصابيح حجرتك أو بيتك، من قدر هذا النور؟ من أنعم بهذا النور؟ الله النور، وخالق النور، والأنوار كلها المعنوية، الإيمان، العلم، المعرفة، التوحيد، المحبة، الرحمة، كلها في قلبك أيها المؤمن نور، توحيد الله نور، ومعرفة الله نور، وعلمك بالحق نور، كان ﷺ يسأل الله النور في كل شيء، حتى يقول: «اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، ومن أمامي نوراً، ومن خلفي نوراً، وأعظم لي نوراً، وزدني نوراً»[1] فنحن نسأل الله النور، يحيط بنا من كل ناحية، ويملأ قلوبنا بالمعرفة الصحيحة، والإيمان بالله العلي الكبير، ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ كل نور فهو من نوره، كل نور فهو أثر من آثار فضله ورحمته، يقول صلوات الله وسلامه عليه: فيما رواه عبد الله بن عمر بن العاص رضي الله عنهما «إن الله خلق خلقه في ظلمة، فألقى عليهم من

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، البخاري (٦٣١٦)، مسلم (٧٦٣).

نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل»[١] فنسأل الله أن يصيبنا رشاش من نور الله، حتى يهدينا الله به، ويملأ قلوبنا نوراً بمعرفته وتوحيده، ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ السماوات العلى كلها نور، لأن الملائكة التي تسكنها نور، والملائكة خلقوا من نور، فالسماء تتلألأ بالنور، لأن عمارها من الملائكة نور، والأرض هي مظلمة بذاتها، لكن الله رحمها فألقى عليها من النور، وجعل لها الشمس سراجاً منيراً، وجعل لها نوراً فيها يضيء لأهلها، فهو نور السماوات والأرض، كل نور في السماوات والأرض فهو منه فضلاً، وهو منه رحمة، وهو هادي أهل السماوات والأرض، لا هادي لهما غيره، ولا رب لهما سواه، ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ﴾ هذا مثل يضربه الله لقلب المؤمن، الذي أودع فيه الإيمان والقرآن، وكل من الإيمان والقرآن نور، الإيمان في قلب المؤمن نور، والقرآن فيه نور فهما نوران: نور مفطور فطر الله عليه المؤمن، ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾«الروم:٣٠» ، ونور مكتسب منزل من وحي الله، لك أيها المؤمن في قلبك نوران: نور الإيمان الفطري الذي أودعه الله فيك بفطرتك السليمة المستقيمة، ثم نور الوحي والقرآن الذي أنزله الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فشربه المؤمن في قلبه فكان نوراً على نور، يضرب الله المثل لهذا النور

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٢٦٤٢)، والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح سنن الترمذي.

الذي في قلب المؤمن، بأنه كزجاجة فيها مصباح، وهذا المصباح الذي في الزجاجة، ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾ انظر إلى هذا المثل الرائع العجيب، الذي يضربه الله لنا، الزجاجة ضربت مثلاً لقلب المؤمن في صفائه، في نقائه، في رقته، فقلب المؤمن يشبه الزجاجة التي تحيط بالمصباح، لأنه شفاف، ولأنه صافٍ لامع، ولأنه رقيق غير ثخين، ثم المصباح، يعني الفتيلة الموقدة المشتعلة داخل الزجاجة، هي ذلك النور نور الإيمان والقرآن في قلب المؤمن، فقلب المؤمن زجاجة، ونور الإيمان والقرآن هو المصباح الموقد في تلك الزجاجة، وهذه الزجاجة موضوعة في مشكاة، والمشكاة هي صدر المؤمن، المشكاة أي الطاقة أي التي لا منفذ لها، ضربت مثلاً لصدرك الذي فيه قلبك، لأن الصدر محل القلب، كما أن المشكاة محل المصباح، ثم ضربت الزجاجة كما قلنا مثلاً للقلب، ثم ضرب المصباح المشتعل داخل الزجاجة مثلاً لنور الله في قلب المؤمن، اسمع معي الآية الكريمة ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أي نور عبده المؤمن، الذي هو الإيمان والقرآن ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ وهي الطاقة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ﴾ لرقتها وصفائها، فتزيد من ضوء المصباح ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ كأنها كوكب لامع مضيء في كبد السماء، هذا المصباح، كل مصباح يحتاج إلى زيت يوقده، هذا المصباح الذي هو داخل تلك الزجاجة يوقد منين؟ من زيت زيتونة، من زيت زيتون شجرة مباركة، ﴿لا شَرْقِيَّةٍ﴾ لماذا لا شرقية ولا غربية؟ قال العلماء: إن شجرة الزيتون

إذا نبتت في الصحراء لا يحجبها عن الشمس جبل، ولا شجر، ولا جدار، ولا بناء، فإن الشمس تطلع عليها إذا طلعت، وتغرب عليها إذا غربت، فهي تتعرض للشمس طيلة النهار وذلك، هي عارية لا يحجبها عن الشمس حاجب، فالشمس تطلع عليها أول النهار، وتغرب عليها آخر النهار، فذلك أصفى وأجود لزيت الزيتونة، ولهذا يقول في وصفها ربنا ﷻ: ﴿شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾ لأنها لو كانت شرقية لما انتفعت بالشمس في آخر النهار، ولو كانت غربية لما انتفت بالشمس أول النهار، لكنها ﴿لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾ بل هي شرقية غربية، ليست شرقية فقط، ولا غربية فقط ﴿لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾ ثم قال سبحانه: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ من شدة اللمعان، ومن شدة الصفاء ﴿يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ يكاد يضيء من نفسه، ولو لم تمسسه نار، صحيح يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، لكنه لا يكون ناراً إلا إذا مسته النار، فكذلك الإيمان في قلب المؤمن يكاد يضيء ولو لم ينزل عليه نور القرآن، ولكنه لا يضيء إلا إذا نزل عليه نور القرآن، كما أن زيت تلك الزيتونة لا يضيء، ولا يشتعل إلا إذا مسته النار، فكذلك تلك الفطرة التي فطر الله عليها المؤمن، يكاد زيتها يضيء، ولكنه لا يشتعل إلا بوحي القرآن، هو نور القرآن، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ لكن إذا مسته النار اشتعل، وأضاء، وملأ الدنيا نوراً، فكذلك قلب المؤمن، إيمان المؤمن، هو نور في قلبه، لكنه لا يشتعل، ولا يتسع، ولا يمتد، ولا ينتفع به الناس، إلا إذا نزل عليه نور

القرآن ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ إذا يكون ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ نور الوحي والقرآن، على نور الإيمان، فصار لك نوران، بل صار لك خمسة أنوار، كما روي عن سيد القراء أبي بن كعب ﷺ قال: (بل للمؤمن خمسة أنوار) فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، وهو يوم القيامة يصير إلى خمسة أنوار لك أيها المؤمن حتى تذهب إلى النور الدائم الباقي الذي لا يفنى، حتى ترجع إلى ربك راضياً مرضياً، حتى تدخل جنته، ودار رحمته، فلا ترى ظلمة أبداً ولا ترى عدما أبداً، ولا ترى فناءً أبداً، ولا ترى مرضاً ولا هماً أبداً، بل كل ما فيها نور فوق نور، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يهدي الله لنوره المنزل، فنور الفطرة في كل قلب، بس القلوب منها كما قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه: فيما رواه أبو سعيد الخدري ﷺ يقول: «القلوب أربعة» واختر لنفسك أنت «القلوب أربعة» يعني أربعة أصناف، أربعة أنواع، القلوب أوعية، وآنية، فيه وعاء فيه تفاح، وخوخ، ورمان، وفيه وعاء فيه فسيخ، وجبنة مالحة، بل فيه دود، وعقارب، وحيات، نعم الوعاء أنت تستطيع تملأه من الأشياء الطيبة الحلوة، وتستطيع أن تملأه من القاذورات، والخبائث، «القلوب أربعة: قلب مثل السراج يظهر، فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وذلك قلب الكافر، وقلب منكوس أسفله إلى أعلاه، وذلك قلب المنافق، وقلب فيه من هذا، ومن هذا» فيه من الخير، وفيه من الشر، سماه الرسول قلب مصفح، «فيه من هذا، ومن هذا، فأي اللذتين غلبت عليه فهو لها» إن غلبت

عليه مادة الخير فهو إلى خير، وإن غلبت عليه مادة الشر والنفاق فهو إلى شر والعياذ بالله، نسأل الله أن يجعلنا قلوبنا مثل السراج الذي يظهر ويضيء، ﴿يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ﴾ يعني للنور المنزل ﴿من يشاء﴾ من عباده، ممن علم استعدادهم لتلقي ذلك النور، وقبول ذلك النور، فليست القلوب كلها تستحق أن يحتلها ذلك النور، يا أخي الأرض فيها طائفة طيبة، أرض خصبة ينزل عليها الماء فتهتز، وتربو، وتنبت من كل زوج بهيج، وفيه أرض ملحة تأكل ما فيها من زرع ونبات، ولا تنتفع بالماء الذي يسقيها، فالأرض معاد، وقلوب بني آدم معادن، فالقلب الذي معدنه طيب هو الذي يقبل نور الله، وهو الذي يحيا بنور الله، وهو الذي يستعد لتمثل هذا النور وتلقي هذا النور، أما القلوب الميتة الجامدة والعياذ بالله فترفض النور وتأباه، ونحن نرى كلمة الحق تلقى، يلقيها واحد، أو يلقيها عالم، فترى بعض القلوب تهش لها، وتفرح بها، وتنجذب إليها، وترى بعض القلوب تنفر منها، وتعرض عنها وتأباه، هذا نراه في كل وقت، وفي كل زمان، والله ضرب المثل للكلمة الطيبة في قلب المؤمن بـ ﴿شَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ «إبراهيم٢٥:٢٤» ، وضرب المثل للكلمة الخبيثة في قلب الكافر بـ ﴿شَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ «إبراهيم:٢٦» فاجعل أرض قلبك أرضاً طيبة، اجعل أرض قلبك أرضاً طيبة، لا يحلها إلا الطيب من المعاني، لا يحلها إلا التوحيد، والإيمان، والمعرفة الصحيحة بالله ﷻ، لا يحلها إلا

الرحمة بالمؤمنين، إلا العطف، إلا الشفقة، إلا التواضع، إلا النصح لعباد الله، ولا تجعل قلبك مريضاً بداء الشهوات، ولا مريضاً بداء الشبهات، حتى لا يذهب إلى مصير أسود، حتى لا يوقعك، ويوردك موارد الهلكة والشقاء، نظف قلبك أيها المؤمن، من كل خبيث ومن كل قذر، اخرج منه الشرك، الحقد، الكبر، العجب، الرياء، أخرج منه البخل، أخرج منه الجبن، أخرج منه كل هذه المعاني القذرة، واملئه بالحب والتواضع والرحمة، حتى يكون قلباً حياً بنور الإيمان وبنور العلم والعرفان، ﴿يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ فهمنا هذا المثل الذي ضربه الله لنا، نرجو أن نكون قد فهمناه.

يقول الله ﷻ بعد ذلك: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾«النور٣٨:٣٧» ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ يعني هذا النور المنزل وهو القرآن، يتلى ويقرأ في بيوت، وهي المساجد ﴿أذن الله﴾ وأمر ﴿أَنْ تُرْفَعَ﴾ أن تنزه من اللغو، ومن كل دنس، وأمر ببنائها، وعمارتها، وتطهيرها، ﴿أذن الله أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ يصلى له فيها، ويسجد له فيه، ويسبح له فيها، فالمساجد إنما بنيت لذكر الله وللصلاة، فلا يجوز أن تستعمل في غير ما بنيت له، ﴿أذن الله أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ أي يصلى له، وكل تسبيح في

القرآن كما قال ابن عباس: (هو صلاة)، ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ﴾ أي في أول النهار ﴿وَالآصَالِ﴾ أي في آخر النهار كأنها إشارة إلى صلاة الصبح، وإلا صلاة العصر، وقد هاتان الفريضتان أول ما فرض على المسلمين، ثم جعلها الله كل يوم خمس صلوات كل يوم وليلة في ليلة الإسراء، لكن أول ما فرضت على المسلمين صلاة في أول النهار، وصلاة في آخر النهار، فصلاة أول النهار الصبح، وصلاة آخر النهار العصر، وهما أفضل الصلوات، لأن فيها تجتمع ملائكة الليل، وملائكة النهار،﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ ﴿رِجَالٌ﴾ وكلمة رجال لا تطلق في القرآن إلا على ذوي الهمم والعزائم، لذلك تقول: هذا راجل، فربنا يمدح هؤلاء، ويثني عليهم، أنهم رجال ذوي عزائم، وذوي همم عالية، اسمع إلى قوله تعالى في آية أخرى:﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾«التوبة:١٠٨»، اسمع إلى قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾«الأحزاب:٢٣»، فكلمة رجال في القرآن تريد رجال، يا رب اجعلنا رجال كما قال القرآن: ﴿فيه رجال﴾ كلمة رجال عنوان على الهمة، عنوان على الشجاعة، عنوان على العزيمة الماضية، عنوان على الأصالة وعلى الشرف وعلى الكرامة، ولا يقولها القرآن أبداً إلا إذا أراد وصف أصحابها بأحسن الصفات،﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ﴾ ولا تشغلهم، لا تجارة يتعاطونها فيما بينهم ﴿وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لا يشغلهم شاغل، من شواغل الدنيا، وزينتها،

وزخرفها، لا يشغلهم عن ذكر الله، ولا عن إقام الصلاة، ولا إن إيتاء الزكاة، لماذا؟ لأنهم ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ يعملون ذلك لأجل ذلك اليوم، يستعدون لهذا اليوم، وجزاؤهم على الله وأجرهم عند الله، ما هو؟ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعطي لهم جزاؤهم على عملهم ويزيدهم أيضاً، ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ لأن الجزاء على قدر العمل، لكن قال: ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني بعد ما يعطيهم حقهم وزيادة كمان، ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، اللهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين، اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، اللهم لا تدع لنا ذنباً إلا غفرته، ولا عيباً إلا سترته، ولا هماً إلا فرجته، ولا ديناً إلا قضيته، ولا مريضاً إلا عافيته، ولا ميتاً إلا رحمته، ولا مقطوعاً إلا وصلته، ولا بعيداً إلا قربته، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة لنا فيها صلاح و لك فيها رضا إلا حققتها بمنك وكرمك يا أرحم الراحمين، اللهم أعطنا ولا تحرمنا، اللهم زدنا ولا تنقصنا، اللهم أكرمنا ولا تهنا، اللهم ارحمنا ولا تعذبنا، اللهم آثرنا ولا تؤثر علينا، اللهم رضنا وارض عنا يا أراحم الراحمين، اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك سبحانك لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، اللهم انصر الإسلام والمسلمين، اللهم أعل كلمتي الحق واليقين، اللهم اجمع المسلمين على كلمة سواء يا أرحم الراحمين، اللهم وحد صفوفهم، اللهم اجمع شملهم، اللهم

انصرهم على عدوهم، ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين.

حادث الهجرة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ليس معه إله غيره، جعل في تقلب الأيام، وفي تصرم الأعوام، عبرة وذكرى لأولي الألباب، وهيأ لأهل الهمم بذلك الحوافز ليصلحوا من نفوسهم، ويزكوا من قلوبهم، ويعتبروا بما يجريه الله في أيامه من أحداث وعبر، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله خاتماً، وأرسله داعياً، وأرسله بالهدى ودين الحق، ليبلغ رسالة ربه، ويهدي الناس إلى صراط ربهم، إلى صراط العزيز الحميد، صلى الله وسلم وبارك على عبد الله ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه من دعا بدعوته إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن هذا اليوم المبارك هو غرة شهر الله المحرم، وشهر المحرم هو أول شهر في العام الهجري، فإن أصحاب رسول الله ﷺ حين أرادوا أن يتخذوا مبدءاً للتاريخ الإسلامي، قر رأيهم على أن تكون الهجرة هي بداية ذلك التاريخ، وذلك لأن حادث الهجرة بما لابسه من ظروف، وبما اكتنفه من أحداث، وبما حف به من مخاطر، وبما تقدمه من أحوال، وبما ترتب عليه من نتائج، يعتبر أعظم حادث في التاريخ الإسلامي كله، إن الهجرة تحمل من المعاني، وتحتوي من الدروس ما فيه أعظم عبرة، وما فيه أنفع درس، لكل جيل

من الناس، ولكل عصر من عصور هذه الأمة، يجب أن يقبسوا من نور الهجرة، وأن ينتفعوا بما فيها من دروس وعظات، إن حادث الهجرة لم يكن حدثاً عادياً، ولا حدثاً عابراً، وإنما كان نقطة تحول في تاريخ الدعوة الإسلامية، كان حدثاً هائلاً في تاريخ البشرية كلها، وليس في تاريخ المسلمين وحدهم، كان فاصلاً بين عهدين: قد تمايزا كل التمايز واختلفا أشد الاختلاف، فالمسلمون قبل الهجرة كانوا بمكة مستضعفين، أذلة لا يستطيعون دفع الأذى عن أنفسهم، ولا يملكون إلا الصبر الجميل، وإلا الثبات على الحق الذي شرفهم الله ﷻ باتباعه، كانوا يعيشون في مكة تحت سياط العذاب والتهديد، وبين إغراء الوعد وبين الوعيد، كانت قريش تمثل خط الدفاع الأول عن باطن الدنيا كلها، فلما أن أعلن رسول الله ﷺ دعوته وبلغ رسالة ربه، وبين لهم أنه جاءهم بالنور وبالحق، قاموا في وجه الداعي صلوات الله وسلامه عليه، وتألبوا على الحق يريدون إزهاقه، ويودون طمس نوره، وضيقوا عليه الخناق، وتربصوا به الدوائر، ووثبت كل قبيلة على من أسلم منها تريد فتنته عن دينه، عاش المسلمون في هذا الجو المليء بالرعب، عاشوا متمسكين بحقهم، لا يفنيهم عنه وعد ولا وعيد، ولا يخيفهم إرهاب ولا تهديد، بل كانوا كلما أمعنت قريش في تعذيبها، وكلما اشتطت في جورها وظلمها، كلما ازدادوا صلابة واستمساكاً بالحق، ووقوفاً كالطود الشامخ، لم تلن منهم قناة، ولم يعرف أن أحداً منهم ارتد عن الإسلام تحت سياط العذاب، بل كانوا يستحلون العذاب في سبيل الله ﷻ، كان العذاب

يصب عليهم صباح مساء، وبالليل وبالنهار، كان ضرباً بالسياط، وكان كياً بالنار، وكان تجويعاً، وكان أحياناً ضرباً بالحراق، وكان هذا العذاب كله لا يؤثر في هذه النفوس، التي أخلصت في إيمانها والتي تمسكت بحقها، ولكن الله تبارك وتعالى لا بد أن يجعل من هذا المأزق فرجاً، ولا بد أن يجعل من هذا الضيق مخرجاً، لقد بلغ الضيق أشده، وبلغت القلوب الحناجر، وتحمل المسلمون مالا تحتمله الجبال في سبيل الله ﷻ، ولقد شاء الله أن تكون دعوة الإسلام دعوة إنسانية، دعوة تعتمد على الواقع المحسوس، ولا تعتمد على الخيال، لقد شاء الله أن يضع المسلمين في هذه التجربة القاسية، ليمتحن إيمانهم، وليمحص قلوبهم، وتركهم في بوتقة الامتحان عشرة سنوات، وهم يقاسون في كل ساعة من ألوان العذاب والنكال ما لا يعلمه إلا الله، ثم ينصرف الوفد إلى المدينة فيتحدثون بالإسلام، فيفشوا الإسلام وينتشر حتى لم يبق دار من دور المدينة إلا ويدخلها الإسلام، وتتكلم من هؤلاء وهؤلاء، الأمة الجديدة، هؤلاء الستة، ومعهم ستة أخرى، إلا رجلاً واحداً من أهل الموسم الأول، لم يشهد ذلك الموسم الثاني، فيجتمع رسول الله بهؤلاء الاثني عشر، وكانوا خليطاً من الأوس والخزرج، فيدعوهم إلى الإسلام فيسلموا، ثم يرسل معهم مصعب بن عمير ﵁، وعبد الله بن أم مكتوم، ليعلم من أسلم من أهل المدينة القرآن، وليصلي بهم، ففشا الإسلام، وانتشر، وظهرت كلمته، بإسلام سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، سيدا بني عبد الله بن الأشهل، وأصبحت المدينة تعج

بالإسلام، ويرتفع فيها صوت الإسلام، وأصبح الشرك فيها ذليلاً، ولم يبق إلا أن ينتقل هؤلاء المستضعفون بمكة إلى إخوانهم الأنصار بالمدينة، فيكون من هذا الاجتماع قوة، وتتكون من هؤلاء وهؤلاء الأمة الجديدة، المجتمع الجديد، الذي أراد الله أن يكون خير أمة أخرجت للناس، وأن يكون نموذجاً يحتذى في كل عصر، وفي كل زمان، في الموسم الثالث يجيء من الأنصار، من الأوس والخزرج ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، فيواعدهم الرسول ﷺ عند العقبة فيجتمع بهم ومعه عمه العباس، فيقولون له: يا رسول الله خذ لنفسك ولربك ما أحببت فيقول: «آخذ لربي، أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وآخذ لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أبنائكم ونسائكم»[1] فيقوم إليه البراء بن معرور ويضع يده في يده ويبايعه على ذلك، ويبايعه القوم جميعاً، ثم ينصرفون، وبهذه البيعة بيعة العقبة الكبرى، التي يقول فيها بعض من شهدها عبادة بن الصامت رضي الله عنه: (إنها تساوي عندي بدراً) إن هذه البيعة تساوي عندي وأعتز بها كما يعتز البدري بشهود بدر، فانفتح الباب لهجرة المسلمين، وقال لهم رسول الله ﷺ: «اخرجوا إلى يثرب فإن الله قد جعل لكم فيها إخواناً وأنصاراً» فكان أول من خرج أبو سلمة هو وزوجته، ومعهما طفلهما الصغير، فيخرج بني المخزوم إلى أم سلمة فيمنعونها من الهجرة، ويمضي أبو سلمة في هجرته، تاركاً زوجته وطفلها، ثم يحول أهل أبي سلمة بين الأم وطفلها، فتمكث عاماً تخرج إلى ظهر

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٥/ ٩٢).

مكة تبكي وتنتحب، فيرق لها أهلها ويعطونها طفلها، ثم يسمحون لها بالهجرة، ثم تتابع الناس في الهجرة أفواجاً، أفواجاً حتى إن بعض دور مكة قد خلت من كل أهلها، حتى أصبح المشركون لا يجدون في مكة هؤلاء، الذين كانوا يرونهم صباحاً مساء، خلت مكة وأقفرت من هؤلاء الأخيار، حين دعاهم الله ﷻ إلى نصرة دينه وإلى الهجرة في سبيله، خرجوا لا يلوون على شيء، وآثروا حب الله ورسوله، والجهاد في سبيله، على كل ما هناك، من أهل وعشيرة، ومن زوجة وولد، ومن مسكن ومال، واتبعوا قول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ خرج كل من كان قادراً على الهجرة، ولم يبق من المسلمين إلا كل مستضعف، من الرجال، والنساء، والولدان، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، ولم يبق بمكة إلا رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر، رفيقه في تلك الرحلة العظيمة، كان كلما استأذن في الهجرة قال له: «انتظر يا أبا بكر لعل الله أن يجعل لك صاحباً» وإلا علي بن أبي طالب، وإلا أهل أبو بكر، بنات أبي بكر وبنات رسول الله ﷺ، فيجيء حادث الهجرة، حادث الهجرة الذي كان باباً، فتحته السماء لنصرة هذا الدين، وعلو كلمته، وظهور نوره، ما هو إلا أن انتقل المسلمون إلى موطنهم الجديد، إلى القاعدة الجديدة، ونزل قوله تعالى من سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ

يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾«الحج٣٩ :٤٠ - ٤١»إن الهجرة هي الدرس الذي ينبغي أن ننتفع بكل ما فيه، إن الهجرة هي الدرس الذي نتعلم منه كيف نثبت على عقائدنا؟ كيف نخلص لديننا؟ كيف نستعلي على كل ما في الدنيا، من شهوات، على كل ما فيها من مصائب، ونائبات؟ كيف نجعل العقيدة هي أغلى ما نملك؟ هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم، ثبتوا على عقيدتهم رغم ما كانوا يلقون من أذى قريش وعنتها، لم يرتدوا عن دينهم، مع ما كان تصب عليهم من ألوان العذاب، والعسف، والإرهاب، الهجرة هي التي نتعلم كيف نعيش أقوياء بحقنا؟ أقوياء بإيماننا، كيف نتعلم منها؟ كيف نعيش؟ وكيف لا نبالي بكل ما يصيبنا من كوارث، ما دمنا متمسكين بحقنا، وما دمنا معتصمين بإيماننا؟ هكذا عاش أصحاب رسول الله ﷺ في مكة، هذه السنوات العشر، عاشوا برؤوس مرفوعة، كانت أسياط تلهب الظهور، وكانت قطع النار المحماة تكوي الجلود، ولكن القلوب مليئة، القلوب عامرة بالإيمان، عامرة بالإخلاص، عامرة بالتفاني، عامرة بكل تضحية في سبيل الله ﷻ، هي الثبات الذي لا يعرف

التردد، هي الإيمان الذي لا يعرف الشك ولا الارتياب، هي القوة التي لا تغلب أبداً، مهما صب عليها الباطل من ألوان العذاب، فلا يستطيع أبداً أن يفنيها عن عزمها، ولا أن يردها عن غايتها، ثم كانت الهجرة حدثاً إنسانياً، فهذا هو ما تتسم به دعوة الإسلام، في مراحلها، وفي تاريخها كله، أنها كانت دعوة لا تقنع ولا تعتمد على العون الإلهي، وإنما كانت تعتمد على الجهد البشري، ثم إذا تفاقم الأمر واشتد الحال، ولم يبق للجهد البشري موضع حتى لا يسمع أحد بذلك الخبر فيفشوا في مكة وتفسد الخطة، فيقولوا له: يا رسول الله إنما هم أهلك، فيقول له: «أذن لي في الهجرة» فيقول: (فالصحبة يا رسول الله) فيقول: «فالصحبة» فيبكي أبو بكر وتقول عائشة: (والله ما كنت أظن أو أعرف أن أحداً يبكي من الفرح، إلا حين وجدت أبا بكر يبكي) يبكي أبو بكر من الفرح، لأن الله أذن، ولأن النبي ﷺ اختاره ليكون رفيقه في تلك الهجرة، والنبي ﷺ قد أعد جهازه، وأبو بكر يقول له: (يا رسول الله قد أعددت راحلتين) راحلة لي وراحلة لك، فيقول له: «بالثمن يا أبا بكر»[1] ثم يذهب النبي ﷺ إلى بيته، ويأمر علياً أن يبيت على فراشه، ويقف القوم أربعين سيفاً على بابه، ينتظرون خروجه، ليضربوه ضربة رجل واحد ليتفرق دمه في القبائل، فلا يستطيع بنوا عبد مناف أن يأخذوا بثأره فيرضوا بالدية، وهنا تجيء العناية الإلهية، في هذا الموقف تتدخل العناية، فيخرج النبي ﷺ من الباب ويفتحه،

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٩٠٧).

ويلقي الله النعاس على هذه الرؤوس الكافرة، ويأخذ كفاً من حصباء فيجر على رؤوسهم التراب، ثم يتركهم ويمضي إلى بيت أبي بكر، ثم يرجع الحذر، وترجع الحيطة، ويرجع الجهد البشري، فيخرج هو وأبو بكر من خوخة في باب أبي بكر، لا يخرجون من الباب الأصلي، إنما يخرجون من خوخة في الباب، ثم يمضيان على حذر إلى الغار، ثم أبو بكر الحريص على حياة القائد يمشي مرة أمامه، ويمشي مرة خلفه، ويمشي مرة عن يمينه، ويمشي مرة عن شماله، فيقول له: «ما هذا يا أبا بكر» فيقول له: (يا رسول الله أخشى الرصد، فأمشى أمامك وأخشى الطلب، فأمشي خلفك، وأخشى الكمين، فأمشي عن يمينك وعن شمالك)، فيقول له: «يا أبا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني» فيقول: (نعم يا رسول الله، فإنني أنا رجل واحد، ولكن أنت إن هلكت، هلكت الأمة) ثم يمضيان إلى الغار وحين يريد رسول الله ﷺ أن يدخل الغار يقول له أبو بكر: (انتظر يا رسول الله حتى أستبرئ لك الغار) فيدخل أبو بكر ويسد كل جحر في الغار، ثم نسي أن يسد جحراً من الجحور، فقال للنبي ﷺ: (انتظر حتى أسد الجحر) ودخل ونظف الغار مما عسى أن يكون فيه من حشرات وهوام تؤذي الذي يجلس فيه أو يمكث فيه، ثم دخل النبي ﷺ و اختفى هو وصاحبه في الغار، ثم أعد الخطة على أن عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما يتسمع لما تقوله قريش في نواديها، ثم يذهب في المساء إلى الغار فيفضي إلى رسول الله وإلى أبيه بما سمع في يومه ذلك، وتخرج أسماء ذات النطاقين كل مساء بالزاد والماء، فتذهب

حافية إلى الغار، رغم مشقة الطريق، ووعورته، ثم عامر بن فهيرة يرعى غنم أبا بكر، حتى إذا جن عليه الليل وأووا إلى الغار فحلب لهما فشربا اللبن حتى إذا جاء السحر نزل ورعى مع الرعاة، هكذا كانت الخطة، ثم استأجر هادياً مشركاً، ليكون دليلهما في تلك الرحلة، إن الله ﷻ لم يشأ أن تتم الهجرة بأسلوب إلهي محض، وإنما أراد أن تتم بأسلوب إنساني، بجهد بشري، فيلتفت أبو بكر فيرى سراقة، فيقول: (يا رسول الله هذا سراقة بن مالك قد رهقنا) فيلتفت إليه النبي ﷺ ويقول له: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»[1] فتسيخ قوائم فرس سراقة، ويقع على وجهه، ويعلم أن ما أصابه إنما كان بدعوة رسول الله ﷺ ، وأنه ممنوع من السماء فيقول لهما: (عليكما الأمان، انتظراني حتى أجيء إليكما، فيذهب سراقة ويقول لرسول الله ﷺ: اكتب لي كتاباً) ثم يأمر أبا بكر أن يكتب له كتاباً، ثم يرجع سراقة، ويقول لهما: (هل لكما في زاد، هل لكما في شراب) فيقول له النبي ﷺ: «لا حاجة بنا إلى زاد، ولا إلى شراب، ولكن خذل عنا»، فيمضي سراقة كلما رأى رجلاً يمشي ليتعقب الركب، يقول له: (ارجع لقد التمست الركب فلم أجد أحداً) وهكذا كان طالباً لهما في أول النهار وصار حرساً في آخر النهار، هكذا كانت عناية الله تبارك وتعالى بنبيه ﷺ، تتدخل كلما تتطلب الأمر تدخل العناية، ولكن الهجرة كانت حدثاً إنسانياً رفيعاً، ترى لو أن هذه الرحلة العظيمة، تمت ببراق نزل من السماء كما تمت رحلة الإسراء، ولو أن

---

(١) متفق عليه من حديث أنس، البخاري (٣٦٥٣)، مسلم (٢٣٨١).

جبريل نزل هو ليدل هذا الركب على الطريق، بدلاً من عبد الله بن أريقط الليثي المشركي، هل كان يكون لتلك الرحلة هذا الجمال الإنساني الرائع، الذي لها الآن؟ لا والله، والله لا يمكن أن يكون لها هذا الجمال الإنساني، هذا الجمال في أنها تمت بجهد بشري، بإخلاص وتفاني لله ﷻ، هكذا يريد الله منا، يريد منا أن يكون ديننا دين الواقع، ديناً واقعياً تظهر فيه الملكات، وتظهر فيه القوى، وتظهر فيه المواهب، وتظهر فيه كل قوة تؤدي عملها بنشاط في سبيل الله ﷻ، ليس دين الإلهاء بالمعجزات، ولا بالمدهشات، وإنما هو دين العمل، ودين الجهاد، دين الصلاح، الدين الذي جاء دعوة إنسانية عامة شاملة، تتسم بالواقع بواقع الناس، وبحياة الناس، ويختلط بالناس في كل شئونهم، يرسم لهم كل ما يحتاجون إليه من تشريع، ويصرف القوى، كل قوة يرسم لها الطريق الذي تؤدي فيه وظيفتها، وتؤدي فيه عملها بإخلاص، هكذا تمت الهجرة وهكذا ذهب رسول الله ﷺ، خرج من مكة ذاهباً إلى المدينة، وأهلها في شوق ينتظرون، وما هو إلا أن رأوه حتى أحاطوا به، إحاطة الهالة بالقمر، ويمشون حوله، ويمشي الركب ذاهباً إلى المدينة، وكلما مر بدار من دور الأنصار يقولون: يا رسول الله هلم، هلم إلينا، هلم عندنا، إلى المنعة والعدد، فيقول: «خلوها فإنها مأمورة»[1] هكذا تمت الهجرة المباركة، التي كانت نصراً من الله تبارك وتعالى،

---

[1] أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ٥٠٨)، قال الشيخ الألباني: منكر، انظر السلسلة الضعيفة والموضوعة (١٤/ ١٩).

وكانت فرجاً أذن الله أن يكشف به تلك الغمة التي مضت، التي أمضى المسلمون في ظلها عشر سنوات كاملة، حتى ظهر الفرج، وظهر أمر الله وهم كارهون.

حادث الهجرة، حادث يحلو فيه الحديث، والحديث فيه طويل، وهو حديث عذب شيق، فإن تلك الهجرة بما اكتنفها من ظروف، وما لابسها من أحداث، وما جرى فيها من صور رائعة، ومشاهد عجيبة، انظر إلى عمر رضي الله عنه حين أراد أن يهاجر لم يشأ أن يخرج مستخفياً كما كان يخرج غيره، بل ركب فرسه، وتنكب قوسه، وذهب وطاف بالبيت، والتفت إلى الملأ من قريش وهم جلوس بفناء الكعبة، وقال لهم: (يا معشر قريش إني مهاجر، فمن أراد منكم أن ييتم ولده، أو ترمل زوجه، أو تثقله أمه، فليتبعني) فلم يستطع أن يتبعه أحد، وهكذا كانت هجرة الفاروق، كما كان إسلام الفاروق عزاً للإسلام، انظر إلى صهيب رضي الله عنه أراد أن يهاجر، فخرج فذهب ورائه جماعة من فتيان قريش، وقالوا: كيف نسمح لهذا الرجل أن يخرج من بيننا بعد ما مكث في بلدنا هذه المدة الطويلة يكسب الأموال منا، والله لا نسمح له بالخروج أبداً، وذهبوا ليعترضوا طريقه، فالتفت إليهم وهم على بعد منه، وقال لهم: تعلمون أني رامٍ، والله لن تصلوا إلي إلا بعد أن ينفد كل سهم في كنانتي، ولكن أدلكم على ما هو خير من ذلك، قالوا: وما هو: قال: (إن مالي بمكان كذا، فخذوا المال واتركوني) ففرحوا بالمال ورجعوا، وذهبوا إلى حيث قال صهيب، فوجدوا المال كما قال، وذهب صهيب

وقد باع ماله في سبيل الله، ولما رآه النبي ﷺ قال: «ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع أبا يحيى»[١]، ويقال: إن فيه نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ «البقرة:٢٠٧» هكذا يجب أن نتخذ من تلك الأحداث العظيمة من تلك الأمجاد، أمجاد الآباء، والأجداد، يجب أن نتخذ منها دروساً لنا، يجب أن نتخذ منها قبساً يضيء لنا هذه الحياة، يجب أن نعيدها جزعاً، يجب نحن أبناء هؤلاء الذين ضرب التاريخ بهم الأمثال، نحن أبناء هؤلاء الذين لا يزالوا، ولا تزال أيامهم جبيناً، لا تزال أيامهم تتألق في جبين الدهر، نحن أبناؤهم فلماذا قعدنا؟ لماذا تخلفنا عنهم؟ لماذا لا نستشعر من قوة الإيمان وسمو العقيدة ما استشعروا؟ لماذا؟ أشك منا في الله؟ ارتياب منا في وعد الله؟ يجب أن نجدد إيماننا، يجب أن نفتح صفحة جديدة في عامنا هذا، صفحة كلها جهاد، وكلها عمل، وكلها إخلاص في سبيل الحق، وفي سبيل الدعوة، دعوة الحق التي آمنا بها، وأعطيناها كل ما نملك، عسى أن يجعل الله عامنا هذا خيراً من سابقه، وعسى أن يرفع هذه الغمة عنا، وأن يكشف عنا البلوى، وأن يظهر كلمة الإسلام، وعزة الإسلام، اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، اللهم لا تدع لنا ذنباً إلا غفرته، ولا عيباً إلا سترته، ولا هماً إلا فرجته، اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (١٩/ ٤٦٥) قال المحقق: والحديث إسناده صحيح على شرط مسلم.

اجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا، واجعلنا للمتقين إماماً، اللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب، اللهم ارحمنا ولا تعذبنا، اللهم أكرمنا ولا تهنا، اللهم طهر قلوبنا من الغل، والحسد، والشك، والنفاق، والشقاق، يا أرحم الراحمين، اللهم استرنا بسترك، اللهم قنا شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، اللهم ألهمنا رشدنا، اللهم بصرنا بعيوبنا، اللهم ارزقنا حسن الفهم لكتابك، وحسن الاتباع لنبيك ﷺ، اللهم وفق رئيس جمهوريتنا وولاة الأمر منا إلى ما فيه الخير والعباد، وألهمهم السداد والرشاد، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رءوف رحيم.

تتمة الحديث عن الهجرة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ليس معه إله غيره هو الحق لا إله إلا هو، وهو الرب وحده، يحكم في عباده بما يشاء، ويقضي عليهم بما يريد، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، أحمده سبحانه وتعالى على أن بعث فينا نبيه محمداً بالهدى ودين الحق، فعلمنا ما لم نكن نعلم، وهدانا سبلنا، وأرشدنا إلى معرفة ربنا، وعرفنا صراط الله المستقيم، الذي لا يضل سالكه ولا يشقى، صلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله، وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن حديث الهجرة لا يزال موصولاً، فإن هذا الحادث العظيم متشعب النواحي، لا ينبغي أن يكون حكاية تقص، ولا أحداثاً تسرد، بل يجب أن يدرس دراسة العقل، وأن يمعن فيه النظر والفكر، وأن نلتمس منه نحن المسلمين مواطن العبرة، وأن نعي درسه حق وعيه، فهو حدث الأحداث في الإسلام، وهو الحادث الذي كان فيصلاً بين تاريخين لدعوة الإسلام: بين فترة قضتها دعوة الإسلام بمكة بين حجارتها وجبالها، وبين قلوب بشرية لكنها كحجارة مكة أو أشد قسوة، فقضت الدعوة في هذه الفترة ثلاثة عشر عاماً،

تميزت هذه الفترة بأنها كانت جهاداً، ولكنه من النوع السلبي، الذي يقوم أول ما يقوم على الثبات والصبر، على التمسك بالحق، على الثبات الذي لا يعرف التردد، والعزيمة التي لا يعتريها الوهن، والإيمان العميق الذي لا يمكن أن يرجع إلى الكفر أبداً، كانت امتحاناً من الله ﷻ، أدخل هذه الفئة المؤمنة في بوتقة ليصهرها، وليظهر معدنها، وليفتنها فيه كما يفتن الذهب على النار، فإذا بها تخرج من تلك المحنة أصلب ما تكون عوداً، وأقوى ما تكون عزيمة، وأشد ما تكون صلابة في الحق، واستمساكاً به، كانت هذه الفترة فترة امتحان وابتلاء، وليس هناك إيمان بلا امتحان، وابتلاء، ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾«العنكبوت٢:٣» ثم كانت الفترة الثانية بعد الهجرة، فترة البناء والتجديد، فترة الجهاد الإيجابي، الذي ينازل الشرك في عدة مواطن حتى يجهز عليه، وحتى يستأصل شأفته، فلا بد إذاً أن نأخذ العبرة من هذا الحادث، ومن هؤلاء المهاجرين الذين ضربوا أروع الأمثال في التضحية والفداء، هؤلاء لماذا هاجروا من مكة الحبيبة؟ موطنهم الأول الذي علقت بهم نفوسهم، ولصقت به أرواحهم هل هاجروا يبتغون مغنما؟ هل هاجروا يديرون تجارة؟ هل هاجروا يطلبون ملكاً أو مالاً؟ هل هاجروا جرياً وراء حظ من حظوظ هذه العاجلة؟ كلا، ما وقر في صدورهم شيء من هذا، وإنما هاجروا يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله، ضربوا أروع

الأمثال في التضحية والفداء، ونبذ هذه الحظوظ العاجلة، إذا اقتضى ذلك الإيمان، إذا اقضته مصلحة الدعوة، فلا أهل، ولا عشيرة، ولا مساكن، ولا ديار، ولا أموال، ولا تجارة، يمكن أن تصد المؤمن عما يوجبه عليه الإيمان، وعما توجبه مصلحة الدعوة عليه، لما فرضت الهجرة، كأن بعضهم قد استثقلها وكرهها لما فيها من تفويت حظوظ النفس، ولما فيها من غربة، ولما فيها من مشقة، فقعد عن الهجرة فنزلت الآيات تخير هؤلاء، بين أن يختاروا هذه الدنيا بما فيها، أو يختاروا الله ورسوله، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ «التوبة:٢٤» فخرج من قعد، لا ينوي على أحد، ولا ينظر إلى امرأته تعرض له، ولا إلى ولده يبكي بين يديه، ولا ينظر إلى داره التي ستخلو منه، ولا ينظر إلى تجارته التي ستصادر بعد خروجه، ولكن قوماً يقدرون على الهجرة، ومع ذلك كرهوا الهجرة، وركنوا إلى القعود بمكة، بعد أن فرضت الهجرة فسامتهم قريش خطة خسف، وأنزلت بهم نفس العذاب، حتى إنها أخذتهم عنوة، لكي يشهدوا معها بدراً، وقتل بعضهم وهي في صفوف المشركين، فتنزل الآيات الكريمة توبخ هؤلاء القاعدين المتكاسلين، الذين رضوا بالذل والهوان، في أرض الشرك والطغيان، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا

كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا وَمَنْ يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِى الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾«النساء١٠٠:٩٩» نتعلم من هذه الهجرة كيف يكون الإخلاص لله ﷻ في العمل كله، فهذا صهيب يخرج للهجرة، فيتبعه بعض أهل مكة يريدون صده عن هجرته فيفتدي نفسه منهم بماله كله، فيرجع القوم عنه ويمضي هو في هجرته، وفيه وفي أمثاله يقول الله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾«البقرة:٢٠٧» نتعلم من الهجرة كيف يكون الفداء؟ كيف يكون الحرص على حياة الداعي الأعظم، والقائد الأكبر؟ كيف يفتدى بالمهج والأرواح من أصحابه؟ هذا أبو بكر ﷺ يحرص أشد الحرص على أن يكون في صحبة رسول الله ﷺ في تلك الهجرة، حتى إنه لما ظفر ببغيته، وأخبره الرسول ﷺ بأنه سيكون صاحبه في رحلته، بكى من الفرح وهو يعلم أن النبي ﷺ مطلوب من قريش أشد الطلب، وأنها تبحث عنه في كل مكان، وتقعد له كل مرصد، ومع ذلك لم يتهيب أبو بكر مخاطر الرحلة، لأنه كان يود إن نزل سوء، أن ينزل به قبل أن ينزل برسول الله ﷺ، هذا عبد الله بن أبي بكر يتلقط الأخبار من قريش، يجلس في كل مجلس من مجالسها، حتى إذا جن الليل

قطع تلك المسافة الطويلة من مكة إلى الغار لكي يخبر رسول الله ﷺ وأباه بما قالت قريش في مجالسها، ثم يرجع فترجع غنم أبي بكر فتعفي آثار أقدامه.

هذا علي بن أبي طالب يأمره رسول الله ﷺ أن يبيت في فراشه ليلة الهجرة، وأن يتسجى ببرده الأخضر، وهو يعلم أن أربعين سيفاً تنتظر على الباب، ولقد هجموا عليه وهو نائم في فراشه، وكانوا يقدرون أن يتعجلوه بالضربات قبل أن يكشفوا عن وجهه، ولكنهم لما كشفوا وجدوه علياً، ولم يجدوه محمداً، هكذا كان الفداء، وكانت التضحية، وكان الإخلاص، حتى إن رجلاً هاجر، ولكنه اتهم بأنه إنما هاجر ليتزوج امرأة من المهاجرات، وكان ذلك عار على الرجل أي عار، فنهاه رسول الله ﷺ، ووضع لنا القاعدة والمبدأ التي يجب أن نسير عليها في أعمالنا كلها بهذا الحديث العظيم، الذي يعتبره المحدثون ربع الإسلام، ويبتدئ به كثير من أهل التأليف في الحديث كتبهم، وهو قوله ﷺ فيما يرويه عنه عمر بن الخطاب ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1] لا نستطيع أن نحصي أبداً ما تنم عنه الهجرة.

ولكن ماذا كانت نتيجة الهجرة؟ وهل كانت الهجرة ضرورة تقتضيها الدعوة؟ نعم كانت الهجرة حتما، وكانت أمراً لا بد منه، فإن دعوة الله كانت

---

[1] متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، البخاري (١)، مسلم (١٩٠٧).

حديثة بمكة، وهي الدعوة التي لا تقبل الحبس، وهي الدعوة التي نزلت لهداية البشرية كافة، وهي الدعوة التي هي من طبيعتها العمل والحركة، وهي الدعوة التي يجب أن تبلغ كل قلب، وأن تصل إلى كل عقل، كانت الهجرة حادثاً ميموناً مباركاً، فلولا الهجرة ما كانت للإسلام دعوة، ولا قامت للإسلام دولة، وكانت هي المنطلق، الذي انطلق منه المسلمون، إلى حيث يؤسسون، وإلى حيث يبنون، وإلى حيث يقيمون مجتمعاً لم تعرف البشرية مثله في تاريخها الطويل، إن هؤلاء الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، وانضموا إلى إخوانهم الأنصار، ثم لحق بهم قائدهم الأكبر صلوات الله وسلامه، قد أسسوا للدنيا أعظم حضارة، قد أسسوا للبشرية أعظم مدنية عرفتها البشرية، لم يكد يستقر هؤلاء بدار هجرتهم حتى أخذت الآيات، آيات التشريع والأحكام ينزل بها الوحي، وتتنزل بها الآيات، أحكام في البيوع، أحكام في الحدود، أحكام في النفقات، أحكام في الحرب والسلم، أحكام في الجنايات، أحكام في كل ناحية من نواحي التشريع، واستكملت هذه الأمة فرائض عباداتها، ففرض عليها الصيام في شعبان من السنة الثانية للهجرة، وفرضت عليها الزكاة في السنة الثانية أيضاً من الهجرة، وفرض عليها الحج، وفرض عليها الجهاد أول ما فرض بعد الهجرة، ونزلت هذه الآية الكريمة من سورة الحج، تأذن لهؤلاء المستضعفين، لهؤلاء المظلومين، الذين أخرجوا من ديارهم بغياً بغير حق، أن يأخذوا بثأرهم ممن ظلمهم وأخرجهم، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ

لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾«الحج٤١:٤٠» كانت الهجرة حادثاً ميموناً مباركاً على الإسلام وأهله، استطاعت دعوة الإسلام بعد الهجرة أن تتجول، وأن تتحرك، وأن تبعث بعوثها، وسراياها، تستطلع، وتتجسس، وتتعرض لقوافل أهل مكة، ذاهبة إلى الشام، وآيبة منها، فكانت سرايا قبل بدر، كانت سرية حمزة، وكانت سرية سعد، وكانت سرية عبد الله بن جحش، كلها سرايا كانت تتجول في أنحاء الجزيرة، تبحث عن عدو من هؤلاء الأعداء لكي تأخذ بثأرها منه، كانت غزوة بدر الكبرى ثمرة من ثمار هذه الهجرة، فلولا الهجرة ما كانت بدر، ولا كان ذلك النصر الذي ظفر به المسلمون في بدر، حين قتلوا من المشركين سبعين، وحين أسروا منهم سبعين، بل لو لا الهجرة، ما كانت هذه الغزوة، غزوة الفتح، التي دانت فيها مكة، وألقت فيها السلم، واستسلمت لدعوة الإسلام، ودخل جلها فيها إلا نفراً قليلاً، لم يدخلوا في الإسلام، ولكنهم خضعوا للإسلام، كصفوان بن أمية، ولكنه أسلم بعد حنين، هكذا كانت الهجرة هي بداية النصر، وكانت الهجرة هي بداية الانطلاق، وكانت الهجرة هي البداية لبناء هذه الأمة، أمة الإسلام العظيمة التي قادت التاريخ كله،

والتي قادت الدنيا كلها، وخلصتها من الذل والاستعباد الذي كان يصب فوق رؤوسها، من عمال كسرى، ومن عمال قيصر، ودانت هذه الدنيا كلها للإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، كل ذلك كان بفضل الله سبحانه وتعالى، بفضل هذه الهجرة المباركة، فلا غرو إذاً أن نطيل الحديث في الهجرة، ولا عجب إذاً أن ندعو دائماً إلى استخلاص العبر من الهجرة، فما نحن بالذين نمر على هذا الأحداث صماً وعمياناً، فلابد أن نعيها وأن نتفكر ما فيها كما أمرنا ربنا تبارك وتعالى، أن نكون من أهل الذكر، لا من أهل الغفلة، ولا من أهل التفريط، ولا من أهل التضييع، هكذا كانت الهجرة أيها الإخوة، هذا الحادث العظيم، الذي وقع في شهر محرم شهر الله، الذي اختاره أمير المؤمنين عمر ﷺ ليكون بداية للتاريخ الإسلامي، فلنذكر الهجرة دائماً ولا ننساها، فلنعي ما في هذه الهجرة من درس ومن عبرة.

بطلت الهجرة، أو بطل حكم الهجرة بفتح مكة، بعدما صارت مكة دار إسلام، ولكن الذي بطل من الهجرة، هو تلك الهجرة من مكة إلى المدينة، أما الهجرة من أرض يغلب فيها المسلم على دينه، ولا يستطيع أن يقوم بشعائره كما ينبغي، وهو يقدر أن يتحول من هذه الأرض إلى أرض أخرى، يطمئن بها ويجد الحرية في ممارسة شعائر دينه، هذه هجرة لا تسقط أبداً، ولا تنقطع أبداً، فالهجرة ماضية إلى قيام الساعة، كما قال ربنا ﷻ في الآية التي تلوناها عليكم، حين وبخت الملائكة هؤلاء القاعدين عن الهجرة، ﴿قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا

كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ «النساء:٩٧» فأرض الله واسعة، لمن يسام من المسلمين الخسف، في أرض من أرض الكفر، يجب عليه أن يتحول منها إلى دار يعز فيها الإسلام، ويغلب فيها الإيمان، ﴿يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ﴾ «العنكبوت:٥٦» وإن خشيتم الموت من الهجرة فـ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ «العنكبوت:٥٧»، نعم إن الهجرة باقية، وإن الجهاد ماضٍ إلى قيام الساعة، وهناك هجرتان لا تنقطعان أبداً عنك أيها الأخ، بل هما لازمان لك أشد اللزوم، ولا غنى لك عنهما أبداً: هجرتك إلى الله ﷻ بالتوحيد، هجرتك إلى الله ﷻ بالإخلاص، هجرتك إلى الله ﷻ بترك كل ما يبغضه سبحانه من الفواحش والمنكرات، إلى ما يحبه ويرضاه من الطاعات والقربات، كما قال صلوات الله وسلامه عليه: «والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[1] وعليك هجرة أخرى إلى رسول الله ﷺ، لا إلى قبره، ولا إلى مسجده، وإن كانت الهجرة إلى المسجد وشد الرحل إليه أمر مستحب نحبه جميعاً ونتمناه، ولكن الهجرة إلى رسول الله التي أعنيها وأقصدها، هي هجرتك إليه بالمتابعة، هي هجرتك إليه بالموافقة، هي هجرتك إليه بالانقياد، هي هجرتك إليه باتباع ما سن لك، وباتباع ما شرع لك، هي الهجرة إليه بأن ترضى بحكمه، وأن تذعن لأمره، وأن تعمل بما أمر، وأن تجتنب ما نهى، وأن تصدق بما أخبر،

---

[1] رواه البخاري (١٠).

اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، اللهم لا تدع لنا ذنباً إلا غفرته، ولا عيباً إلا سترته، ولا هماً إلا فرجته، اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا، واجعلنا للمتقين إماماً يا أرحم الراحمين، ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين، اللهم عافنا واعف عنا، اللهم أعطنا ولا تحرمنا، اللهم زدنا ولا تنقصنا، اللهم أكرمنا ولا تهنا، اللهم بارك لنا في وحدتنا، اللهم بارك لنا في جماعتنا، اللهم هيئ لنا من أمرنا رشداً يا أرحم الراحمين، اللهم وفق رئيس جمهوريتنا وولاة الأمر منا إلى ما فيه خير البلاد والعباد، وألهمهم السداد والرشاد يا أرحم الراحمين، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رءوف رحيم.

دفاع عن السنة[1]

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد عبد الله ورسوله، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، أما بعد:

إن أعداء الإسلام من اليهود، والمستشرقين، وجماعات المبشرين، لما أعياهم القرآن العظيم أن يجدوا فيه مغمزاً، وفشلت محاولاتهم المتكررة في النيل منه، بل

---

(١) قال العلامة الهراس -رحمه الله- في بداية هذه المادة: رأيت أن تكون محاضرة الليلة محاضرة مكتوبة، رغم كراهيتي للمحاضرات المكتوبة، وإنما أردت بذلك أولاً: أن يكون دفاعنا عن السنة المطهرة ليس كلاماً في الهواء، ولا هو خطبة منمقة، وإنما هو كلام مسجل مكتوب، وأردت بذلك أيضاً أن أقطع الفرصة على الذين يسمعون كلامنا ثم يذهبون فيغيرون ويبدلون ويتزيدون، فالمحاضرة مكتوبة فلا مجال لأحد في أن يتزيد علينا ما لم نقل، كما أننا أردنا بذلك تسجيل دفاعنا عن السنة النبوية، وليس هذا هو كل دفاعنا، فالجعبة لا يزال فيها الكثير والكثير جداً من الدفاع، ولكني أصارحكم القول بأن المدة التي اطلعت فيها على كلام هؤلاء الجهلة من خصوم السنة وأعدائها، كانت مدة قليلة، لم أستطع أن أستوعب فيها جميع الشبهات التي أثاروها حول السنة، ولكن مالا يدرك كله لا يترك كله، وسيكون لنا بعد هذه اللقاء إن شاء الله لقاءات أخرى أيضاً للدفاع على السنة، ما دامت السنة الآن هي الهدف لحملات الأعداء والمشككين، إذاً فلنكن جميعاً جنوداً للسنة، في وقت تهاض فيه السنة، وفي وقت تكون السنة غرضاً، وهدفاً لسهام الكائدين والعابثين.

كانت هذه المحاولات نفسها تزيد آية القرآن تألقاً، وترتد عليهم هم بالخزي والعار، لما رأوا ذلك عمدوا إلى السنة المطهرة، يثيرون حولها الشكوك والشبهات، ويرومون أن ينالوا منها، ما لم يستطيعوا نيلهم من القرآن، ظناً منهم، أنها هدف سهل، ومركب وطيء، ولم تكن محاولاتهم في هذا الصدد، يعني في حرب السنة، وليدة اليوم، أو الأمس القريب، بل هي قديمة، قدم السنة نفسها، فالخوارج، الذين خرجوا على علي، بعد مسألة التحكيم، والذين وردت الأحاديث الكثيرة في ذمهم، ومدح من قاتلهم، وأخبر عنهم رسول الله ﷺ بأنهم: «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية وأنهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم»[1]، كان هؤلاء الخوارج من أشد أعداء الحديث، حتى إنهم لما قبضوا على "عبد الله بن خباب الأرت"، طلبوا منه أن يروي لهم حديثاً سمعه من أبيه، يحدث به عن رسول الله ﷺ، فقال لهم عبد الله: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، فكن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل»[2] فقالوا له: أنت سمعت هذا من أبيك، يحدث به عن رسول الله ﷺ؟ فقال نعم: فقتلوه، على شاطئ دجله، حتى جرى دمه في النهر

---

(1) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، البخاري (٣٣٤٤)، مسلم (١٠٦٤).

(2) رواه مسلم (٢٨٨٧).

كشراك النعل، وبقروا بطن أم ولد له وكانت حاملاً، ولما بلغ ذلك علياً ﷺ بعث إليهم أن أخرجوا إلينا قتلة عبد الله، فقالوا: كلنا قتلة، فقال علي: (الآن طاب القتال) والتقى بهم في "معركة النهروان" حيث قتل منهم عدداً كبيراً، وفر الباقون منهزمين، وكان من جملة القتلى، "ذو الثدية" وهو زعيم الخوارج، الذي أخبر رسول الله ﷺ عن قتله، لما قال صلوات الله وسلامه عليه عن الخوارج، أنهم كذا، وكذا قال: «فيهم رجل مثدون إحدى اليدين كأن يده ثدي امرأة، أو كأنها بضعة لحم تدردر»[1] فلما انتهت المعركة، أمر علي ﷺ أصحابه أن يطلبوا هذا الرجل في القتلى، فذهبوا فلم يجدوه، فقال علي: (والله ما كذبت، ولا كذبت) يعني أنا ما كذبتكم، ولا كذب عليَّ رسول الله ﷺ، حين أخبرني أن هذا الرجل سيكون من جملة القتلى، ففتشوا فوجدوه مقتولاً في خربة، في إحدى الخربات فجاء علي فوقف على رأسه وكبر، فتأمل هذا الموقف العجيب من هؤلاء الخوارج، إنهم هم الذين طلبوا من عبد الله بن خباب أن يروي لهم حديثاً سمعه من أبيه يحدث به عن رسول الله ﷺ، فلما فعل قتلوه، ولا يمكن تفسير هذا الموقف من الخوارج إلا بواحدة من اثنتين: إما أن يكون هؤلاء الخوارج صدقوا بالحديث وخالفوه، فيكون مشاقين لله ورسوله، فدخلوا بذلك في وعيد قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

---

(١) أصل هذه الرواية في الصحيحين، وهذا اللفظ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٥٦٢).

الْعِقَابِ﴾ «الأنفال:١٣» ، وإما أن يكونوا كذبوا بالحديث، ولكن من المكذب حينئذٍ، يكذبوا من؟ من المكذب هل هو عبد الله التابعي الجليل؟ أم أبوه الصحابي خباب أحد السابقين إلى الإسلام، وممن أوذوا في الله ﷻ؟ أم رسول الله ﷺ؟ فيكون قد كفروا بذلك التكذيب؟ يعني ليس هناك موضع للتكذيب، لأن الراوي عبد الله، وهو تابعي معروف بالصدق والأمانة، ثم سمع هو الحديث من أبيه، خباب أحد السابقين للإسلام، وخباب يرويه عن رسول الله ﷺ، فمن إذاً الذي كذبه الخوارج في هذه الحديث؟ هو عبد الله، ولا أبوه، ولا رسول الله؟ إن كذبوا عبد الله وأبوه فلا موضع للتكذيب، لأن هؤلاء أهل أمانة، وأهل صدق، وعدالة، وإن كذبوا رسول الله كفروا بذلك التكذيب، وكان موقف هؤلاء الخوارج من السنة سبباً في ضلالهم وحيرتهم، لأنهم أخذوا في دين الله بالرأي، واتبعوا أهوائهم، ورفضوا كثيراً من الأحاديث الصحيحة، بل المتواترة، كأحاديث الرجم للزاني المحصن، وأحاديث المسح على الخفين وغيرها، وممن شايع الخوارج في الاستخفاف بالسنة، والإزراء بها جماعة المعتزلة، لا سيما ما وجدوه منها مخالفاً لمبادئهم الاعتزالية، كأحاديث الصفات، وأحوال القيامة، والقضاء والقدر، ونحوها، أنتم تعرفون المعتزلة ينفون الصفات، لا سيما الصفات الخبرية، التي ورد بها الخبر في الكتاب والسنة، إذا كان هم ينفوا الصفات التي يقتضيها العقل، التي يوجبها العقل كالقدرة، كالعلم، كالحياة، ينفون هذه الصفات التي يسمونها عقلية، يعني أن العقل

يوجبها لله، فكيف إذاً يثبتون القدم، أو يثبتون اليد، أو العين، أو الوجه، أو الفرح، أو الضحك؟ وكل هذه الصفات قد وردت بها الأحاديث الصحيحة، فالمعتزلة وكثير من المتكلمين، لاسيما الأشعرية ينفون هذه الصفات الخبرية، كذا أحوال القيامة تنفيها المعتزلة، فلا يؤمنون بالصراط على متن جهنم، كأنه شوك السعدان، ولا يؤمنون بحوض مورود، ولا بشفاعة، ولا بميزان توزن به الأعمال، ولا شيء من هذا أبداً، وكذلك يكذبون بالقضاء والقدر، ليس عندهم شيء اسمه القضاء والقدر، يعني أن الله كتب في اللوح مقادير العباد، ليس عندهم شيء من هذا، ثم لم يزل أعداء السنة في كل زمان يدبرون المؤامرات، ويرسمون الخطط للقضاء عليها، ولكن الله الذي حفظ كتابه من التغيير والتبديل، قد حفظ سنة نبيه ﷺ، من كيد هؤلاء اللئام ومؤامراتهم الدنيئة، لأنه سبحانه وتعالى يعلم أن السنة من الكتاب بمنزلة البيان والتفسير، وهي التي تخصص عموم الكتاب، وتقيد مطلقه، وتوضح مبهمه، وتفصل مجمله، والله ﷻ قد أمر رسوله بالبيان، كما أمره بالبلاغ، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ «النحل: ٤٤» ، والآن قبل أن ندخل في مناقشة هؤلاء الخصوم، فيما يثيرونه حول السنة المطهرة نريد أن نعرف ما هي السنة؟ وكيف تم تدوينها؟ وكيف كانت عناية العلماء بها تحملاً وأداءً؟ وما مكانتها في التشريع؟ وما منزلة أهل الحديث بين طوائف العلماء؟

فنقول وبالله التوفيق: الحديث أو السنة: هو كل ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو وصف خَلقي، أو خُلقي، هكذا عرف العلماء السنة أو الحديث، كل ما أضيف إلى رسول الله ﷺ من قول قاله، أو من فعل فعله، أو شيء أقره، يعني سكت عنه، أو وصف له خلقي، يعني راجع إلى الخلقة، إلى الناحية الجسمية يعني، أو وصف خلقي راجع إلى الخلق.

فمثال القول قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»[1].

ومثال الفعل قول كعب بن مالك رضي الله عنه: «كان النبي ﷺ إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه»[2] فهذا حديث مع أنه من كلام كعب، هذا من كلام كعب بن مالك، لكنه حديث، لأن هذا فعل منسوب إلى رسول الله، يعني كعب يروي لنا فعلاً من أفعال الرسول ﷺ، فهذا حديث لأنه تضمن فعلاً منسوباً إلى رسول الله ﷺ.

ومثال التقرير قول جابر بن سمرة رضي الله عنه: (جالست النبي ﷺ أكثر من مائة مرة وكان أصحابه يتناشدون الشعر ويذكرون أشياء من أمور الجاهلية وهو ساكت، وربما بسم معهم) هذا تقرير، لأن هذه الأشياء لو كانت منهياً عنها لما سكت صلوات الله وسلامه عليه، بل كان لا بد أن ينبههم إلى أنه لا يجوز لهم

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) متفق عليه: البخاري (٣٠٨٨)، مسلم (٧١٦).

أن ينشدوا الأشعار، ولا أن يذكروا أشياء من أمر الجاهلية، فسكوته على ذلك تقرير، وبيان لجواز ذلك، يعني جواز تناشد الأشعار، وجواز ذكر أشياء من عمل الجاهلية.

ومثل وصف الخلق يعين الراجع إلى الخلقة قول علي بن أبي طالب ﷺ في وصف النبي ﷺ: (لم يكن بالطويل البائن) يعني الطويل الخالص، (ولا بالقصير المتردد بل كان ربعة من الناس، شثن الكعبين) غليظ يعني (والقدمين، ضخم الرأس والكراديس، طويل المسربة)[١] إلى آخره.

ومثال الوصف الخلقي قول عائشة رضي الله عنها: (لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا سخاباً بالأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح) هذا بيان لخلقه صلوات الله وسلامه عليه، وأما تدون الحديث، فليس كما يزعم الخصوم والأعداء، من أن الحديث تأخر تدوينه بعد عهد النبوة بزمان طويل، بل قد بدأ التدوين منذ عهد النبوة، حيث كان الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يكتب كل ما يسمعه من رسول الله ﷺ، وكان صلوات الله وسلامه عليه لا ينهاه عن ذلك، حتى إنه لما قالت له قريش: إن رسول الله ﷺ بشر، وإنه يتكلم في حال الرضا والغضب، وأنت تكتب عنه كل ما تسمع، يعني خشوا أن يكتب عبد الله شيئاً لم يرد رسول الله ﷺ أن يكون حديثاً، لأنه تكلم به في حال غضب أو كذا، فشكا ذلك عبد الله إلى

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣٥٤٨)، مسلم (٢٣٤٧).

رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وقال له: إن قريش تقول كذا، وكذا، فقال له: «اكتب فو الله ما يقول هذا إلا حقاً»[1]، يعني ما يخرج من لسانه إلا حق، في حال الغضب، أو في حال الرضا، ولهذا كان أبو هريرة ﷺ يقول: (لم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً مني، إلا عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب، ولا أكتب) [2] أبو هريرة طبعاً حفظ كثيراً من أحاديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وكان أكثر الصحابة رواية للحديث، ولهذا كان موضع طعن هؤلاء الطاعنين، اختصوه أيضاً بالطعن، لأنه اشتهر برواية الحديث، وكان علماً من أعلام الحديث، وهم يبحثوا عن أعلام الأحاديث لكي يطعنوا فيها، ظناً منهم أنهم إذا طعنوا في هؤلاء، يكونوا نجحوا في محاولاتهم وهي القضاء على السنة، فأبو هريرة يشكو أنه مع كونه أكثر الصحابة حديثاً إلا أن عبد الله بن عمرو بن العاص قد سبقه في ذلك، لماذا؟ (لأنه كان يكتب ولا أكتب)، وكان ابن عمرو يسمي صحيفته الصادقة، يعني يسمي الصحيفة التي كتبها عن رسول الله الصادقة، وكذلك كان عند علي ﷺ صحيفة، فيها فكاك الأسير، والديات، وألا يقتل مسلم بكافر، بعد وفاة رسول الله ﷺ سئل علي، هل أوصى لكم رسول الله ﷺ بشيء، أو عهد إليكم بعلم لم يعلمه الناس؟ قال

---

(١) رواه أبو داود في سننه (٣٦٤٦)، والحديث صححه الشيخ الألباني في الصحيحة برقم (١٥٣٢).

(٢) رواه البخاري (١١٣).

علي ﷺ: (لا، والذي خلق الحبة وبرأ النسمة، ما أوصى لنا رسول الله ﷺ بشيء كتمه عن الناس، إلا أن يعطي الله عبده فهماً في كتابه، وإلا ما في هذه الصحيفة) وأخرج علي صحيفة كان مكتوب فيها بعض الأحكام، المتعلقة بالديات، وفكاك الأسرى، وألا يقتل المسلم بالكافر، ولما حدث رسول الله ﷺ أصحابه بحديث، «من قتل له قتيل فهو بخير النظرين قام رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاة، فقال: اكتب لي يا رسول الله، فقال: «اكتبوا لأبي شاة»[1] يعني أذن لهم أن يكتبوا له نص الحديث الذي حدثهم به رسول الله، وكانت كتبه ﷺ إلى الملوك، والأمراء تعتبر من الحديث المكتوب، لأنها كتب مكتوبة، وهي أحاديث، فالنبي ﷺ لم ينهى عن كتابة الحديث نهياً مطلقاً، بل رخص في ذلك لبعض أصحابه، وبعد وفاته عليه السلام، كان حديثه محفوظ في صدور أصحابه، ونشط صغار الصحابة، كابن عباس، وأنس، وجابر، وغيرهم، في جمع الحديث الذي كان عند غيرهم من كبار الصحابة، ليضموه إلى ما سمعوه بأنفسهم، ابن عباس بعد وفاة رسول الله ﷺ وكان حدث السن، يعني توفي رسول الله ﷺ وهو صغير لم يناهز الحلم، وطبعاً وهو في هذه السن الصغيرة لم يسمع كثيراً من الأحاديث، فاته منها شيء كثير، فكان يذهب إلى كبار الصحابة، ويجلس على أبواب دورهم، ينتظر خروجهم ليسمع منهم ما حفظوه من أحاديث، حتى إنه مرة والدنيا برد شديد، ذهب فجلس على باب رجل من

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، البخاري (١١٢)، مسلم (١٣٥٥).

الأنصار، ومكث ينتظر حتى خرج الأنصاري فلما رآه قال: يا ابن عم رسول الله ما الذي أجلسك هنا ألم تطرق الباب لأفتح لك أو كذا، أو كذا؟ قال: (لا، بل حاجتي إليك هي التي جعلتني أجلس على باب دارك) يقول: يعني أنت لم لا تنتظر حتى آتيك أنا، ادعني وأنا آتيك في دارك أنت، قال له: لا، أنا الذي أحتاج إليك، ولم تحتاج أنت إلي، وأخذ منه ما عنده من أحاديث، ولما فتحت الأمصار، وتفرقت الصحابة في البلدان، أخذوا يروون ما كان عندهم من أحاديث لتلامذتهم من التابعين، وفي أواخر القرن الأول للهجرة والتابعون متوافرون، من أجل الذين يقولون: الدس، يقولون أحاديث ودس في الأحاديث، من أجل أن تعرف كيف دونت الأحاديث من أول يوم؟ وكيف أنها كتبت ولا يزال العهد قوي، ولا يزال بعض الصحابة موجود، ولا يزال التابعون كلهم موجودين، الذين أخذوا من أفواه الصحابة، يعني التابعين أخذوا الحديث من أفواه الصحابة، ودون الحديث في عهد التابعين الذين أخذوا الحديث من الصحابة مشافهة، إذاً فين الدس، الدس هذا يدخل من أين؟ يا ترى أين يدخل الدس؟ يا ترى في الصحابة ولا في التابعين ولا في أتباع التابعين ولا في الأئمة الذين رووا عن هؤلاء؟ من الذي يقدر أن يدس على هؤلاء؟ أي يهودي مثلما يقولوا: اليهود الذي دس، أي يهودي ، يعني يستطيع يدس كيف على صحابي أو على تابعي أو على، سبحان الله، وفي أواخر القرن الأول للهجرة والتابعون متوافرون، أمر الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

بتدوين السنة، وكتب إلى علماء الأنصار يقول: انظروا ما عندكم من السنن والآثار فاجمعوها، فإني خفت ضياع العلم، وذهاب العلماء، فقام بذلك عدد وافر من التابعين، ولما جاء مالك إمام دار الهجرة رحمه الله دون موطأه في الحديث، بإشارة من الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور رحمه الله وتوخى فيه منتهى الدقة والتحري، فكان لا يروي إلا ممن عرف بالضبط والإتقان، ويقول مالك: (لقد أدركت في هذا المسجد) يعني مسجد رسول الله ﷺ، (سبعين شيخاً من أهل العلم، وإن أحدهم ليؤتمن على خزائن الأرض، ولم أروي عن أحد منهم شيئاً) فقيل له: لماذا؟ فقال: (لأنهم ليسوا من أهل هذا الشأن) يعني ممن تجوز عليهم الغفلة ممن ينسون، ولا يضبطون، ولا يحفظون، فلم يروي مالك عن واحد من هؤلاء السبعين، مع شهرتهم في العلم، ومع أمانتهم وصدقهم، لماذا؟ لأنه جوز أن يغفلوا.

والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وغير هؤلاء، وتوالت جهود العلماء في تدوين الأحاديث، فألف أحمد بن حنبل رحمه الله مسنده الذي جمع فيه معظم ما عرف في عصره من حديث، وأراد أن يكون مسنده إماماً للناس، ولما نشطت حركة الوضع للحديث، وكانت الكوفة هي المركز الرئيسي لتلك الحركة، قام العلماء بوضع الشروط، والقواعد، التي يجب أن تتوفر في الحديث ليكون صحيحاً مقبولاً، وهو أن يتصل إسناده، بنقل العدل الضابط عن مثله، حتى يصل إلى رسول الله ﷺ، وأخذوا يبحثون الأسانيد ليميزوا في تأليفها، ووضعوا

علم الجرح والتعديل، لوزن رجال الأسانيد، في هذا العلم من الدقة، والتحري، ما لم يقع لأمة من الأمم قبل المسلمين، يعني الراوي يعرف تاريخ حياته، وتعرف مروياته كلها، فإن وجد في تاريخ حياته ما يخدش مروءته، أو ما يشير إلى اتهامه بشيء من الكذب، أو الفسق، أو الخروج عن العدالة، ولو مرة واحدة في حياته، لو وجد في تاريخ حياته كلها شيء من هذا يرفض، وترفض الرواية عنه، بهفوة واحدة من هذه الهفوات، واشتهر في هذا الفن الذي هو فن الجرح والتعديل للرجال، من الجهابذة النقاد، يحيى بن معين، هذا من كبار النقاد للحديث ومن كبار علم الرجال، حتى إذا وثق يحيى بن معين رجلاً صار ثقة، إذا ضعف رجلاً لا يجوز الرواية عنه أبداً، فكان يحيى أستاذ وإمام في هذا الفن، وقد رأى له بعض الناس منام، أنه كان عند الكعبة والنبي نائم، ومعه مذبة يذب بها عن رسول الله ﷺ، فلما استيقظ الرجل ذهب إلى يحيى وقال له: رأيت لك كذا وكذا، فقال: (نعم، نحن نذب عن حديث رسول الله ﷺ الكذب) يذب الكذب، والكذابين، عن حديث رسول الله، واشتهر في هذا الفن من الجهابذة النقاد يحيى بن معين، ويحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، وأحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، والبخاري، والنسائي، وابن حبان، والدراقطني، وأبو زرعة الرازي، وأبو حاتم البستي، فلم يتركوا رجلاً من رجال الإسناد، إلا فلوه تفلية، ودرسوا حاله دراسة وافية، وألفوا الكتب في الضعفاء، والمتروكين، والمجهولين، وقسموا الحديث بحسب إسناده، إلى

الصحيح، والحسن، والضعيف، والمتروك، والموضوع، إلى آخره، وتكلموا عن أحوال الأحاديث المختلفة وعللها، وبينوا أحكامها، فتحدثوا عن المرسل، الحديث المرسل هذا الذي سقط منه الصحابي، يعني يضيفه التابعي إلى رسول الله ﷺ، انظر مدى تحريهم العدالة أنهم يجعلون المرسل من قسم الضعيف، مع إن التابعي يعني رواه عن صحابي، ومع ذلك ما دام التابعي لم يأت باسم الصحابي في السند يعتبرون الحديث ضعيفاً، يعني فيه السلسلة كلها سلسلة قوية عن فلان، عن البخاري مثلاً، عن شيخه ابن المديني، أو نعيم بن حماد أو كذا، أو يعقوب عن فلان، عن فلان، عن سعيد بن المسيب، أو عن عطاء، أو عن ابن سيرين، أو كذا عن رسول الله مباشرة، فيضيف التابعي الحديث إلى رسول الله ويحذف الصحابي الذي أخذ عنه الحديث، علماء الحديث يعتبرون هذا المرسل من قبيل الضعيف، فلا يحتجون به، مع إن الصحابة كلهم عدول، وحذف الصحابي، أو الجهل بالصحابي لا يضر، ومع ذلك لشدة تحريهم الصدق في الحديث لا يقبلون المرسل الذي يرفعه التابعي إلى رسول الله ﷺ، وكذلك المنقطع، ما المنقطع؟ المنقطع أن يذكر السند ثم يحذف واحد من وسط الإسناد، يعني في السلسلة واحد مبهم، أو حذف، لم يذكر اسمه، هذا أيضاً ضعيف، المنقطع ضعيف لأن السلسلة ليست متصلة، سلسلة لم تتصل، فهو ضعيف، وكذلك المقطوع الذي حذف منه الذي قبل التابعي مباشرة أيضاً ضعيف، وهكذا يعني كل هذه عندهم من أقسام الضعيف، المرسل، المقطوع،

المنقطع، كل هذا من أقسام الضعيف، والمعضل والشاذ، والمنكر، وتحدثوا عن الموضوع وأسباب الوضع، وبالجملة فإنهم لم يتركوا شيئاً يتعلق بالحديث إلا أوفوه بحثاً ودراسة، فحفظوا بذلك سنة نبيهم ﷺ ، وذبوا عنهما الدخيل والموضوع، ولما أراد البخاري رحمه الله تأليف صحيحه، البخاري كان يحفظ أكثر من ثلاثمائة ألف حديث، ثم ينتخب لنا من الثلاثمائة ألف حديث ثمان آلاف حديث، بالمكرر؟ بالمكرر وبعدين لما تأتي تحذف المكرر تجد في صحيح البخاري كله أربعة آلاف حديث، وبعد هذا الانتخاب، وهذه الغربلة، وهذا النخل من البخاري، يأتي جاهل مأفون قال: يستدرك على البخاري أحاديث، ويقول: لا، هذه الأحاديث موضوعة، أحاديث مدسوسة، انظر إلى الجهل، الدارقطني الإمام الكبير، الذي كان أعلم الناس بعلل الحديث، أعلم الناس بعلل الحديث في أيامه وفي عصره، الذي هو الدارقطني استدرك على البخاري بضع أحاديث يعني لم تبلغ العشرة، أحاديث لم تبلغ عشرة أحاديث، استدركها الدارقطني ليس أنها غير صحيحة أبداً، بل فقط قال الدارقطني: إنها ليست على شرط البخاري، لأن البخاري اشترط شروط وهذه الأحاديث لا تنطبق عليها شروط البخاري فقط، هذه كل الحكاية، يعني الدارقطني لم يقل: إن البخاري روى موضوع والعياذ بالله، ولا روى ضعيف بل هي أحاديث صحيحة، وكل ما استدركه الدارقطني على البخاري، أنه البخاري لم يراعي الشروط التي اشترطها في صحيحه في تلك الأحاديث، فجاء الحافظ ابن حجر في مقدمة

"هدى الساري"، الذي هو "مقدمة شرح صحيح البخاري" لابن حجر، اقرأها تجد أن ابن حجر رد على الدارقطني وبين له أن البخاري كان أعلم منه بهذه الأحاديث وبعلل هذه الأحاديث وبين له كيف إن البخاري روى هذه الأحاديث، ليس أنها كما قال الدارقطني وأن هذه الأحاديث إنما رواها البخاري لأن لها شواهد تقويها في مواضع أخرى، فلهذا استجاز البخاري روايتها، لما أراد البخاري رحمه الله تأليف صحيح اشترط بذلك شرطين:

أولهما: أن يكون كل واحد من رجال الإسناد قد عاصر من أخذ عنه، يعني نبحث هذا روى عن هذا، يا ترى كانوا في عصر واحد ولا الشيخ مات قبل التلميذ؟ يبدأ يحدث، أو يطلب الحديث، فلا بد من المعاصرة بين الراوي والذي أخذ عنه، هذا شرط ولم يكتفي البخاري بهذا الشرط، بل اشترط مع ذلك ثبوت اللقيا، يعني أن يثبت أنهما التقيا، وأن أحدهما أخذ من الآخر وشافهه ولهذا كانت أحاديث البخاري بالإجماع أصح الأحاديث، لأنه اشترط هذين الشرطين اللقيا والمعاصرة، أما مسلم فاشترط المعاصرة فقط، ولم يشترط اللقيا، ولهذا كان أقل درجة، ليس يعني ضعيف، لا أقل درجة من صحيح البخاري، فالبخاري في الدرجة الأولى، ومسلم في الدرجة الثانية، وكلاهما صحيح، ولهذا تجد الغلط في صحيح مسلم أكثر من الغلط في صحيح البخاري، ولما أراد البخاري رحمه الله تأليف صحيحه اشترط بذلك شرطين:

أولهما: أن يكون كل واحد من رجال الإسناد قد عاصر من أخذ عنه.

والشرط الثاني: أن يكون قد لقيه وأخذ عنه، ولكن مسلماً رحمه الله اكتفى بالشرط الأول وهو المعاصرة، ولهذا كان البخاري في الدرجة الأولى من الصحة، وإن كان مسلم أي صحيح مسلم أحسن ترتيباً من البخاري، واتفقت الأمة كلها إلا من شذ وألحد، على تلقي أحاديث الصحيحين بالقبول، وأن ما اتفقا عليه الشيخان يعتبر في حكم الحديث المتواتر، الذي يفيد اليقين، إذا اتفقا البخاري ومسلم على حديث فحكمه حكم المتواتر، الذي يفيد العلم اليقيني ويكون منكره أشبه أن يكون كافراً والعياذ بالله.

وأما مكانة السنة من التشريع فقد أجمعت الأمة كلها على أنها هي المصدر الثاني للتشريع بعد كتاب الله ﷻ لا يختلف في ذلك أحد من أهل العلم، فالسنة فوق أنها بيان للكتاب وتفصيل لمجمله، قد تأتي بأحكام زائدة على ما في الكتاب، كالمسح على الخفين مثلاً، فإنه ليس في القرآن، وتحريم كل ذي ناب من السباع، ومخلب من الطير، وتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، لأنه الذي في القرآن ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ «النساء:٢٣» لم يقل: بين المرأة وخالتها، وبين المرأة وعمتها، لكن هذه زيادة جاءت من السنة، فالنبي ﷺ هو الذي حرم أن تجمع المرأة بين عمتها أو خالتها، وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «يوشك رجل شبعان على أريكته، يأتيه الأمر مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: حسبنا كتاب الله، فما وجدنا فيه من حلال أحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا إن الذي حرمه رسول الله كالذي حرمه الله، ألا إني أوتيت

الكتاب ومثله معه»[1] يعني من السنة، ولما بعث النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن، قال له: «بم تحكم؟» قال: بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد؟» قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: «فإن لم تجد؟» قال: أجتهد رأيي لا آلو، فقال: « الحمد الذي وفق رسول، رسول الله لما يرضي رسول الله» أو «لما يرضي الله ورسوله»[2]، والقرآن الكريم نفسه يرشد إلى وجوب اتباع السنة، والأخذ بها كمصدر ثان للتشريع، فالله ﷻ يقول من سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾«النساء:٥٩» فأمر بطاعة الرسول، طاعة مستقلة، بعد طاعة الله، كما أمر بالرد عند التنازع إلى الرسول بعد الرد إلى الله، ولا شك أن المراد بذلك الرد إليه في حياته وإلى سنته بعد موته.

ثم تأمل قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ لم يقل: أطيعوا الله والرسول، قال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ عشان يشير وينبهنا إلى أن طاعة الرسول واجبة حتى ولو قال ما لم يرد في القرآن، يجب طاعته فيها، ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ليشير إلى أن طاعة الرسول طاعة مستقلة، ليس فقط نطيعه فيما جاء به القرآن فقط، لا بل نطيعه في كل ما قاله حتى ولو كان زائداً على القرآن.

---

(١) متفق عليه من حديث عمر رضي الله عنه، البخاري (٦٨٢٩)، مسلم (١٦٩١).

(٢) رواه أبو داود في سننه (٣٥٩٢)، والترمذي في سننه (١٣٢٧)، والحديث ضعفه الشيخ الألباني في ضعيف سنن الترمذي.

ويقول سبحانه من سورة الحشر: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾«الحشر:٧» ولا شك أن هذا الإيتاء، يشمل إيتاء المال، وإيتاء العلم، وغير ذلك، يعني ليس المقصود فقط منه إيتاء المال فقط، يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ولم يقل: ما آتاكم من المال، لا قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ﴾ فيشمل إيتاء المال، وإيتاء العلم.

ويقول جل شأنه من سورة الأحزاب آمراً لنساء نبيه ﷺ: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾«الأحزاب:٣٤» وقد اتفق جمهور المفسرين على أن المراد بالحكمة السنة.

ويقول تبارك وتعالى من سورة الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾«الأحزاب:٢١» طيب كيف نتأسى به إذا لم نعرف حديثه؟ الذي ما تعرف أقواله ولا أفعاله كيف يمكن أن تتخذه قدوة لك؟ هذا لا يمكن أبداً، أنا أقتدي بالرجل الذي عرفت حاله وسمعت أقواله، أو قرأت عنه، وعرفت أفعاله، فهذا هو الذي يمكن أن يكون قدوة، فلما ربنا يأمرنا أن نتخذ الرسول قدوة، كأنه يأمرنا أن نتتبع سيرته كلها، وأن نعرف أقواله، وأعماله، وأخلاقه، وهديه كله، هذه هي السنة، أقوال الرسول وأفعاله مثلما قلنا: هي السنة، ليس أكثر من ذلك، ولا شك أن هذا التأسي والاقتداء به لا يمكن إلا إذا عرفنا كلما أثر عنه من أقوال، وأفعال،. ويقول سبحانه من سورة النحل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾«النحل:٤٤» فبين سبحانه أن الغاية من إنزال

الكتاب هو تبيينه للناس، ولا يكون ذلك التبيين إلا بالسنة، ومن زعم أنه يمكن الاستغناء بالقرآن عن السنة، فليقل لنا كيف عرف أن الصبح ركعتان؟ في القرآن أن الصبح ركعتين؟ وأن المغرب ثلاثة ركعات؟ عرف من القرآن أن المغرب ثلاث ركعات، وأن كل ركعة لها ركوع واحد ولها سجودان؟ إلى غير ذلك من كيفية الصلاة، كيفيات كثيرة ليس في القرآن شيء منها أبداً، إنما كل هذا بينت السنة، وكيف عرف أن صلاة النهار عجماء لا يجهر فيها بالقراءة؟ بخلاف صلاة الليل، وأنه يحرم على المحرم لبس المخيط من الثياب، ولبس الخفين، والتطيب، ونحو ذلك، وأن الطواف سبعة أشواط، وأنه يجب الوقوف بعرفة جزءاً من الليل،وأن ذكر الله في قوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾«البقرة:٢٠٣» هو رمي الجمار إلى غير ذلك، عرف منين هذا؟ وقد روي أن ابن مسعود ﷺ لعن الواصلة، والمستوصلة، والواشمة، والمستوشمة، فجاءته امرأة من بني أسد وقالت له: بلغني أنك قلت: كيت وكيت، فهل هذا شيء وجدته في كتاب الله؟ قال: نعم، فذهبت وفتشت في المصحف فلم تجد شيئاً، ثم جاءت فقالت: لقد قرأت ما بين الدفتين فلم أجده، فقال لها: (إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه، إن الله ﷻ يقول: ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ وما لي لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ) فهو يقول لها: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه، أليس في القرآن ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾؟ فهذا مما آتانا الرسول، لأنه لعن الواصلة، والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة،

وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم والتابعون من بعدهم، وأتباع التابعين، وأئمة الدين المعتبرين، الذين يعتد بأقوالهم في الدين، لا يرون لأحد غنيً عن السنة المطهرة، ولا يرجعون في شيء من أقوالهم إلا إلى الكتاب الكريم والسنة الصحيحة، لم يقل أحد منهم أبداً: حسبنا كتاب الله، ولا أقروا لأحد باجتهاد في الدين، إلا إذا كان حافظاً للسنن، عالماً بالآثار و المرويات.

وأما عن شرف أصحاب الحديث ومنزلتهم بين العلماء فبحسبنا أن نذكر هنا بعض ما ورد في ذلك من أحاديث:

الحديث الأول قوله ﷺ: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء»[١] قيل: يا رسول الله ومن الغرباء؟ قال: «الذين يحيون سنتي من بعدي ويعلمونها عباد الله»[٢] هؤلاء هم الغرباء، الغرباء أصحاب الحديث الذين يحيون سنة رسول الله ﷺ ويعلمونها من يطلبها من عباد الله ﷻ.

الحديث الثاني: قوله ﷺ: «افترقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة واحدة، وهي الجماعة»[٣] قال أحمد بن حنبل رحمه

---

(١) رواه مسلم (١٤٥).

(٢) أخرج هذه الرواية ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٩٠٢).

(٣) رواه أبو داود في سننه(٤٥٩٦)، وابن ماجة (٣٩٩٣) واللفظ له، والحديث صححه الشيخ الألباني في الصحيحة برقم (٢٠٤).

الله: (إن لم يكن هؤلاء أصحاب الحديث فلا أدري من هم) ابن حنبل يقول: إذا لم يكن هؤلاء أصحاب الحديث هي الفرقة الناجية لم أعرف من هم، سبحان الله، أحمد الإمام الكبير، يقول: الفرقة الناجية اللي النبي قال: هي التي تنجوا من الثلاثة والسبعين، هي أصحاب الحديث وإن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أعرف منهم إذاً، إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم.

الحديث الثالث: قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة»[1] قال ابن المبارك رحمه الله: (هم عندي أصحاب الحديث) ابن المبارك معروف ابن المبارك، و مشيخة ابن المبارك، وعلم ابن المبارك، وإمامة ابن المبارك، فابن المبارك يرى أن هذا الحديث لا ينطبق إلا على أهل الحديث، لأنهم هم الظاهرين على الحق، دون سائر الطوائف الضالة المبتدعة، لأنهم هم الذين اتبعوا ولم يبتدعوا، فهم الطائفة التي عناها رسول الله ﷺ هنا: «لا تزل طائفة من أمتي» من هذه الطائفة، إلا أصحاب الحديث، لأنه كل الطوائف مبتدعة، لكن أصحاب الحديث هم الذين حافظوا، ولم يغيروا، ولم يبدلوا، واتبعوا السنن والآثار، ولم يزيدوا من عند أنفسهم شيئاً، وقال أحمد رحمه الله عن روايته لهذا الحديث أيضاً: (إن لم يكونوا أصحاب الحدث فلا أدري من هم) يعني إن تكون هذه الطائفة هي أصحاب الحديث فلا أدري من هم، وقال أبو حاتم: (سمعت أحمد بن سنان

---

(١) رواه البخاري من حديث المغيرة (٣٦٤٠)، ومسلم من حديث ثوبان (١٩٢٠).

وذكر حديث «لا تزل طائفة من أمتي على الحق» فقال: (هم أهل العلم وأصحاب الآثار).

الحديث الرابع: قوله ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله» يقصد بهذا العلم الحديث فقط، «يحمل هذا العلم» يعني الحديث «من كل خلف» أي من كل جيل يأتي، «عدوله يمحون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين» «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله يمحون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»[1].

الحديث الخامس قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «اللهم ارحم خلفائي» قال علي: قلنا يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال: «الذين يأتون من بعدي يرون أحاديثي وسنتي ويعلمونها الناس»[2].

وأما عن بيان فضل الإسناد، الجماعة الذين يطعنون في الأحاديث، الإسناد هو البعبع الذي يأكلهم، يعني ما يقدرون أبداً، لا يقدرون يتعارضوا للإسناد، ولا يقدروا يأتوا ناحية الإسناد، ولا يقدروا في رجل من رجال الإسناد، الذي روى عنهم البخاري أو مسلم، لا يجدون مغمز، ولا مطعن في

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٢٠٩١١). والحديث صححه الشيخ الألباني في المشكاة (١/ ٨٢).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٦/ ٧٧)، وهو حديث باطل، انظر السلسلة الضعيفة للشيخ الألباني (٢/ ٢٤٧).

هؤلاء الرجال، فما مطعنهم؟ أو ما هدفهم؟ يقول لك: لا، ليس لنا دعوة بهذا السند، السند ليس لنا دعوة به، نحن ننظر في الحديث في نفسه، إن كان معناه مقبول وموافق للقرآن كما يزعموا يقبله، لكن إن كان غير موافق نرفضه، إذا لم يكن موافق للعقل ولا كذا نرفضه، حتى ولو صح الإسناد؟ حتى ولو صح الإسناد لأنهم لا يقيمون للإسناد وزنا، ولا يعتبرون بالإسناد، مع أن الإسناد كما قال ابن المبارك رحمه الله: (هو الدين) الإسناد هو الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، لولا الإسناد في الأحاديث كل واحد يروي مثلما يريد، لكن الإسناد هو الذي يعرفني الحديث من غير هذا الحديث صحيح أو ضعيف أو، وأما عن بيان فضل الإسناد وأنه مما خص الله به هذه الأمة، فقد روي في ذلك آثار كثيرة، نكتفي هنا بذكر طرف منها: قال مطر الوراق رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾«الأحقاف:٤» قال مطر: (المراد بالآثار من علم هي إسناد الحديث)، قال مالك رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾«الزخرف:٤٤» قال مالك: (هو قول الرجل حدثني أبي عن جدي عن فلان، عن فلان) ذكر له، يعني تذكرهم في السند تقول: حدثني أبي عن جدي عن فلان، عن فلان،﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾.

قال أبو بكر محمد بن أحمد الخطيب البغدادي رحمه الله: (بلغني أن الله تعالى خص هذه الأمة بثلاثة أشياء، لم يعطها من قبلها: الإسناد، والأنساب، والإعراب) الإسناد في الحديث، والأنساب يعني تحافظ على أنسابها، لا تختلط

فيها الأنساب كما تختلط في الأمم الأخرى، والإعراب يعني الإفصاح، والبلاغة في الكلام، والإعراب يعني التبيين في الكلام، البيان في الكلام.

قال محمد بن حاتم المغفل رحمه الله انتبهوا لكلمة هذا الرجل لأنها كلمة عظيمة جداً، يجب أن تدون وتوضع كدستور لكل من يحب السنة، قال محمد بن حاتم المغفل رحمه الله: (إن الله تعالى أكرم هذه الأمة، وشرفها، وفضلها بالإسناد) انظر محل التكريم والشرف في نظر محمد بن حاتم، هذا الإسناد، أنها أمة لا تلقي الكلام على عواهنه، وإنما هي أمة تسند كلامها عن فلان، عن فلان عن فلان، حتى ينتهي به عن محمد، وبعدين محمد إلى جبريل، وجبريل عن الله، هذا هو الإسناد، فالإسناد مبدأه من؟ الله، لأن الله أعطاه لجبريل، وجبريل أعطاه لمحمد، فإذا بلغ الإسناد منتهاه إلى رسول الله، فلا بد نرفعه كمان نقول: عن جبريل، عن الله، تتمة الإسناد إليه؟ عن جبريل، عن الله، لأن محمد صلوات الله وسلامه عليه لا ينطق عن الهوى، وإنما هو وحي يوحى، نعم، إذاً تتمة الإسناد عن جبريل عن الله ﷻ، (إن الله تعالى أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها قديمهم وحديثهم إسناد) اليهود ضيعوا إسناد التوراة، النصارى ضيعوا إسناد الأناجيل، أسانيدهم منقطعة كلها، لم يبق إسناد للكتب المنزلة كلها، التي قبل القرآن، إنما هذه الأمة حافظت على إسنادها، حافظت على الإسناد وكان هذا مما شرف به هذه الأمة، ومما اختص به هذه الأمة، إن الله تعالى أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها

بالإسناد وليس لأحد من الأمم كلها قديمهم وحديثهم إسناد وإنما هي [خصيصة من الخصائص المميزة لهذه الأمة].

التوحيد الخالص[١]

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد عبد الله ورسوله، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن فيما سمعناه الليلة، من فضيلة رئيس الجماعة، ومن نائب الرئيس، من الحديث الشيق الممتع، ومن هذه الكلمات الرائعة، التي ملأت قلوبنا أمناً، وإيماناً، وطمأنينة، فيما سمعناه من هذه الكلمات كفاية، وفيها شفاء، وفيها عبرة لكل من سمعها وهو حي القلب، وهو واعٍ لها ومتدبر، ولكني مع ذلك، أرى أنني من واجبي، ألا أتأخر إذا دعيت لكي أسهم أنا أيضاً بكلمة في هذا الحفل الرائع، الذي جمع هذه القلوب، الطاهرة، المؤمنة، اجتمعت من هنا ومن هناك، ليس كل من أراهم أمامي من هذا البلد الطيب الأمير، ولكن منهم من جاء من بلاد بعيدة ليشهد هذا الحفل، وليرى لهم إخواناً له في الله، وليلتقي بهم على طاعة الله تبارك وتعالى، وقد وفق لي في هذا الحفل موضوع التوحيد الخالص.

والتوحيد كلمة جميلة نرددها دائماً، ونهتف بها دائماً، والتي قليل منا من يقف مع هذه الكلمة، طويلاً، أو قصيراً، يتأملها ويتدبر معانيها، ويتدبر ما تريده منه هذه الكلمة، وما تتطلبه، فالواجب إذاً أن نعرف معنى التوحيد، ثم أن نعرف معنى خلاق التوحيد، أو تجريد التوحيد، فالتوحيد هو دين الله، الذي

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة في ندوة جمعت الشيخ الهراس بالشيخ عبد الرحمن الوكيل.

بعث به رسله، وأنزل به كتبه، التوحيد هو الدين كله، عقائده، أحكام وشرائعه، أمره ونهيه، كل ذلك توحيد، فإن الله جعل التوحيد أساساً تقوم عليه الأديان والشرائع كلها، وجعل التوحيد هو العماد الذي تدور حوله جميع أحكام الدين وشرائعه، اتفقت عليه كلمة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وكان هو مفتتح دعوة كل رسول إلى قومه، فما من رسول جاء قومه بشرع من عند الله تبارك وتعالى، إلا كان أول ما يدعوهم إليه هو توحيد الله ﷻ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥] ، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾[النحل:٣٦] ، إذاً التوحيد يدخل في كل شيء من أمور الدين، فهو عقيدة أولاً، ثم هو عمل، وأخلاق آخراً، يتمسك بها الموحد ويقوم بها، فتكون ثمرة، ثمرة لهذا التوحيد، إذا تمكنت شجرته من أرض القلب، وتغذت بمعارف الحقة، والعلوم الصحيحة، فإنها تثمر من كل ثمر شهي، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، والله تبارك يضرب المثل بكلمة التوحيد في كتابه بأنها ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[إبراهيم:٢٥] ﴾[إبراهيم:٢٤] ، فالتوحيد إما أن يكون توحيداً فيما هو من خصائص الرب جل شأنه، وإما أن يكون توحيداً فيما هو من حقوق الرب جل وعلا، فالواجب هو توحيد الله تبارك وتعالى التوحيد

كله، التوحيد الذي لا تشوبه شائبة شرك أصلاً، فلا نعطي شيئاً من خصائص ربنا ﷻ لمخلوق أبداً، ولا نتقرب بشيء من حقوق الرب تبارك وتعالى إلى مخلوق أبداً، إذاً فهذا التوحيد يتقاضانا، ويتطلب منا أن نعرف أولاً: الفرق بين ما هو من خصائص الخالق جل وعلا، وبين ما هو من خصائص المخلوق، حتى لا نعطي ما للخالق للمخلوق، ولا نعطي ما للمخلوق للخالق، فالواجب أن نفرق بين القديم الأول، الذي هو مبدأ الوجود كله، ومصدر الخير، ومصدر الخير كله، وبين الحادث الذي لم يكن شيئاً ثم كان، يجب أن نفرق بين الآخر الذي إليه المنتهى، وإليه المصير، والذي ترجع إليه الأمور كلها، والذي لا يعتريه زوال، ولا نقص، ولا عدم، ولا فناءٌ أبداً، وبين الفاني الزائل، الذي لا بقاء، ولا دوام له، يجب أيضاً أن نفرق بين الحي الذي هو يهب الحياة لكل حي، والذي حياته أكمل حياة، وأتم حياة، حياة ليست له من غيره، وإنما هي له من ذاته، حياة لم يسبقها عدم، ولم يلحقها عدم، وبين حياة المخلوقين، تلك الحياة المستعارة التي أعطاهم الله ﷻ إياها، وألبسهم ثوبها إلى حين، فالحي الذي حياته هي مصدر الحياة كلها، والذي حياته أكمل الحياة وأتمها، هو الذي لا يموت أبداً، ولا يحول الفناء، ولا العدم حول ساحته، وأما المخلوق فهو ميت لا محالة، لأن حياته إنما هي عارية، يستردها الله تبارك وتعالى منه حين يشاء، يجب أن نفرق بين القيوم، الذي قام بنفسه واستغنى عن جميع خلقه، غنىً مطلقاً ليس فيهما أحد حاجة أبداً، ولا يفتقر إلى شيء من مخلوقات

بأي وجه من الوجوه، فله كمال الغنى، وله تمام الغنى الذي لا تشوبه شائبة حاجة ولا فقر أبداً، وبين هذا المخلوق الفقير، الذي لا يقوم بنفسه لحظة، بل لا بد له من ربه الذي يقومه، والذي يقوم بشئونه كلها، والذي لا يمكن أن يستغنى عنه لحظة من لحظاته، بل وفي كل أحواله، وفي كل أوقاته فقير محتاج إلى خالقه جل وعلا، فمنه بدأ وإليه ينتهي، وهو الذي يمده في كل آن، وفي كل حال بما يحتاج إليه في حياته، من قوت، أو ملبس، أو شراب، أو ريح يتنفسه، أو شمس يستضيء بها ويستدفئ، أو قمر، أو أرض تقله، أو غير ذلك من النعم، التي لو فقد واحدة منها لا يمكن أن تستقيم حاله لحظة واحدة، بل لها لعاجله الفناء والزوال، فالحي القيوم الذي به قام الكل، وهو قد استغنى عن الكل، وإليه يفتقر الكل، ويحتاج الكل له جل شأنه، فلا بد إذاً أن يفرق العبد بين ربه، الحي، القيوم، الغنى، الحميد، الذي لا يمكن أبداً أن يفتقر إلى شيء من الأشياء بوجه، والذي لا يمكن أن يستغني عنه شيء من الأشياء بوجه، بل له هو وحده الغنى المطلق، ولغيره الفقر المطلق، الذي لا يمكن أن تشوبه شائبة غنى أبداً، يجب أن يفرق بين الخالق، الذي له القدرة التامة على كل شيء، فلا يمكن أن يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، بل إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، فلا يمكن أن يتأخر شيء أبداً عن مشيئته وإرادته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، يجب أن يفرق بين هذا القادر بقدرة تامة، لا يستعصى عليها شيء أبداً، ولا يعجزه ممكن أصلاً، وبين هذا العاجز الذي لا قدرة له على شيء، إلا بإقدار

الله، وتمكين الله، فلو لا أن الله ﷻ يخبر العبد، ولو لا أن الله ﷻ يعطيه القوة والقدرة على ما يريد الله ﷻ منه أن يفعله، لما كان للعبد قدرة أصلاً، فإن قدرته ليست له من ذاته، وإنما هي له من الله تبارك وتعالى هدى، وفضلاً منه ﷻ، فيجب علينا أن نفرق بين القادر على كل شيء، وبين العاجز عن كل شيء، الذي لا يملك شيئاً أبداً ، ولا يقدر على شيء أبداً، إلا ما شاء الله ﷻ أن يقدره عليه، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا الباب من التوحيد واسع جداً، يطول بنا الكلام لو استقصينا وجوه الفرق أو وجوه التباين والخلاف بين الخالق وبين المخلوق، وما علينا في هذا الباب، إلا أن نرجع إلى ما أخبر الله به ﷻ عن نفسه من أسمائه وصفاته، فنتأملها ونتدبرها، ونعلم أن كل ما سمى الله به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ، وكل ما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، كل ذلك هو لله خاصة لا يمكن أن يشاركه مخلوق أصلاً، لا في اسم من أسمائه سبحانه وتعالى، ولا في صفة من صفاته، بل هو سبحانه وتعالى منفرد متوحد، بجميع ما له من الأسماء والصفات، لا يشبه شيئاً من المخلوقين فيه شيء من ذلك، ولا يشبهه أحد من المخلوقين في شيء من ذلك، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى:١١] فإذا ما حقق العبد هذا الفرق بين الخالق والمخلوق، تجلت له عظمة الرب جل وعلا، وظهر له من كمالات الله تبارك وتعالى، ومن جلاله، وكبريائه، وعزته، وحياته، وقيوميته، وربوبيته، ما يتضاءل عنده في نفسه، قدر كل مخلوق، وكمال كل مخلوق، وعظمة كل مخلوق، فيعلم

حينئذ أن القوة كلها لله، وأن الأمر كله لله، وأن الربوبية المطلقة لله، فهو الذي بيده ملكوت كل شيء، والفعل كله له، فليس لأحد معه فعل أبداً، وإنما الأفعال كلها هي له سبحانه وتعالى، فلا فاعل في خلقه إلا هو، ولا رب لهم، ولا مالك لهم، ولا مدبر لأمورهم، ولا مصلح لشئونهم، ولا حاشر، ولا رقيب، ولا محيي، ولا مميت، ولا قادر على نواصي القلوب كلها، ولا مصرف شئون خلقه جميعها، إلا هو سبحانه وتعالى، فهو الذي يعطي، ويمنع، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا راد لما قضى، ولا ينفع ذا الجد منه الجد، وهو الذي يحيي ويميت، يهب الحياة لمن يشاء، ويسلبها عمن يشاء، وهو الذي يذل ويعز، لا مذل لمن أعز، ولا معز لمن أذل، وهو الذي يملك الملك كله، ﴿تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[آل عمران:٢٦] لأنه هو مسخر هذه الأكوان كلها، فهو الذي يجريها في أفلاكها بقدرته، وهو الذي يدبرها بحكمته، وهو الرازق لخلقه، لا رازق لهم غيره، ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[آل عمران:٢٧] إذا أدرك العبد هذا الفرق بين صفات ربه جل وعلا وبين صفات المخلوق، العاجز، الذليل، الفقير، المربوب، المحدث الفاني، المعدوم، العاجز الذي لا يملك شيئاً، ولا يقدر على نفع، ولا ضر، ولولا فضل الله عليه ورحمته لكان عدماً، ولكان فناء، فلا وجود له إلا بالله، ولا قدرة له إلا

بقدرة الله، ولا سمع ولا بصر، ولا عقل، ولا تفكير، ولا تدبير، ولا هداية، ولا إيمان، ولا توفيق، بل ولا نبوة ولا رسالة، ولا ولاية، إلا بفضل الله وبرحمته، تبارك وتعالى، فهو الذي تفضل على من يشاء من عباده، فهو ذو الرحمة وذو الفضل العظيم، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[البقرة:١٠٥] فلو لا فضله ورحمته ما زكى أحد من عباده، ولو لا فضله ورحمته ما تقرب إليه متقرب بما يحبه ويرضاه، ولو لا فضله ورحمته ما عصم معصوم من معصيته، فهو الذي تفضل على عباده فوفقهم، وهداهم، وألهمهم صراطه المستقيم، وعصمهم من مكائد الشيطان الرجيم، كل هذا من فضله تبارك وتعالى ورحمته، إذا أدرك العبد هذا الفرق الهائل بين المالك لكل شيء، وبين المملوك الذي لا يملك شيئاً، بين الخالق لكل شيء، وبين المخلوق المقهور، بين القادر على كل شيء، وبين العاجز، بين الغني والفقير، بين السيد والمسود، بين العظيم والحقير، بين القوي والضعيف، إذا أدرك العبد هذا الفرق، علم أنه لا إله إلا الله ووجد لهذه الكلمة حلاوة، لأنه سوف لا يجد منازعاً في قلبه ينازعه هذه الكلمة، وأما إذا قالها قبل أن يتدبر الفرق بين الخالق والمخلوق، وقبل أن يتدبر بين الخالق والمخلوق، فإنه إذا قال: لا إله إلا الله لم يجد فيها من الحلاوة، ولا من الطلاوة، ما يجدها عندما يفرق هذا الفرق العظيم، بين صفات ربه وبين صفات المخلوقين، حينئذٍ إذا قال: لا إله إلا الله، قالها عن صدق وعن إيمان، ووجد لها حلاوة في قلبه، لأنه حينئذ سيرى الكل عدماً، وسيرى الكل خلقاً، وسيرى

الكل ضعفاً وعجزاً، وسيرى الكل شيئاً متضائلاً حقيراً، إلى جانب الإله الواحد، إلى جانب الفرد الصمد، إلى جانب العظيم، الكبير، المتعال، حينئذ يشهد بقلبه ويقر بلسانه ألا إله وألا معبود بحق في الوجود كله إلا الله، وأن كل ما عبد من دون الله، فإنما هو معبود باطل لا أصل له، لا يستحق من العبادة شيئاً، وحينئذ يمتثل العبد إلى المرتبة الثانية من التوحيد، وهي توحيد العبادة فيحقق هذا التوحيد، ويعلم أن العبادة حق الله تبارك وتعالى، لأنه هو الخالق، ولأنه هو المالك، ولأنه هو السيد، ولأنه هو الكبير، ولأنه هو العظيم، لا إله غيره، فلا يستحق من هذه العبادة شيئاً، فيصرف عبادته كلها لله، ومن يصرفها لغير الله، إنما هي ظلم عظيم، فيستبشع هذا الظلم ويستفحشه، ويعلم أن الشرك بالله ﷻ أعظم المعاصي جرماً، وأقبحها شناعة، فيجتنب الشرك في جميع صوره وألوانه، ويوحد الله تبارك وتعالى توحيداً مطلقاً، لا يعرف الشرك أصلاً، فيتوجه إليه بجميع عباداته كلها، فيجعل رجائه لله، وخوفه من الله، وتوكله على الله، واستعانته بالله، وذله وخضوعه، وفقره واحتياجه إلى الله تبارك وتعالى، فلا يخاف إلا هو، ولا يسأل إلا هو، ولا يرجو إلا هو، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يستعين إلا به، ولا يذل إلا له، ولا يخشع ولا يخضع، ولا يرغب ولا يرهب، ولا يتوب ولا ينيب إلا لله رب العالمين، لأنه علم أن هذه حقوق الله تبارك وتعالى عليه، فهو يقوم بها لله ﷻ، وعلم أن أحداً من العباد لا يستحق شيئاً من هذا، فيختص ربه ﷻ بهذه العبادات كلها، خوفاً منه، ورجاءً

فيه، ومحبة، وذلاً، واستكانة، وخضوعاً، وفقراً، ورجاءً، ورغبة، ورهبة، وحباً، وتعظيماً، وتمجيداً، وتكبيراً، وثناءً لله تبارك وتعالى، ويعلم أن الله تبارك وتعالى هو الذي يستحق أن يعبد، وأن يعظم وأن يمجد، وأن كل ما عبد من دون الله تبارك وتعالى لا يستحق من هذه العبادة شيئاً، لأن عبادة غير الله شرك بالله، والشرك ظلم عظيم، ظلم لهذا العابد، فإنه قد ظلم نفسه حين وجهها إلى غير الله، ليعلم أنه أهانها وأذلها لغير الله تبارك وتعالى، وما كان ينبغي لنفس أكرمها الله تبارك وتعالى أن تذل، ولا أن تهون، إلا لله رب العالمين، وظلم ربه حين أعطى حقه لغيره تبارك وتعالى وتوجه به إلى غيره، وظلم الحق لأنه قد أنكر الحق وغمطه، لأن العبادة حق الله تبارك وتعالى عليه، فلا حق أحق من التوحيد، ولا عدل أعدل من التوحيد، ولا فرض أعظم ولا آكد من التوحيد، كما لا جور أجور، ولا باطل أبطل، ولا ظلم أظلم، من الشرك بالله تبارك وتعالى، حينئذ يعلم العبد حق ربه عليه، فيقوم به لله تبارك وتعالى، فيقطع كل صلة له بغير الله ﷻ، لا يرجو أحداً من الخلق، وإنما يرجو ربه، لأنه يعلم أن الخير كله بيد الله، وأن ما في الخلق كلهم من نعم فهي من الله تبارك وتعالى وأنه إن يمسسه بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يرده بخير فلا راد لفضله، لأنه ما يفتح للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، فلا يرجو ولا يطمع إلا في فضل الله تعالى ورحمته.

وإذ جعلنا البيت مثابة للناس

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد عبد الله ورسوله خير البرية، وسيد الخليقة، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد كان اختيار هذا العنوان، عنوان المحاضرة، ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس﴾ كان اختياراً موفقاً، فإن هذا البيت العظيم، يجب في هذه الأيام المباركة، التي يفد إليه الحجيج فيها من كل مكان، يجب أن نفيه حقه من الذكرى، يجب أن نعرف به، وأن ننوه بشأنه، كما نوه الله به في كتابه، إن هذا البيت المحرم أو العتيق، وقد جاء الوصفان في القرآن، فهو محرم عظم الله حرمته، وجعله حرماً آمناً، لا يجوز أن يرتكب فيه عدوان، ولا أن يسفك دم، ولا تعضد فيه شجرة، ولا يختلى خلاه، ولا تلتقط لقطته إلا لمنشد معرف، ذلك البيت الذي حرمه الله ﷻ له علينا حق التعريف، وحق الذكرى، يجب أن نقول فيه شيئاً، وأن نجعل من وقتنا شيئاً للتنويه بهذا البيت العظيم، هذه الآية الكريمة، ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾«البقرة:١٢٥» تعريف بالبناء، بعد التعريف بالباني خليل الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، في الآية التي قبل هذه الآية يقول الله ﷻ: منوهاً بشأن خليله، وبما كان عليه من إخلاص لربه، ومن طاعة وانقياد لأمره، ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ

إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾ «البقرة:١٢٤» لقد كان إبراهيم أمة وحدة، وكان في الزمن القديم هو رائد التوحيد، ومؤسس الملة، وهو الذي قام بالتوحيد قومةً لم يقمها أحد قبله، وهو الذي حقق التوحيد علماً، وعملاً، وحالاً، ودعوة، ولهذا كان إبراهيم رمزاً ومثلاً حياً في القلوب، لا يذكر التوحيد، ولا دعوة التوحيد، إلا ويذكر إبراهيم، بل إن الله ﷻ أمر كل من جاء بعد إبراهيم أن يتبع ملة إبراهيم، فإن كل من جاء بعد إبراهيم من الرسل والأنبياء إنما هو من ذرية إبراهيم، فقد كان من جزاء الله لإبراهيم، ومن الأجر الذي أعطاه الله إياه في الدنيا، أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فما بعث بعد إبراهيم نبي، ولا رسول، إلا وهو من ذريته، وجعل الله له لسان صدق في الآخرين، بل إن نبينا ﷺ وهو أكمل الخلق، وأقربهم إلى الله، وأزكاهم عند الله، أمر أن يتبع ملة إبراهيم، وأمرنا نحن كذلك أن نتبع ملة إبراهيم، فملة إبراهيم هي الخط الذي يسير عليه كل موحد لله بعد إبراهيم، يخبر الله ﷻ أنه ابتلى إبراهيم، أي اختبره وامتحنه، وكلفه سبحانه وتعالى بأوامر، ونواهٍ، ليظهر إخلاصه، ووفائه، وانقياده لمولاه، فلم يقصر إبراهيم، بل أتم الكلمات، ووفى بهن جميعاً طاعة لله، وامتثالاً لأمره، كما قال الله ﷻ في آية من سورة النجم: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى﴾ «النجم:٣٧» ، فإبراهيم قد وفى بالكلمات، وأتم الكلمات، ولا علينا بعد ذلك ألا نعرف الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم، نحن نعلم أن إبراهيم ابتلى في حياته كثيراً، وأنه قدم لربه

إخلاصاً له وتوحيداً أعز ما يملك، وأغلى ما يملك، وهو ولده وفلذة كبده إسماعيل، امتحن الله إبراهيم بكلمات، يقول ابن عباس رضي الله عنهما في رواية: (إنها ثلاثون خصلة، ابتلى الله بها إبراهيم فوفى بها جميعاً) ويعدد ابن عباس هذه الخصال من القرآن، عشر خصال في قوله سبحانه: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾«التوبة:١١٢» ، وعشر خصال أخرى في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾«المؤمنون:٩» ، وعشر خصال أخرى من سورة الأحزاب ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾«الأحزاب:٣٥» كأن ابن عباس رضي الله عنهما يريد أن يقول: إن إبراهيم جمع كل خصلة يجب أن يتحلى بها المؤمن، ولم تفته ولا خصلة واحدة

من تلك الخصال التي مدح الله بها المؤمنين، وأثنى بها على عباده المتقين، وفي روايات أخرى يقول ابن عباس: (إن تلك الكلمات هي خصال الفطرة التي وصى الله بها إبراهيم) من قص الشارب، وإعفاء اللحية، ومن السواك، ونتف الإبط، وحلق العانة، والختان، والاستنجاء، والمضمضة، إلى غير ذلك من تلك ، التي ورد فيها الحديث الشريف، أنها من خصال الفطرة، بل إن الله قد امتحنه بالختان بعد أن بلغ ثمانين سنة، فاختتن بقدوم، فما قصر إبراهيم ولا ونى، ولا كانت تأخذه في الله لومة لائم، وكلنا يذكر بالإعجاب ذلك الموقف العظيم الذي وقفه إبراهيم من ابنه و وحيده البكر، لما رأى في المنام أنه يؤمر بذبحه، فما تردد، ولا نهته عن ذلك شفقة الأب، ولا حنان الوالد، وإنما كان ينظر فقط إلى أمر الرب، وإلى وجوب طاعته، وعدم التردد في ذلك ولا لحظة، وقد باده ابنه بتلك الرؤية، ليرى ما عنده، ولو تلكأ الولد ما قصر الوالد، لو جبن الولد ما قصر الوالد ولا تراجع، ولكن أراد أن يظهر ما في بطن إسماعيل، وما يكنه إسماعيل من استسلام وانقياد لأمر الله، وصبر على حكمه، فقال له: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ فكان الجواب من الطفل اليافع الذي يستقبل حياته، الذي لا يزال له أمل كبير في حياة طويلة، لا يزال في ريعان الشباب، وفي سن الفتوة، ونحن نعلم أن الإنسان في هذه السن، يكون كثير التعلق بالحياة، وقوي الأمل فيها، ولكن الولد يجيب أباه، آمراً له أن يفعل ما أمر، هو الذي يوصي أبوه، ويأمر أباه، ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ لا تقصر في

أمر الله ﴿سَتَجِدُنِى افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ «الصافات:١٠٢» واستسلم إسماعيل، يجب على المؤمن دائماً أن تكون إن شاء الله، في كل ما ينوي، أو يضمر عمله مستقبلاً، يجب أن يقدم مشيئة الله، لأنه لا يدري إن كان قد شاء ذلك أو لم يشأ، فإسماعيل كان لا يملك أن يصبر إلا بمشيئة الله، وإلا برحمة الله، فهو الذي وفقه لكي يقوم ذلك المقام في الصبر، فقال: ستجدني صابراً، لا، ﴿ستجدنى﴾ ﴿إن شاء الله من الصابرين﴾ كما قال موسى عليه السلام للخضر حين قال له: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ «الكهف:٦٨» ، حين قال بنوا إسرائيل لما أمروا بذبح البقرة، وأخذوا يراجعون موسى في ماهية البقرة، وفي لون البقرة، فيجيبهم ويتعنتون بالسؤال، ويقولون له: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِىَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ «البقرة:٧٠» يقول صلوات الله وسلامه عليه: «والله لم يستثنوا»[1] أي لو لم يقولوا: إن شاء الله، «لما بينت لهم آخر الأدب» لكن الله بينها لهم، لأنهم علقوا الأمر على مشيئة الله تبارك وتعالى، فقام إبراهيم بتنفيذ الأمر فوراً، وأخذ سكينه وشحذها، وصرع الولد الصغير على جبينه، وأهوى بالسكين على رقبته، وتم امتحان إبراهيم، ونجح إبراهيم في هذا الامتحان، كما نجح في كل موقف كان ممتحن فيه، لم يرسب إبراهيم في امتحان

---

(١) لم أقف عليه.

أبداً، ما امتحنه الله في شيء أبداً وسقط في الامتحان أبداً، بل كان دائماً ناجحاً بتفوق وامتياز، كان أجر إبراهيم على هذا الوفاء، وعلى هذا الإخلاص، وعلى هذه المبادرة إلى امتثال أمر الله والوفاء بكلماته، أن نال منصب الإمامة في الدين، قال: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾«البقرة:١٢٤» والناس هنا، كل الناس، إبراهيم إمام الناس كلهم إلى يوم القيامة، إمام متبوع إلى يوم القيامة، فالناس هنا لا يراد بهم من آمن بإبراهيم في زمانه فقط، بل كان إبراهيم إماماً للإنسانية إلى يوم القيامة، فإن الملة التي أسسها، ودعوة التوحيد التي أقامها على سوقها، وأرسخ جذورها، ظلت نامية، ظلت حية باقية، إنما كانت تغفو أحياناً، كما ينام الشجر في فصل الشتاء، ولكنها لم تلبث أن عاودت قوتها، ولم تلبث أن لبست ثوبها الزاهي القشيب، لما جاء إمام التوحيد الأكمل، الذي جدد ملة أبيه إبراهيم أعظم التجديد، وفاق في الدعوة إليها، وفي الإخلاص إليها، وفي التفاني في نصرتها، كل ما بذل قبله من جهود في حقل التوحيد صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا يقول الله ﷻ في شأن إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾«الزخرف٢٨:٢٧» انظر ﴿كلمة باقية﴾ ظلت هذه الكلمة التي قالها إبراهيم لأبيه في قومه باقية في عقبه، باقية في نسله، وحملها الرسل والأنبياء من بني إسرائيل، ثم حملها ولده إسماعيل، وبقيت في نسل إسماعيل، ثم غفت في العرب، ونسيها العرب، بما أحدثوا من الشرك، وعبادة

الأوثان، حتى جاء نبينا ﷺ فجددها وأحياها وبعثها من جديد، وأنت لما توازن بين هذه الكلمة، وبين كلمة الإسلام، لا تجد فرقاً أبداً إلا في التعبير، إلا في العبارة يعني في الألفاظ، إنما المفهوم هو المفهوم، هو الذي يؤدى بتلك العبارة، يؤدى بهذه، هو يقول: ﴿إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ بقدر لا إله، ﴿إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى﴾ قدر إلا الله، فكلمة إبراهيم هي نفسها الكلمة التي يدخل بها في الإسلام، ولا يكون مسلماً إلا من نطق بها، لا إله إلا الله، فهي كلمة باقية في عقب إبراهيم إلى يوم القيامة إن شاء الله، قال: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وطبعاً الإمامة في الدين، هي أعلى منصب عند الله تبارك وتعالى، لا يختار لهذا المنصب إلا أبر خلقه، وأوفاهم، وأشدهم إخلاصاً، وطاعة، ومعرفة بالله تبارك وتعالى، فإبراهيم نال منصب الإمامة، ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وقدوة مطبوعاً، فإبراهيم طمع في أن يكون من ذريته أئمة، كما هو إمام، فقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ يعني اجعل من ذريتي أئمة، فكان الجواب ليس بالسلب، بل بالإيجاب، ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾ يعني أن من وفى من ذريتك واستقام على ملتك وأحياها، وأخلص لنا، فهو إمام، وأما من انحرف، واعوج، وأعرض، فإنه لا تناله الإمامة أبداً، فإن إمامة الله، وعهد الله لا ينال الظالمين، ولا يناله الظالمون، ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾ لأن بعض الناس ربما فهم من هذا الرد أو من هذا الجواب، أن الله لم يستجب لإبراهيم، لا، قد استجاب له، يعني كأنه قال له: نعم أجعل من ذريتك أئمة، إذا كانوا

مستحقين للإمامة، ولكن من لا يستحق منهم الإمامة فلا يكون إماماً أبداً، ولا كرامة، لا يمكن، فهو إجابة، يعني هو في استجابة الواقع لدعوة إبراهيم، أو لرغبة إبراهيم ببيان أن الذي أجعله إماماً، استجابة لرغبتك، هو من كان أهلاً للإمامة من ذريتك، ولكن لا ينال عهدي الظالمين، بعد ما نوهت هذه الآية بشأن الباني صلوات الله وسلامه عليه.

ربنا جل وعلا يقول جل شأنه في قصة إبراهيم في سورة الصافات: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾«الصافات:١١٣» بني إسرائيل كلهم الكفرة، منهم الذي كفروا بالأنبياء، وقتلوا الأنبياء، وكذبوا بالأنبياء، ولا يزالون يرتكبون أعظم الجرائم، الذي لعنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم، الذي كفروا بآيات الله، وقتلوا الأنبياء بغير حق، وقالوا قلوبنا غلف، وغدروا بعيسى ابن مريم، وبنبينا ﷺ، ومكروا ومكر الله، هؤلاء من نسل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، فليس من الضروري أن يكون أبناء إبراهيم أبناء بررة، أو آدم كان قبل إبراهيم، وكان نبياً، وكل الخلق من ذريته، وفيهم المؤمن، وفيهم الكافر، بل تسعمائة وتسعة وتسعون منهم في النار، وواحد من الألف في الجنة، وهم أبناء آدم، فالله يخرج من عقب الرجل الصالح من ليس بصالح، ونوح عليه السلام، لما غرق ولده بالطوفان، وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا

لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ «هود٤٦:٤٥» ونوح، وأبو البشر الثاني، الذي خامس أولو العزم، الذي مكث يدعو قومه إلى التوحيد ألف سنة إلا خمسين عاماً، ومع ذلك خرج من ذريته شخص فاسد، إبراهيم خليل الرحمن بن آزر، ذلك الرجل العاتي في الكفر، الذي هدد ولده بالقتل، والرجم، إن لم يرجع عن نصحه، وهو إنما ينصحه إشفاقاً عليه، ورغبة في خلاصه ونجاته من النار، قال له: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ «مريم:٤٦» فلا يظنن أحداً أبداً أن من الضروري أن تكون ذرية الصالحين صالحة، ولا أن يكون آباء الصالح صالحين، لا هذه يعني القضية ليست صحيحة، ولا سليمة أبداً، بل يخرج سبحانه المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، ولله في خلقه شئون، بعد هذا نوه الله بشأن البيت، فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ في الحقيقة إنه يجب علينا أننا نعرف يعني الآيات لماذا سيقت هذه الآيات في شأن إبراهيم، وفي شأن البيت التي بناه إبراهيم؟ هذا القرآن عجيب جداً، إذا تعرض لقضية، أو للدفاع عن قضية، فهو المحامي الذي لا يشق له غبار، يظل يذكر من حيثيات تلك القضية، ومن ألوان الدفاع، ومن أساليب الدفاع، ما يجعل تلك القضية أوضح من الشمس في رائعة النار، أنتم تعرفون أن النبي ﷺ هو وأصحابه لما هاجروا إلى المدينة، أمروا أن يتجهوا في صلاتهم جهة بيت المقدس، أن يصلوا إلى بيت المقدس، فصلوا إليه مدة قدرها العلماء بستة عشر

شهراً، أو سبعة عشر شهراً، ثم كان النبي ﷺ يتشوف أن تكون قبلته الكعبة لأنها بيت أبيه إبراهيم، فكان دائماً يتطلع إلى السماء، ويقلب نظره في السماء، راجياً أن ينزل عليه الوحي بذلك التحويل، هناك خصوم للإسلام يكيدون له، ويتربصون به الدوائر، ويتلمسون الثغرات للطعن في الإسلام، وأهم هؤلاء هم اليهود الذين كانوا في المدينة، وقد فرحوا عندما توجه المسلمون في صلاتهم إلى بيت المقدس، وطمعوا في أن يتبع النبي ﷺ دينهم بعدما صلى إلى قبلتهم، فكان هذه التحويل صدمة قاسية لهم، لأن هذه التبعية التي كانت للمسلمين، تبعية المسلمين لليهود في تلك القبلة زالت بذلك التحول، إذاً لم يكن لليهود أبداً على المسلمين سلطان، ولا عادوا يعيروهم بأنهم يصلوا لقبلتهم، أو بكذا، أو بكذا، فاليهود طبعاً قاموا يملئون الدنيا صراخاً، ويملئون الجو حول الإسلام عجيجاً، ماذا محمد؟ لا يثبت على حال، مرة يصلي إلى بيت المقدس، ومرة يتجه إلى الكعبة، إنه ليس ثابتاً في أمره، ليس على بينة من أمره، إلى غير ذلك، وطعنوا لأنهم لا يؤمنون بالنسخ، ولا يعرفونه، بل ينكرون النسخ، ولهذا كان حين جاءهم رسول بعد موسى بشيء فيه تعديل لبعض أحكام التوراة أو فيه تجديد، يقولوا: لا، هذا كذب، إن الله لا يرجع أبداً عن حُكم حَكم به، ولا أمْر أمَر به، فكان كلما جاءهم رسول بشيء مما يخالف ما عندهم قتلوه، أو كذبوه، لأنهم لا يؤمنون بالنسخ، فقد أقاموا القيامة على المسلمين في المدينة، وطعنوا في الإسلام، فتولى القرآن الدفاع عن القضية، القرآن هو الذي تولى

الدفاع في هذه القضية، انظروا إلى دفاع القرآن، تعرف القرآن بدأ دفاعه من أين؟ من أول قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾«البقرة١٠٧:١٠٦» وتستمر الآيات إلى هذه الآيات التي معنا، والتي نحن بصدد الكلام فيها، فيبين الله شأن الباني للبيت الحرام، ثم يبين شأن البناء، ليدل على أن هذه البناء هو أجدر، هو أحق بأن يكون قبلة لخير أمة أخرجت للناس، وأنه أعظم بناء، ومشيده والباني له هو أعظم موحد في الزمن القديم، وهو إبراهيم، وهكذا إنما كان القصد من التنويه بإبراهيم، وبالبناء الذي بناه ، إنما هو إقامة الحجة على اليهود، وعلى من شايع اليهود، ليبين لهم أن هذا البيت هو الجدير والحقيق بأن يكون هو القبلة، وأن يكون هو كعبة هذه الأمة التي تتجه إليها في صلاتها لا بيت المقدس، لأن بيت المقدس وإن كان بيتاً مباركاً وبارك الله حوله، وكان مهبط الوحي على أنبياء بني إسرائيل، لكنه إذا قيس بالبيت الحرام، فإنه لا يساوي ولا عشر معشار البيت الحرام، هذا بنيه إبراهيم، وهذا بنيه إسحاق بن إبراهيم، فأين إسحاق بن إبراهيم؟ لا شك بينهما فرق عظيم، ثم هذا البيت الحرام كان أول بيت وضع للناس، ولم يكن هناك متعبد لله في الأرض قبل هذا البيت الحرام، فهذا كلها حجج وحيثيات يقدمها القرآن بياناً، بأن هذا البيت هو أولى وأحق بالتقدير من غيره، حتى ولو كان بيت المقدس، وبعدين تستمر

الآيات أيضاً، إلى أن يقول الله ﷻ لهؤلاء الطاعنين في الإسلام من أجل ذلك التحويل: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ «البقرة١٤٤:١٤٣» هكذا تستمر الآيات في بيان شأن هذا البيت، وأن هذا التحويل، تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، إنما كان بأمر الله ﷻ، وإنما كان لأن الكعبة خير القبل، وأنه لا مكان أعظم منها لكي يتجه إليه المسلمون، الذين هم خير الأمم، وأفضلها، فلا بد أن تكون قبلتهم أفضل القبل، كما أن رسولهم أفضل الرسل، وكتابهم أفضل الكتب، وهم خير الأمم وأفضلها، فلا بد أن تكون قبلتهم كذلك، ولهذا يقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ كما جعلنا قبلتكم خير القبل، وأعظم القبل، جعلناكم أمة وسطاً، أي أمة خيرة مزكاة بالعلم والعمل، والوسط هنا ليس معناه الوسط الحقيقي، يعني الشيء المتوسط بين شيئين لا، الوسط هنا

الخيار، يعني أمة أعلى الأمم وخيرها، وأزكاها، وأطهرها، فيقول الله تبارك وتعالى: منوهاً لشأن البيت: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ هذه بعض خصائص البيت ، البيت له خصائص كثيرة، والله ﷻ يذكر، أو يذكرنا ببعض خصائص البيت، فأول هذه الخصائص، أنه مثابة للناس، وقد عرفتم المثابة من كلمة الأخ الأستاذ عبد الفتاح، المثابة مأخوذة من الثوب يقال: ثاب يثوب، يعني رجع، فمثابة أي مكان التوب، أي مكان الرجوع، ما معنى كون البيت مثابة للناس؟ معناه أن من زار هذا البيت حاجاً، أو معتمراً، ثم رجع عنه إلى وطنه، فإنه يعاوده الحنين إليه، ويشتاق أن يرجع إلى هذا البيت، بل كلما كثرت زيارته، له كلما اشتد به الشوق والحنين، ولا يقضي منه وطراً أبداً، لا يمكن أبداً أن يشبع موحد من هذا البيت، بل يعاوده دائماً الشوق والحنين إلى بيت الله ﷻ، فهو مثابة لمن ذهب إليه بالفعل، ومثابة لمن ذهب أول مرة، هو مثابة لكل الناس، لكل من وحد الله ودخل في دينه، هو مثابة لأهل التوحيد جميعاً، من زاره قبل، أو من ابتدأ زيارته، فالذي زاره يشتاقه، والذي لم يذهب إليه ولا مرة يشتاقه، فالكل مشتاق إليه، كل مسلم وكل موحد يحن إلى زيارة البيت العتيق، لا يقضون منه وطراً أبداً.

في الحقيقة أن دعوة إبراهيم استجيبت أعظم استجابة، وأيضاً هذا دليل على إخلاص الخليل، وأن كل دعوة دعاها لهذا البيت، أو لأهل هذا البيت، قد استجيبت أعظم الاستجابة، ولا تزال هذه الدعوة مستجابة إلى الآن، يعني دعا

لأهل مكة بأن يجعلها الله بلداً آمناً، فهي بلد آمن، لا يعتدى على أهلها أبداً، بل كان العرب في الجاهلية يغير بعضهم على بعض سلباً ونهباً، تغير القبائل بعضها على بعض، يسلبون وينهبون، و يسبون الذراري، والنساء، ويأخذون الأموال، ولم يفكروا أبداً في أن يغيروا على قريش التي تسكن الحرم، فكانوا يخشون من هذا أعظم الخشية، كانوا يخشون أن يرتكبوا في الحرم شيئاً من هذه الجرائم التي يرتكبونها خارج الحرم، ولهذا امتن الله على قريش بهذا، يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ «العنكبوت:٦٧»، وقال: ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ «قريش٤:٣» ، ما يخافوا كما يخاف الناس، بل كانوا في أمنة، كانوا في أمن من الغارات، وفي أمن من العدوان، لهذا البيت الحرام، فهذه خصوصية لهذا البيت، استجابة لدعوة إبراهيم، ﴿اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ وبعدين قال: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ ما انقطع الثمار عن هذا البيت أبداً، بل تجبى إليه ثمرات كل شيء، كما قال القرآن، فلا يمكن أبداً أن يعوذك في هذا المكان شيء لا تجده، بل كل ما تهفي إليه نفسك، كل ما تشتهيه من ثمار، وفواكه، كلها موجودة عندهم، بكثرة ووفرة، ما تنتهي، كما قال الأخ الأستاذ عبد الفتاح، المخابز عمرها ما اشتكت من كثرة بطون الصائمين، ولا المياه على رغم قسوة البيئة، ورغم فقرها في الماء، ما اشتكت مكة أبداً من نقص الماء،

وهناك الحجيج الآن مئات ألوف، يكادون يبلغون المليون، وكلهم يشربون، ويتوضئون، لو أن زمزم وحدها لم يكن إلا زمزم لكفت الحجيج، ولا يمكن أبداً أن تغير ماؤها أبداً، يحكي لي إخوانا الذين هناك، يقولون: قد جاء سيل، وهذا السيل جرف، كان سيل شديد، جرف فيه الشوارع، وقش الشوارع، ودخل على الحرم، وملأ زمزم وردمها هذا السيل، وأصبح هذا الماء عكر لا يشرب، وبعدين كيف نصنع فيه؟ يقولون: زمزم كانت في هذا الوقت تفور، العين من تحت تفور كأنها تريد أن تغسل نفسها، والله يا أخوانا، كأنها تريد أن تزيل هذا الغثاء عنها، وتريد أن تبعده وتنحيه عنها، وبعدين ركبوا نفورة بخرطوم واسع كبير على زمزم لكي ينزحوا هذا، فما نقص ماء زمزم، بدأ الموتور يخرج ماء كثير جداً، وهي تعطيه ما يشاء من ماء، لا تغيب أبداً، فما تنزح قعرها أبداً، ما ينزح قعر زمزم، بل تأخذ، وبعد الذي تأخذه يأتي غيره في الحال، مهما بلغت كميات المياه التي تؤخذ من زمزم، تعوض في الحال بدلها، فلو تركت زمزم لوحدها على الحجاج لكفتهم، ولكن الله من على أهل مكة بعيون وآبار أخرى، وكلنا يذكر للسيدة زبيدة امرأة هارون الرشيد، ذلك الأثر العظيم الذي فعلته في مكة، وهي تلك العين التي نسميها الآن عين زبيدة، هذه العين التي لا يدري أحد من أين جرت، وماءها من أعذب مياه الدنيا، وتتحمل تلك السيدة التقية نفقات بناء تلك العين، من المكان التي تنبع منه إلى مكة، بناء وليس عندهم مواسير لكي تركب مواسير العين، لكن بناء وتتحمل نفقات

هذا البناء، وهي نفقات ضخمة جداً، لأن هذه عشرات الكيلومترات، بناء، وبناء محكم، وبناء واسع، يعني تستطيع أن تدخل في هذا البناء وتجلس فيه، فتبني هذا البناء، وتمشي العين، وكانت من نعم الله على بلدنا الحرام، والمياه الآن في كل بيت بالحنفيات ، والتي يعني كأن مكة هناك بلد من البلاد التي تجري فيها الأنهار والله، ما أحسسنا أبداً بنقص في المياه أبداً، بل المياه كثيرة، والخير كثير وكل ما فيها كثير، ولا أنسى في أيام الموسم، وكان الموسم شديد الزحام، وتمر على الباعة، وتجد والله يعني الثمار بين أيديهم معطبة، لا تجد من يأخذها، لم تجد من يشتريها، والله، فالحمد لله الذي رزقهم من هذه الثمرات وبارك لهم، باستجابة دعوة إبراهيم، بارك لهم بركة شديدة، فمهما قل فهو كثير، والله أحياناً يوضع الطعام فنعتقد أنه قليل، يخيل إليهم إن هذا الطعام قليل، ثم يجلس يأكل ولا ينتهي، ما هذا السر الذي في الطعام؟ فهي بركة هذا البيت، وبركة هذا البلد، ودعوة الخليل إبراهيم التي استجابها الله، ولهذا دعا النبي ﷺ لأهل المدينة، قال: «اللهم إنك استجبت دعوة إبراهيم لأهل مكة، فاجعل لنا من البركة ضعف ما جعلت في مكة»[1]، فيقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ جعل البيت مثابة لهم، ليس منه الدهر يقضين الوتر، لا يقضى منه الوتر أبداً، أبداً ولما تذهب إلى هناك، وتجد الناس حول البيت، الخضوع، والخشوع، والذل، والبكاء، من العبودية الخالصة لله تبارك وتعالى،

---

(١) لم أقف عليه.

تشهد أروع مشهد له، يعني مشهد يوفي إلى القلب بمنتهى الرهبة، بمنتهى الإذلال، نفس لا تكل أبداً أن تغض نظرك عن البيت، بل تحب دائماً أن، حتى وأنت في الصلاة، ولازم ننظر إلى البيت، مع أن السنة يعني أن تطأطئ الرأس، وتنظر إلى موضع سجودك، لكن والله [يأبى الإنسان] هناك إلا أن يظل ناظراً إلى للبيت، وباب البيت، ومقام إبراهيم الذي أمام الباب، فوقها كذا، ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ الأمن طبعاً متوفر ولله الحمد.

في الواقع أن هذا الجعل جعل الأمن هناك، هو جعل شرعي، لا قدري، لأننا لا ننسى أن هناك أيام فزع فيها أهل ذلك الحرم، واعتدي عليهم، لكن ذلك كان على خلاف ما أمر الله، إن الله أمر أن يكون هذا البيت أمناً، وهذا البلد آمناً، ولهذا لما فرغ النبي ﷺ من فتح مكة قال: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وإن مكة حرمها الله منذ خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنها إنما أحلت لي ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فلا يحل لأحد أن يسفك فيها دماً، أو يعضد فيها شجراً»[1] إلى آخر الحديث فهذه والله ينبغي بالنسبة لهذه البقعة المباركة أن تظل أمناً وأماناً لأهلها ولكل من زارها، ألا يعتد فيها على أحد، ولا يظلم أحد أحداً، يا أخي أنت يعني لما ملك من الملوك، أو رئيس من الرؤساء يتخذ بيتاً، ثم يجعل لنفسه حمىً حول هذا البيت، وبعدين يذهب اثنين من الرعية يتشاجران في هذا

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، البخاري (١١٢)، مسلم (١٣٥٥).

الحمى، ويعلم الملك أو يراهم فيغضب الملك إذا تشاجر الناس في حماه الذي حول قصره، حول داره، حول سلطانه، لا شك غضبه شديد، إذا كان هذا بيته وهذا حرمه، فكيف يجوز الاعتداء في حرم الله، وعند بيته، طبعاً لا بد من تعظيم حرمة هذا البيت، بل تعظيم حرمة الحرم كله، فلا يجوز أبداً أن يعتدي أحد على أحد، بعض المصريين يقول لك: إن ديار الوحوش هناك في الحرم تخالف الصيد من الطيور وغيرها فلا تعتدي عليها في الحرم أبداً، ليس فيه وحش داخل الحرم يعتدي على الصيد أبداً أو يأكله، لا يأكله إلا إذا خرج من حدود الحرم، فهو أمن لكل من عاش فيه، حتى الحيوان، فقد حرم الله صيد الحرم، فلا ينفر صيد أبداً، فهي حرم آمن لأهله، آمن لكل من زاره، بل قال بعض الأئمة: إن كل من قتل ثم التجأ إلى الحرم، يعني وجب القصاص عليه، ثم التجأ في الحرم، فإنه لا يقتل في الحرم.

وجاءت سكرة الموت بالحق

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، أما بعد:

فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾«ق:٢٢» بعد ما عرض الله سبحانه وتعالى في أول السورة شبهة المنكرين للبعث والمعاد، وحشر الأجساد لقوله سبحانه وتعالى:﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾«ق:٣» وبعدما رد الله عليهم تلك الشبهة الداحضة، وبين أن علمه لا يغيب عنه شيء، وأنه سبحانه يعلم ما أكلت الأرض من أجسادهم، وما تحلل وغاب من أبدانهم، وأن ذلك عنده في كتاب محفوظ، لا يعتريه تغيير ولا تبديل، ولا يفوته شيء مما قدره الله ﷻ، وبعدما بين الله سبحانه وتعالى من الدلائل والبراهين التي دلت على عظيم قدرته، وبالغ حكمته، وشامل مشيئته، وأنه هو سبحانه وتعالى بقدرته التامة التي لا يعجزها شيء، هو الذي بنا السماء، وزينها بالنجوم، وهو الذي مد الأرض، وثبتها بالجبال، وأنبت فيها من كل زوج بهيج، وأنه هو الذي ينزل من

السماء ماء مباركاً، فينبت به جنات، وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد، وأن جميع ما في الكون علويه، وسفليه، إنما هو آية من آياته، وأثر من آثار قدرته، فمن كان خالقاً لهذا الكون العظيم، وهذه المخلوقات الضخمة، لا يعجزه أن يعيد الإنسان، بأن ينشئه خلقاً جديداً كما بدأه أول مرة، وبعدما بين الله ﷻ لهم عاقبة المكذبين الذين كذبوا الرسل، فيما جاءتهم به من الحق، وأنكروا المعاد واليوم الآخر، فأبقى عليهم وعيد الله ﷻ، ونزل بهم العذاب في الدنيا ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾«ق:١٤» بعد هذا كله ذكرنا الله سبحانه وتعالى بخلقه للإنسان، فالإنسان هو ذلك العالم الأصغر الذي انتهى به كل العالم الأكبر، وكان هو موضع الحكمة، وكان هو موضع الامتحان الإلهي، وكان خلقه أول مرة من نطفة، تشبه البطة، ثم طورها الله سبحانه وتعالى في أطواره المختلفة، من نطفة، إلى علقة، ومن علقة، إلى مضغة، ثم سوى من هذه المضغة العظام، ثم كسا العظام اللحم، والبصر، ثم أودع فيه كل هذه الأجهزة التي تتعاون كلها في حياة الإنسان، وفي حفظ الإنسان، لا شك أن من قدر على خلق الإنسان من ماء مهين، فهو أقدر على أن يعيده خلقاً جديداً كما بدأه أول مرة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ الإنسان اسم لبني آدم، والمراد به كل إنسان، فالله تبارك وتعالى هو الذي خلق الإنسان الأول، آدم عليه السلام، حيث جمعه

من تراب الأرض، وعجن طينته وسواها، ثم نفخ فيه من روحه، فجعلها حياً ، حساساً، مدركاً، ثم أكرمه فعلمه أسماء كل شيء، ثم هو سبحانه هو الذي بث من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساء، فهو سبحانه وتعالى خالق الإنسان، وكل ما تناسل من هذا الإنسان إلى يوم القيامة، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ خلقنا الإنسان، ونعلم كل ما يجري في خاطره، وأنه يعلم سره، وما انطوت عليه سريرته، لأنه لا يحدث نفسه بشيء إلا والله ﷻ يعلمه، فيستوي في علمه السر والعلانية،﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾«الأنبياء:١١٠» ، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما تكنه الصدور، ولا يخفى على الله من غائبة في الأرض ولا في السماء، وكل ما دار في خلد الإنسان، وجرى به خاطره، فالله ﷻ يعلمه، لا يمكن أن يغيب، ولا يشذ عن علمه شيء أبداً، فالله تبارك وتعالى يحذرنا أن تنطوي سريرتنا على شيء يبغضه، وهو يعلم سرائرنا، وما تخفي صدورنا، فينبغي ألا نقضيها إلا على كل ما يحبه، وعلى كل ما يرضاه منا، حتى لا يطلع من نفوسنا على شيء يكرهه، ولقد كان الله ﷻ بنا رءوفاً رحيماً، حين تجاوز لنا عما تحدثنا به نفوسنا، وإنه لما نزل قوله تعالى:﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾«البقرة:٢٨٤» شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وجاءوا وجثوا على ركبهم، وقالوا: يا رسول الله كلفنا بالصلاة، والصيام، والحج، والجهاد، فقمنا بما كلفنا به، ولكن نزلت عليك آية لا نطيقها،

فمن منا لا تحدثه نفسه، ومن منا يملك أن يدفع حديث النفس، فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه: «أتريدون أن تقولوا كما قالت بنو إسرائيل: سمعنا وعصينا، بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»[١] فقالوها، فسمعها الله تبارك، وعفا عنهم، وأنزل الآية التي بعدها فنسختها، ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾«البقرة:٢٨٦» فلقد ورد أن الله ﷻ كان يقول في كل مرة: «قد فعلت» يعني قد فعلت ذلك بكم، وصح عنه ﷺ أنه قال: «أوتيت خواتيم سورة البقرة، من كنز تحت العرش، لم يعطهن أحد قبلي»[٢] وفي حديث عن ابي مسعود، «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[٣]، وقال صلوات الله وسلامه عليه: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها، ما لم تتكلم أو تعمل به»[٤] فهذا من كرم الله ﷻ وفضله، ومن تيسيره على هذه

---

(١) صحيح مسلم (١٢٥).

(٢) رواه مسلم بلفظ: (أعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئا، المقحمات)، انظر صحيح مسلم (١٧٣).

(٣) متفق عليه من حديث أبي مسعود البدري، البخاري (٤٠٠٨)، مسلم (٨٠٧)

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢٥٢٨)، مسلم (١٢٧).

الأمة، أنه لم يؤاخذها بما أخفت الصدور، ولا بما تحدثت به النفوس، بل تجاوز لها عن ذلك يعني عن الوسوسة وعما يلقيه الشيطان، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ والوسوسة هي الحديث الخفيف، يعني ما تحدثه به نفسك من حديث غير مسموع، فلا يسمعه أحد، ولكن الله ﷻ يعلمه، ثم أخبر سبحانه وتعالى عن عظيم قربه من عباده، وأنه أقرب إليهم من حبل الوريد، وحبل الوريد هو ذلك الحبل الذي في العنق، الذي لو قطع مات صاحبه، فالله ﷻ يخبر عن نفسه بأنه أقرب إلى عباده من هذه العروق، والشرايين التي بثها في أبدانهم، وأنه سبحانه وتعالى أقرب إليهم حتى من أنفسهم، وهو أعلم بكل أحد من نفسه، وقربه سبحانه وتعالى مما ليس قرب ذاتٍ، فهو سبحانه وتعالى فوق عرشه، على ما يليق بذاته ﷻ، وإنما قربه مما قرب علم، وقرب رؤية، وسمع، فلا يخفى عليه ما نتلفظ به، ولا ما نقوله، ولا تخفى عليه حركاتنا، ولا أحوالنا، فهو أعلم ذلك كله أكثر مما نعلم من أنفسنا، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، ولعل المراد أن الله ﷻ أقرب إلينا بملائكته الذين وكلهم بنا، والذين هم ملازمون لنا، ليكتبوا عنا أعمالنا ويحصوا علينا أقوالنا كما قال ﷻ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ فقوله سبحانه: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ بعد قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يفيد أن الله ﷻ يريد أنه أقرب إلينا بملائكته الموكلين بنا،

كما في قوله عز ما قائل: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾«الانفطار١٢:١١» ، ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾﴿يتلقى﴾ يعني يعطي كلما يخرج من العبد من أقوال، فهو يتلقاها، كما يتلقى الإنسان الشيء الذي يرمى إليه، فما من لفظة يذكرها العبد إلا ويتلقاها الملك، وما من حركة تحدث منه في خير ولا في شر إلا ويحصيها عليه، وهنا، ﴿متلقيان﴾ يعني أنهما ملكان يتلقيان الأعمال، والأقوال: ملك عن اليمين موكل بكتابة الحسنات، وملك عن شمال موكل بكتابة السيئات،﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ يعني أن كلاً منهم قاعد متربص للعبد، ينتظر ما يخرج منه فيكتبه عليه بأمر الله تبارك وتعالى، فلا يمكن أن يفوتهم شيء مما يقوله العبد، أو مما يفعله، لأنهم لا يتخلون عنه أبداً، إلا في مناسبات خاصة، كعند دخول الخلاء، أو عند إيقاع النساء، ولكنهم مع ذلك لا يفوتهم شيء مما يصدر عنا، من أقوالنا، ومن أفعالنا، كما قال سبحانه: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾«ق:١٨» إلا عنده ملك حاضر رقيب مطلع على أعماله، سامع لأقواله،﴿ عتيد﴾ أي حاضر لا يغيب عنه أبداً، وكتابة الأعمال بواسطة الملائكة، إنما هي شأن من شئون الغيب، ليس لنا أن نبحث عن كيفية ذلك، فليس لأحد أن يقول: ما لنا لا نرى هذين الملكين، وما لنا لا نحس كتابة، ولا نرى قلماً، ولا قرطاساً، فإن ذلك من الغيب المحجب عنا، ولو كشف عنا الحجاب لرأينا ذلك عياناً، ولكن الله حجب عنا ذلك لأننا في دار البلاء والامتحان، وقد حجب عنا هذه رؤية

الأمور الغيبية، حتى يكون الإيمان إيماناً بالغيب، وإيماناً بالشهادة، ولكننا نؤمن بما قال الله ﷻ بأن علينا حفظة، يتعاقبون علينا بالليل والنهار، وأنهم يصعدون إلى الله ﷻ بأعمالنا كل يوم، وأنهم كما في الحديث الصحيح: «يجتمعون في صلاة الفجر، وفي صلاة العصر، لأن الذين باتوا فيما يعرجون إلى ربهم بعد صلاة الفجر، فيسألهم ربهم وهو أعلم كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون»[1] كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾«الإسراء:٧٨» يعني تشهده الملائكة، والله تبارك وتعالى أخبر في مواضع كثيرة من القرآن الكريم عن كتابة الأعمال، عن أمره للملائكة بكتابة أعمالنا، ونسخها فيما لديهم من صحف، كما قال ﷻ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾«الزخرف:٨٠» ، وقال تعالى في سورة الجاثية: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾«الجاثية:٢٩» ، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾«يس:١٢» فهذه الآيات كلها ناطقة بأن الله ﷻ يكتب أعمال العباد، بواسطة هؤلاء الكرام الكاتبين، الذين أخبر الله عنهم، أنهم يعلمون ما تفعلون، فلا يغيب عنهم شيء مما يفعل العبد الذي وكلوا بحفظه

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، البخاري (٥٥٥)، مسلم (٦٣٢).

وبكتابة عمله، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ هذه الآية صريحة بأن الملائكة يكتبون كل ما يصدر من العبد من قول، لأنهم يحصون عليه أقواله كلها، لأن الآية هنا جاءت بصيغة العموم، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ يعني أن أي لفظ يتلفظ به العبد يكتبه الملك، إما له، وإما عليه، فإن كان قولاً في خير فهو له، ومكتوب في حسناته، وإن كان قول شر أو سوء فهو عليه، ومكتوب في سيئاته، ثم بعدما أخبر الله ﷻ عن عنايته بالإنسان في هذه الدنيا، وأنه وكل به ملائكة يلازمونه، ويحصون عليه أحواله وأقواله، أخبر عن تلك اللحظة الحاسمة التي يوشك أن يفارق فيها الإنسان هذه الدنيا، دار الامتحان والابتلاء، هذه الدنيا التي لم يترك فيها سدىً، ولم يترك فيها هملاً، بل أعطي عليه كل ما صدر عنه في حياته الدنيا، وفي عمره طال أم قصر، فلم يغب عن هؤلاء الكاتبين شيء مما قاله، أو فعله، بل أحصوه عليه كله، فلما أذن الله ﷻ بانقضاء أجله، وطويت صحائف عمله، ورفعت إلى الله ﷻ، وأصبح في حشرجة الموت، وبلغت روحه الحلقوم، وذهل عما حوله، وغشيته غمرة الموت، ونزلت به سكراته، وأن ذلك هو الحق، الذي لا نحيد عنه، فكل أحد سيذوق تلك السكرات، وكل إنسان ستنزل به هذه الغمرات، وكل إنسان سيعالج هذه الكربات، لا يمكن أن يتخلى ولا أن ينجو أحد منها أبداً، بل هي لحظة لابد أن يسقى كأسها كل أحد، من بني آدم، بل من كل روح على هذه الأرض﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ وهذه

هي القيامة الصغرى، لكل أحد منا حين تفارق روحه جسده، وحين تعرج بها الملائكة إلى الله ﷻ، وإن كانت روحاً مؤمنة، بشرت بروح، وريحان، ورب غير غضبان، وفتحت لها أبواب السماء، وصعدت بها ملائكة الرحمة، يشيعها من كل سماء مقربوها، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الرب جل شأنه، فإذا مثلت بين يديه، قال الله ﷻ لملائكته: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى قبره ليسأل، فتعود روحه إلى جسده، ويأتيه ملكان فيقعدانه، ثم يسألانه، فيثبته الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فيقال له: نم صالحاً، لقد علمنا إن كنت لموقن، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيأتيه من روحها وريحانها إلى يوم أن يبعث الله جسده، فأما الكافر فتخرج روحه من جسده كأنتن شيء ريحاً، ويقال لها: اخرجي، اخرجي أيتها الروح الخبيثة من الجسد الخبيث، اخرجي إلى رب غضبان عليك، فتخرج الروح وتصعد بهما ملائكة العذاب، فتغلق دونها باب السماء، ويقال للملائكة: اكتبوا كتاب عبدي في سجين، ثم أعيدوه إلى قبره ليسأل، فيقعدانه في قبره تلجلج واضطرب، وقال: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته، فتنهره الملائكة ويقولون له: لا دريت ولا تليت، وقيل: إنه يضرب بمرزبة، ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنس، ولو سمعها الإنس لصعقوا، ثم يخرج له وساد من جهنم، ويضيق عليه قبره، ويفتح له باب من النار فيأتيه من حرها وسمومها إلى أن يبعث الله جسده يوم القيامة.

﴿وَجَاءَتْ﴾ نزلت ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ غمرات الموت كما قال تعالى في وصف الكفار: ﴿تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ «الأنفال٥١:٥٠» ولكن المؤمنين في هذه اللحظة يرون من رضوان الله ﷻ، ومن بشارات الملائكة، ما يحببهم إلى لقاء الله سبحانه، حين تأتيهم الملائكة وهم في سكرات الموت فيبشرونهم برضوان الله وبرحمته، حينئذ يهون عليهم سكرات الموت، ويحبون لقاء الله فيحب الله ﷻ لقاءهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ﴾ يعني عند الموت ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ «فصلت٣٢:٣١» ، فليصبر المؤمن على ما يجد في هذه الدنيا من بلاء وشدة، فإن عمر ذلك لا يطول، وستنجلي عنه كل شدة، وسيزول كل بلاء عندما يلقى الله ﷻ، وإنما هي امتحانات يمتحن الله ﷻ بها المؤمن في هذه الدنيا، حتى إذا لقي الله ﷻ ذهب عنه كل ما وجد من بلاء وشدة، ولقي عند الله كل ما يسر قلبه، ويطيب نفسه، ويرى ما أعده الله ﷻ له من منازل كريمة، ومن حياة كلها روح وريحان، فيستبشر بما أعطاه الله ﷻ من الرحمة، والرضوان، وبعفوه، وتجاوزه عن سيئاته، فالمؤمن لا يجد شدة بعد هذه الدنيا، وإنما الشدة كلها والكرب كله إنما هو في هذه الدار، دار البلاء

والامتحان، وأما إذا لقي الله تبارك وتعالى فسيرى كل ما يحب، وكل ما يشتهي وسيبشر في قبره، وسيبشر عند خروج روحه، وسيبشر عند قيامه من قبره، وسيبشر في الموقف، وسيأخذ كتابه بيمينه، وسوف يحاسب يسيراً، وينقلب إلى أهله مسروراً، إلى أن يدخل الجنة التي أعدها الله ﷻ للمؤمنين الصالحين،﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ لا حيدة ولا مهرباً، ولا ملجأ من الموت، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾«النساء:٧٨» ، ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾«الأحزاب:١٦» ما استطاع من السابقين أن يهرب من لحظته الموعودة حين جاءه، لم يستطع أحد أن يفلت، ولا أن ينجو من تلك اللحظة مهما كان له من الجنود والأعوان، بل يتخلى عنه حينئذٍ جنوده وأعوانه، فلا يستطيعون أن يقدموا إليه معونة، ولا أن ينفعوه في هذا الوقت، ولا أن يفرجوا عنه ذلك الكرب، كما قال تعالى:﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾«الواقعة:٨٧» هل تستطيعون أن تردوا روحه إلى جسده، إن كنتم صادقين في أنكم غير مدينين، ولا مجزيين بأعمالكم؟ كلا، لم يستطيعوا ذلك أبداً، كم فقدنا من أحبة أعزاء علينا، فهل استطعنا أن ننجيهم من الموت؟ كلا لا يمكن ذلك أبداً، فأنت تكون قريباً من حبيبك، الذي تود لو فديته بنفسك، فلا تملك له فداءً، ولا

تملك له نصراً، ولا تستطيع أن تنفعه بشيء، بل تأتي الأطباء حول المريض، يبذلون جهدهم في أن يؤخروا حياته لحظة، فلا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً، إذا حان حينه، وانقضى أجله، بل يكون عقدة الطبيب إصابة الأقدار، ولا يستطيع الطبيب أن يقدم لمريضه شيئاً، إذا نزل به أجل الله ﷻ الذي لا يتأخر عن موعده لحظة، ولا يتقدم لحظة أبداً، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾«الأعراف:٣٤»، ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾«ق:١٩» مشهد من أروع المشاهد التي يصورها لنا القرآن الكريم، يصورها بهذا الأسلوب الذي يخلع القلوب، ﴿وجاءت﴾ نزلت ورفعت، حيث لا مرد لها ولا دافع، ﴿سكرة الموت﴾ذهوله، وغمراته، وغشيته التي تلهي الإنسان عن كل شيء ، ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ ما كنت منه تهرب، ولا تجد لك منه ملجأً ولا وزراً، ثم بعد ذلك تذهب إلى قبرك فتقيم فيه حياتك البرزخية، تقيم فيه مدة يعلم الله ﷻ مداها، حتى يأذن الله ﷻ برد الأرواح إلى أجسادها، حين تقوم الساعة، وحين يأذن الله لإسرافيل بأن ينفخ في الصور النفخة الأولى، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ثم يترك الله الناس في أجسادهم مدة يعلمها سبحانه وتعالى، فإذا أراد الله أن يبعث الناس، وأن يخرجهم من القبور من بعد والمعاد، أمر السماء فأمطرت أربعين ليلة، مطراً غليظاً كمني الرجال، فتنبت الأجسام في قبورها من هذا المطر، كما ينبت الزرع بماء السماء، وكل ابن آدم يبلى

إلا عجب الذنب، فإنه ينبت منه في النشأة الأخرى، حتى إذا جمع الله عظامه، وألف بينها، وأتم خلقته، وأتم تأليفه وتركيبه، أذن الله لإسرافيل أن ينفخ في الصورة النفخة الأخرى، فتطير كل روح إلى جسدها، لا يخفى عليها، ولا تخطئه، ولا تذهب إلى جسد سواه، فتلبث كل روح جسدها بإذن الله، ويقوم الناس من قبورهم ينفضون عنهم الغبار، ويتجلى للكفار يومئذ صدق الرسل، وأنهم جاءوا بالحق، فيندمون على تكذيبهم، وعنادهم، ويقولون متحسرين، ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ ثم يجيبون أنفسهم بأنفسهم، ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾«يس:٥٢» ، وقيل: إن الملائكة هي التي تجيبهم بذلك، وقيل: إن المؤمنين هم الذي يردون عليهم بذلك، ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ فيقوم الناس حفاة ويحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾«الأنبياء:١٠٤» ، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ ذلك يوم ينفخ في الصور، هو يوم الوعيد، اليوم الذي وعد الله به عباده، اليوم الذي توعد الله فيه الكفار أن يبعثهم، ثم يحشرهم إلى النار، اليوم الذي بشر الله فيه المؤمنين، الذين يعملون الصالحات، بأن لهم عندهم مقعد صدق، وجنة عدن، لا ييأسون فيها، ولا يخرجون منها، ولا يفنون، ولا يصيبهم فيها غم، ولا هم، ولا حزن، بل كلها راحة وخلود، وكلها نعيم ورضوان، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ والصور هو ذلك القرن الذي لا يعلم قدره إلا الله ﷻ، والذي وكل الله ﷻ إسرافيل بالنفخ فيه، وقد ذكر أن إسرافيل منذ أوتي

القرن، وهو شاخص ببصره إلى العرش ينتظر إذن الله له بالنفخ، فلا تطرف عينه، وأنه يخشى إذا طرفت عينه، أن يؤمر في تلك اللحظة فيكون قد تأخر في امتثال أمر الله ﷻ، بل هو شاخص ببصره دائماً إلى السماء، ينتظر أمر الله له، وقد روي أن النبي ﷺ قال لأصحابه لما قالوا له: يا رسول الله نراك دائماً مهموماً حزيناً فقال: «ما لي لا أغتم، وكيف أنعم، وصاحب القرن قد التقم القرن ينتظر متى يؤمر فينفخ»[1] فلا شك أنها لحظة عظيمة، تلك التي تتبدل فيها الأرض غير الأرض والسماوات، تلك اللحظة التي يتبدل فيها نظام الكون كله، هي التي يطوي فيها الله السماء بيمينه، ويقبض على الأرض باليد الأخرى، تلك اللحظة التي يحشر فيها الناس إلى ربهم، فيجدون ما قدموا حاضراً غير غائب، وكل ما عملوا حاضراً عند الله ﷻ، ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾، ﴿مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ جاءت كل نفس إلى الله ﷻ معها سائق يسوقها، ومعها شهيد يشهد عليها بما عملت، وهو الملك الذي كان موكلاً بها في الدنيا، وجاءت كل نفس إلى الله سبحانه وتعالى معها سائق يسوقها إلى حيث تمثل بين يدي الرب سبحانه وتعالى، حين ينزل لفصل القضاء بين عباده، وحين يحاسب كل أحد على ما قدم في الدنيا، من خير، ومن شر، وحين يناقش الكافر الحساب ويسدده عليه، حتى يقذفه في النار، ويفضحه، ويخزيه بين خلقه، وينادى عليه، وتنادي الأشهاد على

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٢٤٣١)، والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (١٥٨٠).

رؤوس الخلائق، هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ﴿أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾«الأعراف:٤٥» ، وحين يدني الله ﷻ المؤمن، فيضع عليه كنفه، ويستره، ويحاسبه فيما بينه وبينه، حتى لا يفضحه بين خلقه، ويقول له: ألم تفعل كذا يوم كذا؟ فيقول: بلى يا رب، ألم تفعل كذا يوم كذا؟ فيقول: بلى ربه، حتى إذا قرره بذنوبه وأيقن أنه هلك، قال له: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، هكذا يكون حساب المؤمن حساباً يسيراً، كما قال تعالى:﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾«الانشقاق:٩» ، وفي الحديث الصحيح يقول صلوات الله وسلامه عليه: «من نوقش الحساب عذب» فتقول عائشة رضي الله عنها: (يا رسول الله أوليس الله ﷻ يقول:﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، فقال لها: «يا عائشة إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب هلك»[1] فنعوذ بالله من مناقشة الحساب يوم القيامة، ﴿وجاءت كل نفس معها سايق﴾ يسوقها من ورائها إلى الله سبحانه وتعالى، ومعها شهيد يشهد عليها، ﴿لَقَدْ كُنْتَ﴾ أيها الإنسان ﴿فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ حين كنت في الدنيا ترتع في لهو، وتجري وراء شهوتك، ولا تذكر أن لك معاداً ينتظرك، وأن لك يوماً فتلاقيه، وأن لك ربا

---

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها، البخاري (١٠٣)، مسلم (٢٨٧٦).

سيحاسبك، وستعرض عليه، كنت في غفلة عن ذلك كله، قد حجبت عني الشهوات، وغرتك الآمال، والأطماع الكاذبة، واللهو الفارغ، ألم تذكر ذلك ونسيته، وجعلته وراء ظهرك؟ ولكن اليوم تنظر ببصر حديد، لا تفكر بعقل سليم، وقد رأيت وعاينت كل ما كنت غافلاً عنه في الدنيا، مما ذكرتك به الرسل، ومما أخبرتك به الكتب، وكنت تقرأ ولا [تعمل]، وكنت تسمع ولا تعي ولكنك اليوم تعي كل شيء، ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ من الحدة،وحدة البصر هي قوته، يعني بصرك اليوم قوي، حين زالت عنك الغفلة،وحين انكشف الغطاء، وحين انتبهت من نوم غفلتك، وركاد شهوتك، في هذا اليوم تبصر، ولا يغيب عن بصرك شيء، في هذا اليوم تتذكر وأنى لك الذكرى، في هذا اليوم تندم على ما فرطت في جنب الله، ولات حين مندم، فإن ندمك لا ينفعك، وكان لك فسحة في العمر، كنت تستطيع أن تتذكر، وأن تعي، وأن تعمل صالحاً، كما يقول الله ﷻ للكفار يوم القيامة، حين يتمنون الرجوع إلى هذه الدنيا، ويتذكروا ويعملوا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾«فاطر:٣٧» ذهب هوان الذكرى وهناك ودوا الحساب، كانت الذكرى تنفع، كان العمل ينفع، كان السعي يفيد في الدنيا، لأنها دار العمل، ودار السعي، ودار البلاء، أما هناك فحساب بلا عمل، فلا ينفع أحداً تمنيه أن يرجع ويعمل، فلم يعد هناك مجال لعمل، ولا لسعي،

بعدما أضاع فرصة عمره في لهوه، وفي غرته، وسلوا الله ألا يدعنا في غرة، وألا يأخذنا على غفلة، وألا يجعلنا من الغافلين، وألا ينسينا يوم معادنا، وألا ينسينا لقائه، وأن يكون ذلك دائماً نصب أعيننا، حتى يسعى إلى ما يخلصنا من شدائد هذا اليوم وأهواله، وينجينا من كرباته وفضائحه، ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أرأيت إلى المجرم يساق إلى ساحة العدل سوقاً، ثم أرأيت إذا وقف الشهود يشهدون عليه بما زنى، وبما أجرم، كذلك نحن عند الله ﷻ نساق، ثم يشهد علينا، كما يساق تماماً كل زانٍ يساق إلى حيث يجد جزاء جنايته، وتقوم الشهود عليه فهذا هو قوله تعالى:﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ثم يقول سبحانه وتعالى مبيناً أن ذلك الشاهد لا يشهد إلا على ما علم، وإلا على ما رأى، ولا يتزيد عليه شيئاً، ولا يكتب إلا ما قدم، إلا ما فعل، وإلا ما قال، وأنه شاهد أمين، لا يستطيع أبداً أن يتزيد على العبد شيئاً من فعل، ولا من قول، بل لا يكتب إلا ما صدر عنه تماماً، بلا زيادة، ولا نقصان، ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ ﴿وقال قرينه﴾ يعني قرينه من الملائكة الذي وكل بكتابة عمله من الدنيا، يقدم صحيفة أعماله إلى الله ﷻ ويقول:﴿هذا ما لدى عتيد﴾ أي حاضر ﴿هذا ما لدى عتيد﴾ فيقول الله ﷻ آمراً للملائكة الموكلين بعذاب الفجار:﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾«ق:٢٤» أي كل شديد الكفر، ﴿عنيد﴾ أي شديد العناد لآيات الله، والمخالفة لأمره،

والعصيان لرسله، ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ شحيح حريص، لا تمد يده بخير أبداً ولا يعطي أحداً شيئاً، بل هو آشر بطر، وتمنى أن يحوز الدنيا كلها في بطنه، وإذا سئل شيئاً رحمة بيتيم، أو مسكين، لا يرق له قلبه، بل يمنع عن عباد الله ﷻ ما لديه من الخير، وأنه حريص على أن يكون كل الخير له، وألا يكون خيره لغيره، ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ﴾ لا يكتفي بأنه منع الخير على الناس، بل يعتدي على الناس، ويأكل حقوق الناس، ويقتر على الناس، هو لم يكتف بأنه منع خيره، ولم يعط رفده، ولم يرحم أحداً من عباد الله، ولم يجد بشيء مما عنده على فقير، أو مسكين، ليرحم عوزه ويسد فاقته، ولكنه مع ذلك مع حرصه على المنع، مع منعه من الخير، هو معتدي على عباد الله ﷻ، ويظلمهم، ويجور عليهم، ويأكل أموالهم بالباطل، ويؤذيهم بكل أنواع الأذى، بالقول، وبالفعل، ﴿هماز﴾ عياب، معتدٍ أثيم، كثير الإثم، وكثير المعصية، ﴿معتدٍ مُريبٍ﴾ شديد الريبة، شاك مرتاب، ليس بمؤمن، ولا موقن، ﴿الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ يعبده ويؤلهه، هو يعبد الطاغوت من دون الله ﷻ، ويجعل مع الله آلهة أخرى، يدين لهم بالعبادة والتقديس، ويتقرب إليهم بأنواع القربات، ولا يوحد الله ﷻ، ولا يخلص له دعائه، ولا عبادته، ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ فألقياه في العذاب الذي بلغ من الشدة [مبلغاً عظيماً]، وأنه لم يغويه، ولم يضله، وإنما قال: هو الغاوي الضال، وأنه ما قهرته على ما فعل، ولا على ما جنى، وإنما هو الذي افتعل ذلك بنفسه، يطيعه باختياره، وبحبه للدنيا، وحرصه على متاعها الفاني،

هو الذي فعل بنفسه ما فعل، ﴿قال قرينه﴾ أي من الجن، وهو الشيطان الموكل بإغوائه وإضلاله، ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ لست أنا الذي أطغيته، ولست أنا الذي جبرته، على أن يفعل هذه الأفعال الشنيعة، من الكفر بالله، والتعدي لحدود الله، وظلم عباد الله، وإنما هو الذي طغى وتجبر، وهو الذي استجاب لطرقات الشيطان، وهو الذي استجاب لي، ولكني ما جبرته، ولا قهرته، ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ قال الحق سبحانه وتعالى:﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ﴾ لا تتنازعوا عندي، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ تقدمت إليكم، وأنذرتكم، ونبهتكم على لسان رسلي.

وقفات مع سورة البقرة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

أما بعد: الزهراوان، والزهراء، أي السورة الجميلة، الحسنة العظيمة، المشرقة، البينة، الواضحة، وقد ورد في حديث: «اقرءوا الزهراوين البقرة، وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما، اقرءوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة»[١]، وقد ورد الأمر بقراءتها في البيوت، قال صلوات الله وسلامه عليه: «اقرءوا في بيوتكم سورة البقرة، ولا تجعلوها قبوراً»[٢]، هذه السورة اشتملت فيما اشتملت على كثير من آيات التشريع والأحكام، بل لعل سورة من القرآن لم تشتمل على مثل ما اشتملت عليه سورة البقرة، وقد بين الله لنا أحكاماً كثيرة، فيها القصاص، وفيها الوصية، وفيها الصيام، وفيها الحج، وفيها القتال، والنفقة، وفيها الطلاق،

---

(١) رواه مسلم (٨٠٤).

(٢) رواه مسلم (٧٨٠).

والعدة، والخطبة، والرضاع، و الإيلاء، وغير ذلك مما يحتاج إليه المجتمع في تنظيم شئونه، ووضع العلاقات التي تربط أعضاء هذا المجتمع بعضهم ببعض، كما هو شأن السور المدنية جميعاً، وفي هذه السورة آيتان هما من أعظم آيات القرآن:

أولاهما: آية البر الجامعة لكل خصال الخير، وهي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ «البقرة:١٧٧» .

والآية الثانية: هي آية الكرسي، سيدة آي القرآن، وأعظم آية في كتاب الله ﷻ، لما تضمنته واشتملت عليه من أسماء الله ﷻ وصفاته العليا، ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ «البقرة:٢٥٥» .

وفي آخر هذه السورة آيتان، يقول فيهما صلوات الله وسلامه عليه: «من قرأهما في ليلة كفتاه»[1] يعني كفتاه عن كل ما يهمه، أو كفتاه عن قيام الليل كله، وأنهما من كنز تحت العرش، أعطيهما رسول الله ﷺ ولم يعطهما أحد قبله، هذه الآيات الأولى من سورة البقرة، تبين لنا حال أصناف ثلاثة من الناس، وتبين موقف كل صنف من هذه الأصناف الثلاثة من هداية القرآن، فإن المجتمع المدني كان بعد الهجرة، بعد أن هاجر رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين بمكة إلى المدينة، وانضموا إلى إخوانهم الأنصار، كان المجتمع المدني يضم هذه الفئات الثلاث من الناس:

الفئة الأولى: أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، ثم اليهود، الذين كان يساكنون المسلمين بالمدينة، ويعاندون في آيات الله، ويكايدون رسول الله ﷺ ومن معه، وفريق ثالث مذبذب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وهم المنافقون، فأنزل الله سبحانه وتعالى في شأن هذه الفرق الثلاث خمساً وعشرين آية من أول سورة البقرة، بين حال الفريق الأول الذي اهتدى بالكتاب، وانتفع بما في القرآن، من هدى وموعظة، واستجاب لكتاب الله ﷻ، واتبعه فأحسن الاتباع، يقول الله تبارك وتعالى: في شأن هذا الفريق، في حاله وأوصافه، وفيما ينتظره من جزاء على ما اتصف به من الأعمال والعقائد والأخلاق، ﴿الم ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾«البقرة:٢» هذا هو الفريق الأول الذي

---

(١) تقدم تخريجه.

نعته الله سبحانه وتعالى، بهذا النعت الكامل الجامع، فإن كلمة التقوى هي كلمة جامعة، لأن المتقي هو من جعل بينه وبين عذاب الله وسخطه وقاية تحميه، فآمن بالله الإيمان الصحيح، وآمن بما أنزل الله من كتاب، وبما بعث من رسول، وآمن بالغيب كله، وآمن باليوم الآخر، وما فيه، هؤلاء المتقون، الذين انتفعوا بهدى الكتاب، والذين تقدم الكتاب إيماناً لهم، وتبصيراً لقلوبهم، هؤلاء الذين سلمت فطرتهم، وصحت عقولهم، فأحسنوا التدبر للكتاب، وأحسنوا الفهم للكتاب، هؤلاء الذين جعل الكتاب هدىً لهم، والقرآن هدىً كله، ولا يكون القرآن إلا هدىً، ولكنه لا ينتفع بهدى القرآن، ولا يستجيب لهدى القرآن، إلا لمن صح عقله، واستقامت فطرته، واتجه إلى القرآن بقلبه كله، وبعقله كله، وتدبره فأحسن التدبر، فهذا هو الذي يهتدي بالقرآن، أما المعرض الغافل، فلا يكون القرآن في حقه هدى، ولا شفاءً، ولكنه يكون عليه عمىً، وفيه آذانه وقراً، كما قال الله ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾«الإسراء:٨٢» ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾«فصلت:٤٤» وكثيراً من نتساءل، كثيراً ما يسأل أحدنا نفسه، ويسأل بعضنا بعضاً، لماذا انتفع سلفنا بهدى القرآن؟ ولماذا صنع القرآن هذا الرعيل الأول، وكان رعيلاً فريداً في تاريخ البشرية كلها؟ ولماذا لن يهتدي الخلف بالقرآن، كما اهتدى أسلافهم؟ ولماذا لم ينتفعوا بالقرآن، كما انتفع آباؤهم،

وأجدادهم، والقرآن هو القرآن، قد حفظه الله من التغيير، والتبديل، ويسره للذكر؟ بل لعل فينا من هو أقرأ للقرآن من كثير من أصحاب رسول الله ﷺ، ومع ذلك يتلى القرآن ويذاع، بل جعلت للقرآن محطة إذاعة، وقراؤنا بحمد الله كثير، ومع ذلك لم يؤثر القرآن فينا الأثر المرجو، ولم ننتفع بهدى القرآن كما انتفع الأولون من آبائنا وأسلافنا، نعم، لأنهم استقبلوا القرآن، بما لم نستقبله، ولأنهم فهموا أن القرآن إنما هو دستور من السماء، وتشريع لم ينزل ليكون كتاب دراسة ومتاع، ولا ليكون كتاب جدلٍ، ونظريات فارغة، لا شأن لها في العمل، ولا تستعمل في التطبيق، فهموا القرآن دستوراً، واتخذوا على هذا النحو، فكانوا لا يغادرون الآية من القرآن حتى يعرفوا ما تعنيه من العمل، بعد فهم ما تدل عليه، وما يؤخذ منها من العلم، فلا يكتفون بفهم القرآن فهما نظرياً، ولا بتحليل آياته، ولكنهم يتخذون من القرآن منهجاً للسلوك، منهجاً للعمل، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: (كنا إذا تعلمنا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات من القرآن لم نتعلم من العشر التي نزلت بعدها حتى نعلم ما فيها)[1] ولكننا نقرأ القرآن كله من فاتحته إلى خاتمته، ونمر على الآيات فيها أمر، ونهي، وأحكام، وتشريع، فلا يستوقفنا شيء من ذلك، هكذا فهم أسلافنا القرآن، أنه منهج، وأنه تطبيق، وأنه دستور، وكانوا لا ينظرون إلى شيء غير القرآن، ولا يستمدون الهدى إلا من القرآن، ولا يأخذون دينهم كله إلا من القرآن، ولا يلتفتون إلى ما

---

(١)أخرجه الحاكم (١/ ٧٤٣) والبيهقي (٥٤٩٥).

تعج به الدنيا في حياتهم، من علم، ومعرفة، وثقافة، لقد فتحوا بلاداً مليئة بأنواع العلم، والمعرفة، والثقافة، فلا تشغلهم عن القرآن، ولم تصرفهم عن هداية القرآن، لأنهم اكتفوا بالقرآن، ومن لم يكتف بالقرآن وهداية القرآن فلا كفاه الله ﷻ، لقد وجد النبي ﷺ مع عمر بن الخطاب ﷺ ذات يوم صحيفة من التوراة ينظر فيها، فغضب أشد الغضب وقال: «أمتهوكون فيها يا بن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به والذي نفسي بيده لو أن موسى صلى الله عليه وسلم كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني»[١] فرمى عمر الصحيفة من يده واستغفر الله ﷻ، هكذا كانوا ينفرون من كل ثقافة تخالف القرآن، ومبادئ القرآن وهدى القرآن، ولم يأخذوا من الدول الأخرى إلا ما ينفع في الحياة المادية، إلا ما ينفع في الحياة الدنيا، إلا ما يخفف عن الناس عبء المعيشة، وتكاليفها، لأن الناس أعلم بذلك من المسلمين، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾«الروم:٧» أ وأما ما عندهم من ذخيرة روحية دينية، فهذه لا يحتاجون فيها إلى أحد، ولا يتلمسون شرحها وبيانها عند أحد، بل كتاب الله ﷻ بين أيديهم كلام واضح بين، لا لبس فيه، ولا غموض، فما كانوا يعمدون إلى شيء من تلك الثقافات، ولا تلك العلوم، وإنما أخذوا

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٣٨٧) عن جابر بن عبد الله، وحسنه الألباني في الإرواء (١٥٨٩).

علمهم كله من كتاب الله، ومن سنة رسول الله ﷺ، فكان القرآن هدىً لهم، كان هدى لقلوبهم، ولأرواحهم، كان هدى لعقولهم، أخذوا من القرآن العقيدة السليمة، التي لا يلتبس بها شيء من الباطل، فقاوموا باطل الأرض كله، حاربوا بها باطل الدنيا كلها، بعقيدتهم الواضحة الفطرية البسيطة التي أخذوها من القرآن العظيم، أخذوا من القرآن المنهج العملي في السمو، الذي يحث على كل بر، وعلى كل خير، ويوجه الإرادات الوجهة الكريمة النافعة، التي لا تضمر رغبة في شر، ولا في منكر، ولكنها تتجه إلى تحقيق الخير والمصلحة، أين كانت المصلحة، وأين كان الخير، تعلموا من القرآن مكارم الأخلاق، تلك المكارم التي ما حواها كتاب في الأول، ولا في الآخر، كما حواها القرآن، تعلموا من القرآن عقيدة، وعملاً، وتشريعاً، وسلوكاً، وآداباً، وأخلاقاً، وقصصاً، وأخباراً، فكان القرآن هو دائرة معارفهم التي يرجعون إليها في كل ما يهمهم، ويعنيهم في دينهم، ودنياهم، هكذا كان القرآن في نظر هؤلاء الذين سلفوا من هذه الأمة، وللقرآن وحده كانوا هم هذه الأمة القوية العزيزة الكريمة، التي خرجت إلى الدنيا الجاهلة الظالمة، فعلمتها كيف تكون الحياة؟ وكيف يكون السلوك في الحياة؟ أقرت فيها العدل، وأقرت فيها النظام، ووجهتها وجهة الخير، حتى كان الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، بمجرد أن يروا سلوك المسلم، وحياة المسلم، تلك الحياة التي لا تضل، ولا تختل، ولا تميل إلى هوىً، ولا إلى منكر، ولكنها حياة كحد السيف، هذه الحياة كانت وحدها هي التي

تجذب الناس من جميع الأمم إلى الدخول في الإسلام، حين يرون عدل المسلمين، وإنصاف المسلمين، وكرامة المسلمين، وإحسان المسلمين، ورحمة المسلمين، فكان ذلك يدعوهم إلى الدخول في دين المسلمين، ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو الكتاب الواضح الذي لا شك في أنه منزل من عند الله ﷻ، وما يشك ولا يرتاب في هذا الكتاب إلا جاهل أحمق، لم يتذوق معاني القرآن، ولم يتحقق بأغراض القرآن، ومقاصد القرآن، ولكن هؤلاء الذين ذاقوا حلاوته، والذين تعرفوا عليه عند سماعه أو قراءته، ووجدوا هذه المعاني التي يسكبها في القلوب فيصححها، وفي العقول فيوقظها، وفي الضمائر فيحييها، هؤلاء هم الذين انتفعوا بهدى القرآن، وهو هدى للمتقين، الذين اتقوا الشرك، فلم يتلبسوا بشيء منه، لا بصغير، ولا بكبير، بل أفردوا ربهم وحده بالعبادة والتعظيم، فلم يجعلوا لله نداً من خلقه، فما دعوا إلا الله، ولا خافوا إلا الله، ولا ذلوا إلا لله، ولا توكلوا إلا على الله، ولا توجهوا بقلوبهم، وأعمالهم، وأموالهم، إلا لله، فكانت أعمالهم كلها خالصة لله ﷻ، لا يشوبها شوب من شرك، ولا من وثنية، ثم اتقوا كل ما حرم الله عليهم، فما تلبثوا بفاحشة، ولا بمعصية، بل أدوا ما فرض الله عليهم، واجتنبوا ما حرم، وقاموا عند حدود الله فلم يتعدوها، وإذا هاجت في نفس أحدهم رعونة البشرية فوقع في شيء مما حرم الله ما يلبث أن يرجع ويفيء إلى الله، ما يلبث أن يندم على ما ارتكب من حماقة، لا يلبث أن يعود إلى ربه مستغفرا من ذنبه ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾«آل عمران١٣٦:١٣٥» ، ليست التقوى كلمة تقال على اللسان، وإنما هي سلوك حذر، سلوك يقظ، سلوك يتنبه لدسائس النفس، وغواية الشيطان، سلوك يتنبه، فيحذر كل انحراف، أو كل ميل عما أمر الله ﷻ بالاستقامة عليه، ونهى عن الطغيان ومجاوزة الحد فيه، ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾«هود١١٣:١١٢» ، يسأل عمر ﷺ أبي بن كعب عن التقوى، وعمر أحق الناس أن يعلم ما هي التقوى، ولكنه يريد أن يضم علم أبي إلى علمه، فيقول له أبي: (يا أمير المؤمنين ألم تسر في طريق فيه شوك؟) قال: (بلى) قال: (فماذا كنت تصنع؟) قال: (كنت أمشي متأنياً حذراً) قال: (فتلك هي التقوى) التقوى أن تمشي حذراً، خائفاً، وجلاً، كلما نزعت بك نفسك إلى شهوة فيما حرم الله، كلما نزع بك عقلك إلى بدعة ضلالة ليس لها حجة ولا دليل من كتاب الله ولا من سنة رسول الله رددت ذلك وكففته، فإن المرض في هذه الأمة مرضان: مرض الشبهات، ومرض الشهوات، وكل مرض منهما مهلك لصاحبه، فمن الناس من هلك بمرض الشبهات، ومن الناس من هلك بمرض الشهوات، فإذا أردت أن تكون معافاً سليماً من هذا المرض وذاك،

فعليك ألا تتبع البدع والشبهات ، وعليك أن تقف عند نصوص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، غير متأول، وغير متشكك، ولا متردد، وغير محكم عقلك، فيما لم تسغه من هذه النصوص، بل يجب أن تخضع لها وتذعن، وألا تظن أنك بعقلك المريض تستطيع أن تحكم على النصوص، بل هي الحكم عليك وعلى عقلك، وعليك أن تتبعها وتجري ورائها فإن الخير كله فيها، وعليك كذلك أن ترد عن نفسك مرض الشهوة، أن تقاوم كل نزوع وميل إلى الدنيا وشهواتها الآثمة المحرمة، واقتصر فيها على ما أحل الله لك من طيبات، وكما أحل الله لنا من طيبات، فيها غنية، وفيها كفاية عن الحرام، وعن سبيل الحرام، وفيها كفاية عن الغواية، وعن الآثام، فعليك أن تسلك بنفسك طريق السلامة، وألا تجلب لها مرض، من هذه الأمراض المهلكة الموبقة، هؤلاء هم المتقون، الذين وصفهم ربك، بهذه الأوصاف العظيمة، والخلال الكريمة، فوصفهم بأنهم يؤمنون بالغيب، نعم يؤمنون بالغيب كله، بكل ما غاب عن حواسهم، بكل ما غاب عن أعينهم مما جاء به الخبر الصادق في كتاب الله أو في سنة رسول الله، ما دام قد قام الدليل عليه، فينبغي الإيمان والإذعان له بلا شك ولا ارتياب، فهم يؤمنون بالله لما قام من الدلائل على عظيم قدرته، وعلى واسع رحمته وعلى بالغ حكمته، فيؤمنون بالكتب السماوية كلها، التي نزلت من عند الله، ويؤمنون بكل رسول الله بعثه الله، ويؤمنون بما قص عليهم القرآن من قصص السابقين، ويؤمنون بما أخبر القرآن أنه سيقع في آخر الزمان، أو بعض هذه الدنيا في اليوم

الآخر، وبما جاءت به السنة من هذه الأخبار، لا يردون خبراً، ولا يعطلون نصاً، بل يؤمنون بما دلت عليه الأخبار كلها، ما دامت الأخبار صحيحة، ليس فيها سقم ولا ضعف، فهذا هو المنهج الذي يجب أن تتبعه أيها المسلم بإزاء هذه النصوص من الكتاب ومن السنة إيمان بالغيب كله، لا ترد شيئاً من هذا الغيب بحجة أن عقلك لا يسيغ الإيمان به، لقد تعلق أناس وغرتهم عقولهم، هذه العقول التي تمردت على كتاب ربها وعلى أخبار نبيها، دخلت تماري وتجادل في بعض، هذه الغيوب التي صحت بها الأخبار، في القرآن وفي السنة، ظناً منهم أن عقولهم تستطيع أن تدرك من ذلك ما لم يأت به النص، وأن عقولهم أحكم وأهدى من النص، ترى بعض هؤلاء المتحذلقين ينكرون أن يكون عيسى عليه السلام قد رفع إلى السماء حياً، وينكرون أن يكون عيسى سينزل إلى الدنيا قرب قيام الساعة، ورفع عيسى ثابت بصريح القرآن الذي يقول: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾«النساء:١٥٨» ، ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾«آل عمران:٥٥» ، ونزول عيسى ثابت بالأحاديث المتواترة، التي اتفق عليها الشيخان، البخاري ومسلم، وهي موجودة في كتب الأحاديث كلها، فلماذا نماري؟ لماذا نجادل في هذه الأخبار؟ إذا كنا قد سمينا أنفسنا أنصاراً، فإذا لم نكن أنصاراً لهذه الأحاديث فأي شيء ننصر؟ وإنك لو شككت في حديث واحد من هذه الأحاديث، لشككت في السنة كلها، ولأتيت عليها من قوائمها، لأنها أحاديث بلغت حد التواتر، فما ظنك بأحاديث لم تبلغ هذه المبلغ من القوة ومن الثبات؟ هي أولى

بأن ترد، وهي أولى بأن تعطل، وبذلك تضيع السنة، وبذلك تنبذ السنة وراء الظهور، لا بل كل حديث صح من قول واحد أو اثنين، أو كان حديثاً مشهوراً، أو متواتراً، ما دام لا جرح في رواية، ولا ضعف في رواته، يجب أن نؤمن به، وأن نعمل به، وأن نتمسك به، هكذا ينبغي أن يكون نهج هذه الجماعة، التي سمت نفسها أنصاراً للسنة، لا أن تماري، ولا أن تجري وراء أهواء المتحذلقين، الذين يشككون في هذه الأحاديث، ويطعنون فيها بلا سبب، وبلا دليل، إيمان بالغيب كله، لا نرد غيباً من الغيوب التي اشتمل عليها القرآن، والتي اشتملت عليها السنة المطهرة، كلها ما دام قد صح بها النص، من الكتاب أو من السنة، هذا مدح لهؤلاء المتقين بأنهم يؤمنون بالغيب، فكن من هؤلاء الذين مدحهم ربك، بأنهم يؤمنون بالغيب، فلا يردون شيئاً من هذا الغيب، الذي لم يروه، ما دام الدليل قد قام على وقوعه، وحصوله، ثم هم بعد هذا الإيمان، تظهر عليهم ثمرات هذا الإيمان، ثمرة في أبدانهم، وثمرة في أموالهم، أما ثمرة هذا الإيمان في الأبدان، فأنهم يقيمون الصلاة يؤدون هذه الصلوات المفروضة، التي كتبها الله عليهم، خمس صلوات كل يوم وليلة، هذه الصلاة التي هي الركن الثاني في الإسلام، التي لم يشأ ربك أن يفرضها على الأرض، وإنما فرضها في السماء، ولم يشأ أن يفرضها على لسان جبريل، وإنما فرضها بنفسه، وكلم نبيه كفاحاً من وراء حجاب، قال لهم بصوت نفسه: إني فرضت عليك وعلى أمته كذا وكذا، هذه الصلاة التي جعلها الله ﷻ عماداً

لديننا، كما في الحديث الصحيح: «وعموده الصلاة»[1] هذه الصلاة التي جعلها الله طهرة لك من الفحشاء والمنكر، التي جعلها الله إحياء لقلبك، حتى يظل عامراً بذكر ربك، ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾«العنكبوت:٤٥» ، هذه الصلاة التي يتمنى خليل الله إبراهيم وهو من هو، أن يجعلها الله مقيماً له ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾«إبراهيم:٤٠» ، ويمدح الله ولده إسماعيل بأنه ﴿كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾«مريم:٥٥» ، هذه الصلاة التي مدح الله بها خير خلقه، وحكم لهم بالفلاح والفوز، بأنهم كانوا يقيمون الصلاة، هذه الصلاة صفة المؤمن، وجعل المحافظة عليها آخر صفة المؤمن، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾«المؤمنون٢:١» ثم قال في آخر هذه الآيات: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾«المؤمنون١١:١٠» ولم يقل ربنا يصلون، وإنما قال: ﴿يقيمون﴾ فلا تظن أن المطلوب منك أن تصلي، أي صلاة، ولكن أنت تقيم الصلاة، أن تؤديها مقامة مستقيمة، غير معوجة، أن تأتي بها كاملة غير منقوصة، أن تتم لها

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه (٢٦١٦)، وابن ماجة (٣٩٧٣)، والحديث صححه لاشيخ الألباني في صحيح سنن ابن ماجة.

خشوعها، وركوعها، وسجودها، وأن تتوجه بقلبك بكليتك إلى الله ﷻ في صلاتك، أن تكون صلاة خاشع منيب، صلاة ذليل بين يدي ربه، صلاة حاضر مع الله، قد حضر قلبه ولبه، صلاة مودع يعدها آخر صلاته، هكذا ينبغي أن تؤدى الصلاة، وما جاء في القرآن أبداً صلوا، وإنما جاء ﴿أقيموا الصلاة﴾ أدوها مستوية كاملة، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ هذه هي ثمرة الإيمان في المال، أنهم يعلمون أن هذا المال هو مال الله، وأن الله هو الذي خولهم هذا المال، فهو الذي جعلهم مستخلفين فيه، وهو عارية في أيديهم، ستسترد وسيخلفونه، سيخلفهم فيهم من بعدهم من الورثة، فينبغي ألا يبخلوا بمال الله، في سبيل الله، بل يجب عليهم أن ينفقوا من هذا المال، في كل ما أمر الله بالإنفاق فيه، نفقة على نفسك، نفقة على أهلك، نفقة على ولدك، نفقة على خادمك، نفقة على الفقير المحتاج من إخوانك، نفقة في نوائب المسلمين، نفقة في كل ما يحب الله ﷻ الإنفاق فيه، في كل ما يعلي كلمة الله، في كل ما فيه إعزاز لدين الله ﷻ، هكذا ينبغي أن يكون المؤمن، لا شح، ولا بخل، ولا خوفاً، من فقر، فإن هذا من وعد الشيطان، ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾«البقرة:٢٦٨» ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾«المنافقون١١:١٠» ، آمنوا بالغيب، وأقاموا

الصلاة، وأنفقوا مما رزقهم الله، هذه الخلال الثلاث، ثم هم يؤمنون بما أنزل على نبيهم ﷺ من القرآن، ويؤمنون بكل ما أنزل من عند الله على من سبق نبيهم من الرسل عليهم الصلاة والسلام، يؤمنون بالكتاب كله، ولا يفرقون بين أحد من رسله، كما وصفهم ربهم، ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾«البقرة:٢٨٥» . ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾«البقرة:٤» يؤمنون إيماناً لا شك فيه بأن لهم معاداً، يلقون الله ﷻ فيه، بأن لهم حياة وراء هذه الحياة، يجزون فيها على ما قدموا في حياتهم الدنيا، يجزون بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، ولا يضيع شيء مما قدموا، لا من خير، ولا من شر، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾«الزلزلة٨:٧» بل يجدون ذلك كله مكتوباً في صحائفهم، في كتابهم الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فقدم أيها الأخ لنفسك، قدم لنفسك ذخراً عند الله، ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾«المزمل:٢٠» هؤلاء الذين تخلقوا بهذه الأخلاق العظيمة، بهذه الصفات العالية، التي هي ثمرات الإيمان، إيمانهم بالغيب، وهي مع ذلك يزيد الإيمان، وتقويه في قلوبهم، فقد اقتضت حكمة الله أن تكون الأعمال نوراً يزيد من الإيمان في القلب، كما أن الأعمال تنبع من هذا الإيمان، فهي ترتد إلى

هذا الإيمان بالقوة، فتقويه وتزيد من نوره في القلب، ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات العظيمة، متمكنين من الهدى، لا ينخلعون عنه أبداً، لا يمكن أن يزيلهم عن هذا الهدى مزيل، ولا أن يفنيهم عنه شيء، بل هم متمكنون منه أشد التمكن، لا تلتبس عليهم فتنة، لا تلتبس عليهم شبهة، بل يجدون كل ذلك، يجدون حل ذلك كله في كتاب ربهم، وفي سنة نبيهم ﷺ، وفيما جعله الله من نور في قلوبهم، جعل الله في قلوبهم نوراً، يفرق لهم بين الخير والشر، ويبين لهم الشبهات، ويحل لهم المشكلات، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾«الأنفال:٢٩» ، ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ هذا هو جزاء الآخرة، بل هم مفلحون في الدنيا قبل الآخرة، بل لهم الفلاح في الدنيا ولهم السيادة، ولهم العز، والتمكين في الدنيا، ثم لهم الحسنى، ثم لهم الجنة، ثم لهم النظر إلى وجه الله في دار الآخرة.

قد علمتم ما قال الله ﷻ في شأن الفريق الأول، الذين هم المتقون، الذين وصفهم الله ﷻ بهذه الأوصاف، التي تلوناها وبيناها، ثم حكم لهم بالاهتداء والفلاح، بأنهم على هدىً من ربهم، وأنهم مفلحون، هذه أربع آيات في شأن هؤلاء المتقين.

ثم ذكر الله ﷻ آيتين اثنتين في شأن الكافرين، هؤلاء الذين جحدوا الحق، وعاندوه من بعد ما تبين لهم، من بعد ما قامت الأدلة، من بعد ما وضحت

الحجج، فردوا الحق عن عناد، وعن لجاجة، لا عن قصور في الأدلة، ولا عن ضعف في الحجة، ولكنهم ركبوا هوى رؤوسهم، ولكنهم عاندوا الحق الذي نزل عليهم من ربهم، فكان جزاؤهم، أن ختم الله على سمعهم، وعلى قلوبهم، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كفروا الحق، وجحدوه بعد البيان، بعد قيام الأدلة والبراهين، هؤلاء لا تنفع فيهم موعظة، ولا يغني معهم تذكير، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ إذا قلت لرجل من الناس: هذا بئر أمامك، فاحذر أن تقع فيه، وكان الرجل سليم البصر، واسع العينين، فأقدم على الوقوع في البئر، أكنت تظن أن مثل هذا ينفع معه تحذيرك؟ لا ينفع التحذير مع الغفلة، مع ركون هوى، فهؤلاء تبين لهم الحق ووضح، ولكن لم يستجيبوا له، وحاربوه، وعاندوه جرياً وراء التقاليد، وراء التقليد الأعمى، خوفاً على الرئاسة والجاه، فماذا يكون جزاء هؤلاء إلا أن يضرب الله على قلوبهم، فلا يدخلها حق ولا خير أبداً، هكذا كان الجزاء من جنس العمل، إن الله لم يظلمهم شيئاً، وإن الختم على سمعهم وعلى قلوبهم، إنما كان جزاءً على إعراضهم أول مرة، كما قال ربنا: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾«الأنعام:١١٠» ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾«البقرة٧:٦» .

ثم ذكر الله في شأن المنافقين ثلاثة عشر آية.

تتمة وقفات مع سورة البقرة

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾«البقرة١٦٢:١٦١» ، بعد أن امتن الله ﷻ علينا كما في الآيات السابقة، بأنه أتم علينا نعمة الهداية، وأرسل فينا رسوله محمداً ﷺ، يتلو علينا آياته ويزكينا، ويعلمنا الكتاب والحكمة، ويعلمنا ما لم نكن نعلم، بين الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الطريق إلى شكر هذه النعمة، نعمة التعلم، نعمة الهداية، الطريق إلى شكرها أن تبذل من علمك، أن تبذل ما وصلت إليه من الحق، من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أن تبذل ذلك لمن يحتاجه، وتنشره في الناس، وألا تكتمه في نفسك، وألا تبخل به على أحد من خلق الله، هذا هو الطريق إلى شكر هذه النعمة، نعمة العلم التي امتن الله ﷻ بها على بعض خلقه، ثم أمرهم أن يقوموا بشكرها، فيبلغوا ما عندهم من علم، وما حملوه من أمانة، إلى من لم يبلغه ذلك من النور، وتوعد الكاتمين للعلم، والذين لا يقومون بنشره، ولا ببذله لمن يحتاجه، توعدهم في هذه الآية بأشد الوعيد، فسجل عليهم لعنة الله، ولعنة كل لاعن، وذلك لأن العلم في الإسلام هو القاعدة

الكبرى، التي ترتكز عليها أحكام الإسلام كلها، أصولها، وفروعها، فالإسلام يقوم على العلم في كل قضاياه وفي جميع أحكامه، ولا يعتد الإسلام بعقيدة ما لم تكن قائمة على العلم، فهذه العقائد الموروثة التي يتوارثها الناس، يتوارثها الأبناء على الآباء لا يعترف بها الإسلام، لأنها عقائد تقليدية ليست قائمة على فهم سليم، ولا على علم صحيح، فهي عرضة للتقلب، وهي كذلك عرضة للزوال، فلا يعترف الإسلام إلا بما يقوم من العقائد على علم صحيح وبرهان، كذلك لا يعترف الإسلام بعمل لا يقوم على العلم، فمن صلى وهو لا يعرف أحكام الصلاة، ولا كيف يصلي، وإنما قلد أباه، أو أمه، في حركاته من غير أن يعرف حقيقة الصلاة، ولا غايتها، ولا شروطها، ولا آدابها، ولا منزلتها من الإسلام، فإن صلاته ليست في نظر الإسلام صلاة، وإنما هي حكاية صلاة، كذلك كل عبادة تعبد الله بها عباده، من صيام، أو حج، أو غير ذلك، فأساسه العلم، وأصله العلم، فالعلم في الإسلام هو الأساس الأول، وهو القاعدة الكبرى، التي يجب أن يقوم عليها الإسلام كله في عقيدته وفي شريعته، وفي كل أمر ونهي، وحلال وحرام، لا بد أن يعرف المسلم كل ذلك ليصح عمله، وتصح عقيدته، وبدون ذلك لا ينفعه اعتقاد، ولا يثمر منه عمل، ولهذا أمر الله سبحانه وتعالى ببذل العلم ونشره، حتى ينقشع عن الناس الجهل، وحتى يكون الناس على أساس سليم من أمر دينهم، وأخذ الله الميثاق على الذين أوتوا الكتاب، ليبيننه للناس ولا يكتمونه، كما أخذ الميثاق على النبيين أن يعلموا

الناس، وأن يقوموا بالدعوة إلى دين الله ﷻ، فهو ميثاق مأخوذ على كل ما آتاه الله علماً أو فهماً في كتابه، أن يقوم ببذل ذلك ونشره، وإلا كان من الكاتمين، وكان مستحقاً للعنة الله، وللعنة اللاعنين، وقد ورد عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «من آتاه الله علماً فكتمه، ألجم بلجام من نار يوم القيامة»[1] نعم، وكان هذه جزاءً وفاقاً، لأنه لما حبس لسانه عن الحق، وصار شيطاناً أخرس، وترك الكلام بالحق، كان قد رضي لنفسه، بأن يكون كهذه العجماوات، التي لا تقدر عن الكلام، فكان جزاؤه عند الله أن يضعه في فمه لجام، الذي لا يوضع إلا في فم البرذون، أو البغل، أو الفرس، لأنه صار مثلها في السكوت وترك الكلام، ولكنها هي معذورة لأنها لم تخلق قادرة على الكلام، ولكنه وقد أعطاه الله علماً فضن به على الناس، ولم يبذله، ولم ينشره، وأمسك لسانه عن تعليم الناس ما يحتاجون إليه، مما أعطاه الله إياه، كان مستحقاً لأن يوضع في فمه لجام، ولكن ذلك اللجام ليس من جلد، لأنه لجام عذاب، فهو لجام من نار، يوضع في فمه يوم القيامة.

يقول ربنا سبحانه وتعالى متوعداً لهؤلاء الكاتمين للعلم، الخائنين للأمانة، التي حملهم الله ﷻ إياها، بأن يعلموها للناس ولا يكتموها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾ ويقول بعض المفسرين: إن هذه الآية

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود.

نزلت في شأن أهل الكتاب، الذين كتموا ما عندهم من نعت رسول الله ﷺ وصفته، التي يجدونها عندهم في التوراة والإنجيل، ولكنا نقول لهم: إن هذا وعيد لكل كاتم للعلم، فالعبرة بعموم اللفظ، واللفظ هنا عام، والله يتوعد جميع الكاتمين، سواء كانوا من هذه الأمة، أو ممن سبقها من الأمم، فكل كاتم للعلم ملعون عند الله سبحانه وتعالى، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا﴾ يكتمون الذين أنزلناه من البينات، والدلائل الواضحات، والهدى، والعلم النافع، والحق الواضح الصريح، يكتمونه بعدما علموه، وبعدما بينه الله في الكتاب، وهذا إزالة لعذرهم، فلا عذر لهم في الكتمان، بعدما بينه الله في الكتاب، وبعدما علموه علماً واضحاً لا غموض فيه، فليس لهم عذر في أن يكتموه، وألا يقوموا بتعليمه لكل من يحتاجه، لأنه مبين وواضح في كتاب الله ﷻ، فهي بينات ودلائل واضحات، لا تشتبه على أحد، وهي هدى بين واضح، وحق صريح، وعلم كضوء النهار، وبينه الله في الكتاب، هؤلاء الكاتمون يتوعدهم الله سبحانه وتعالى على هذا الكتمان، وعلى هذا البخل بالعلم، لأن العلم كالمال، فكما جعل الله في مالك حقاً، وزكاة مفروضة، كذلك أوجب عليك في علمك حقاً مفروضاً، وهو أن تبذله لمن يريده من الجاهلين الغاوين، حتى يردهم عن جهلهم وغوايتهم، كما تبذل من مالك للفقراء والمساكين، لكي تزيل فقرهم وحاجتهم، بل إن حاجة الناس إلى العلم أشد من حاجتهم إلى المال، فإن العلم غذاء القلوب والأرواح، وإنما المال غذاء لهذه الأبدان الفانية الزائلة، فالصدقة

من العلم خير من صدقة المال، أن تتصدق من علمك، وأن تبذل من علمك، فذلك خير من ما تبذله من مالك، لأن حاجة الناس إلى العلم أشد وأعظم من حاجتهم إلى المال، أولئك الكاتمون للعلم الذي بينه الله في الكتاب يلعنهم الله، هم مستحقون للعنة الله، ومستحقون للطرد والإبعاد عن رحمة الله، لأنهم لم يرحموا الناس، لم يرحموا جاهلاً فيعلموه، لم يرحموا غاوياً فيرشدوه، لن يرحموا ضالاً فيهدوه، فلذلك منعهم الله ﷻ من رحمته، وحرمهم منها، لأنهم حرموا الناس مما عندهم من العلم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾بل هم مستحقون للعنة كل لاعن، كل من يتأتى منه اللعنة فهو يلعن هؤلاء لأن نظام هذه الحياة لا يستقيم إلا بالعلم، لأن معرفة الحقائق في هذه الحياة لا يمكن إلا بالعلم، فهؤلاء بكتمانهم للعلم، صدوا الناس عن سبيل الله ﷻ، وأوقعوهم في الحيرة والضلال، وكانوا حرباً على نظام الله ﷻ في خلقه، فكانوا مستحقين للعنة كل لاعن، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾، الذين تابوا ورجعوا عن كتمانهم، وبذلوا وبينوا فهؤلاء يعود الله عليهم بالتوبة ويقبل معذرتهم، ويغفر لهم ما سلف من تقصيرهم في كتمان العلم، وفي السكوت عن التعليم، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾إلا الذين رجعوا إلى الله، وندموا على ما كان منهم من تقصير في الماضي، ثم أصلحوا فيما بقي من عمرهم، واستقاموا على الجادة، ثم بينوا ولم يكتموا، وبذلوا العلم ونشروه، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ولقد كان سلفنا الصالح رضي الله عنهم يجتهدون في نشر ما

عندهم من العلم، لأنهم يعلمون أنها أمانة، ينبغي أن يؤدوها إلى من يحتاجها من الناس، وكتمان العلم خيانة، فكانوا يقومون بنشر العلم وبيانه، خروجاً من عهدة الكتمان وإثمه، فهذا معاذ بن جبل ﷺ، يسمع حديثاً من رسول الله ﷺ، وأنه أتاه آت من ربه فبشره أن: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، صدقاً من قلبه، إلا حرمه الله على النار» فيقول له معاذ: (أفلا أبشر الناس يا رسول الله؟) فقال له: «إذاً يتكلوا»[1] يعني يتكلوا على هذه البشرى ويقصروا في عمل، لكن معاذاً يسكت ولا يتكلم بهذا الحديث حتى يحضر أجله، فيتكلم به معاذٌ تأثماً، أي خروجاً من إثم الكتمان عند الله ﷻ، فأخبر به معاذٌ قبل موته لكي يخرج بذلك من إثم الكتمان وعهدة الكتمان، وهذا أبو هريرة ﷺ حين اتهمه الناس بكثرة الرواية عن رسول الله ﷺ، حتى شكوا في بعض أحاديثه، يقول: (والله لولا آيتان من كتاب الله لما حدثتكم شيئاً أبداً)[2] يعني أبا هريرة ﷺ بهاتين الآيتين هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ «البقرة:١٥٩» والآية الأخرى قوله سبحانه من سورة أل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ «آل عمران:١٨٧» فمن أجل هذا كان يحدث أبو هريرة، وكان ينشر

---

(١) متفق عليه من حديث معاذ رضي الله عنه، البخاري (١٢٨)، مسلم (٣٢).

(٢) رواه البخاري (٢٣٥٠).

علم رسول الله ﷺ، رغم اتهام كثير من الناس له، لكنه كان يرى أنه إذا قصر في التبليغ وقصر في نشر العلم، دخل في الوعيد الذي توعد الله ﷻ به الكاتمين، هذا في حق الكاتمين للعلم، الذي عرفوا الحق ثم كتموه، وضلوا به على من يحتاجه من الناس، ثم يتوعد الله ﷻ صنفاً آخر، وهو الصنف جاحد للحق والمنكر له، فكلاهما مستحق للعنة الله، الذي عرف الحق وكتمه وجحده، والذي أنكر الحق وجحده ولم يعرف الحق الذي يجب أن يسلكه ويتبعه، الذي مات على كفره وجحوده، وإنكاره للحق الواضح الصريح، هذا هو أيضاً مستحق للعنة لله، وللملائكة، والناس أجمعين، يقول الله ﷻ في شأن هؤلاء المنكرين الجاحدين، بعدما ذكر في شأن الكاتمين الخائنين يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ كفروا بالحق وجحدوه، ثم ماتوا على هذا الكفر والجحود، فلم يبصروا الحق يوماً من الدهر، ولم يعرفوه، بل عاشوا حياتهم كلها كما تعيش سائمة الأنعام، حتى جاءهم الموت وهم في غفلة، وهم في جحودهم، يقول الله ﷻ: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾«البقرة١٦٢:١٦١» توعدهم الله سبحانه وتعالى أيضاً باللعنة، كما توعد السابقين باللعنة، ولكن قال في حق هؤلاء الكفار، أنهم في اللعنة خالدين فيها، أنهم في اللعنة لا يخرجون منها أبداً، ولا يخفف عنهم العذاب ولا هم يمهلون، ولا يؤخرون.